مونترلان

شيطان الخير





النص كاملاً

للمؤلف
في سلسلة ماريان

- الصبايا
- رأفة بالنساء
- شيطان الخير
- المجذومات
- الملكة الميتة

قيد الاعداد

- سيد سانتياغو
- بور رويال

مُونترلان

شيطان الخير

ترجمة وتعليق
جُورج مَصْروعَة

عويدات

Editions Gallimard

5, rue Sébastien-Bottin
75341 Paris Cedex 07
Téléphone 544-39-19
Télex GALLIM 204121 F
Adresse télégraphique :
ENEREFENE Paris 044
Société anonyme au capital
de 8 737 300 F
572206753 B R.C. Paris

الطبعة الأولى ١٩٨٧

لا ادري ... ولكني أحسّ هـذا الشيء
يحـدث فيّ ، فـاذا انا مصلوب بـه .
(كاتول ، الفصل الخامس والثمانون)

هذا الكتاب هو الحلقة الثالثة من سلسلة عنوانها «الصبايا» .
ويجب ان تُقرأ هذه السلسلة حسب التدريج التالي :

١ً — الصبايا
٢ً — رأفة بالنساء
٣ً — شيطان الخير
٤ً — المجذومات

ملاحظـــة

نشرت جريدة « كنديد » في ٢٩ نيسان ١٩٣٧ ، حديثاً جرى بين السيد جان فايار ومؤلف « شيطان الخير » ، نقتطف منه الفقرات التالية :

. . . .

س – يدور كتابك كلّه تقريباً على الزواج ، فهل تعمّدتَ وضع مؤلف ضد الزواج ؟

ج – لو اردت ان اضع كتاباً ضد الزواج ، لما جعلت عبارات الهجوم على الزواج بين شفتي شخص غريب الاطوار ومُستهجَن التصرفات كبيار كوستال[1] .

س – لن اطرح عليك السؤال التقليدي : « هل كوستال هو مونترلان ؟ » إلّا اني اوجه اليك سؤالاً آخر هو : « الى اي حد تعتبر كوستال مثال رجل الفن ؟ »

ج – ليس كوستال رجل فن في اعتباري ، انما هو رجل فن في الواقع.

---

١ ـ كان المؤلف قد اعطى اسم بيار كوستا الشخصيـة الرئيسة في روايته ؛ وقد ظهر هذا الاسم في الحلقتين السابقتين من هذه السلسلة ، فاغتاظ رجل يدعى بيار كوستال واحتج قائلاً ان هذه التسمية تسبب التباساً يسيء اليه .

وعلى الرغم من ان الالتباس غير ممكن لان شخصية بيار كوستا لا تشبه بشيء بطل رواية «الصبايا» فقد أصرّ المؤلف على تغيير اسم بطله ، وجعله كوستال . المؤلف .

س — ألا تسلّم بان « شيطان الشر » رواية موجّهة ضد زواج ارباب الفن ؟

ج — ان بعض الحجج التي اوردها بطل روايتي ضد زواج ارباب الفن تبدو لي وجيهة وقيّمة . وثمة حجج لا قيمة لها . يبدو من الوجهة المبدئية ان الزواج لا يوافق ارباب الفن ، لكن كثيرين منهم ، ولا ريب ، وجدوا فيه راحتهم . لكن هذا تصعب معرفته ، لأن جميع الناس يكذبون عندما يتحدثون عن الزواج . المتزوجون لا يعترفون إلا نادراً بانهم أشقياء في زواجهم ، لأن هذا الاعتراف يعني انهم اخطأوا . وهناك تواطؤ عام غايته ابقاء هذه السنّة التقليدية في قيد الحياة .

س — انك اقل تصلباً من بطل روايتك في الحكم على الزواج . وهذا يعني انك لا تتضامن في الرأي مع كوستال ، كما فعلت في التنبيهين اللذين صدّرت بهما «الصبايا» و«رأفة بالنساء» .

ج — ان شخصية كوستال اكثر اختلافاً عني في « شيطان الخير » منها في الحلقتين السابقتين . وما وضعته فيها من نفسي لا يعني جمهور القراء . كثيراً ما تحدثت في مؤلفاتي باسمي — وكثيراً ما قلت : اما ! — كيلا يحكم عليّ احد إلا باعتبار ما أعربت عنه شخصياً . ولا مجال للبحث عني في شخصية كوستال ، ولا في شخصية « كوانتري » بطل رواية « العزّاب » الذي وضعتُ فيه كثيراً من شخصيتي . وفي هذه الرواية أراني ايضاً في شخصية مربّي الاوزّات البرية ؛ وهذا ما لم يفكر به احد .

س — كثيرون من الناس يأسفون على خلقك هذه الشخصية الكريهة ...

ج — لا ادري لماذا لا يؤاخذون الروائيين الآخرين الذين لا يقعون تحت حصر ، ومنهم مؤلفو الروايات البوليسية الذين يعرضون في مؤلفاتهم لصوصاً ومجرمين يبدو كوستال الى جانبهم قديساً صغيراً .

س — ذلك انك وضعت الكثير من شخصيتك في شخصية كوستال ، فلا غرابة اذا بحث القراء عنك في كوستال ، ولم يبحثوا عن موريس لوبلان في شخصية أرسين لوبان[1] .

ج — في اغلب الاحيان ، يعزو القراء الى كل كاتب الآراء التي يوردها على لسان اشخاص رواياته . فلما صدّرت «رأفة بالنساء» بكلمة اوردها تولستوي على لسان فلّاح من القوزاق ، حرصتُ على الاشارة الى ان الكاتب الروسي اورد هذا القول « على لسان فلّاح تشيتشين » . فاذا باربعة او خمسة من نقاد «رأفة بالنساء» يكتبون ان هذا القول لتولستوي ، مع انه يناقض آراء تولستوي مناقضة كلية . وعلى كلّ ، فلما انصرفت الى وضع سلسلة «الصبايا» ، لم اكن اجهل ان القراء سيخلطون بيني وبين كوستال . إلا اني غير مضطر الى الاهتمام بهذا الالتباس ، فهو نوع من المزاح يتندر به الناس ، بل هو هذا العفن الذي يتراكم على جميع الكتب ، ولا شأن له في الكتاب . واصارحك بانه لا يهمني مطلقاً ان يخلطني بكوستال القسم الأقل ادراكاً والاقصر نظراً من القراء . ويخطىء القراء اذا خلطوني بكوستال ، ولكن لا يهمني ان يخطئوا ، لان هذا الأمر لا يعنيني . واذا كنت قد اصررت وما ازال اصر على اني لست كوستال ، فما ذلك إلا لحرصي على تبيان الحقيقة الراهنة ، لا اكثر .

س - وكانت نتيجة هذا الخلط انه أثار عليك ، هنا وهناك ، مؤاخذة قاسية .

ج ليس في علمي اني أوخذتُ من احد يهمني امره او اقيم وزناً لاحترامه .

س - وضعت في الآونة الاخيرة كتباً تختلف اختلافاً كبيراً عن

[1] ـ اللص الشريف الذي يسرق اموال الاثرياء ليوزعها على المعوزين . وهو بطل رواية شهيرة مؤلفها الكاتب الفرنسي موريس لوبلان . ويعتبر ارسين لوبان مثال البراعة في اللصوصية والامعان في الكرم .

مؤلفاتك السابقة ، فهل وجدت متعة خاصة في هذا النوع من الانتاج ؟

ج — اجل ، ولا اخفي عنك اني سأكون سعيداً عندما افرغ من سلسلة «الصبايا» في العام المقبل ، واباشر وضع : « على شفير الهاوية » ، لانتقل بعدئذٍ الى « مناخ » آخر . كانت شخصية كوستال في نفسي بمثابة ردّة فعل مضادّة لشخصية بطل « وردة الرمال » ، فلم اشأ ان احرمها الحياة . وسأكون مسروراً بان أعود في كتابي المقبل : « الفتيان » (وهو ايضاً اجزاء عديدة) ، الى الجو الذي أوحى اليّ بمؤلفاتي الاولى . لن يكون كتاب « الفتيان » مصنفاً فيه سخرية قاسية ، بل سيكون انتاجاً اجرؤ على وصفه بانه في منتهى الإحكام والدقة . وسيكون بين مؤلفاتي كأطول موجة تهاوت على الشاطىء ... ولم يكن في نيتي ان اجعل سلسلة «الصبايا» كتاباً من هذا النوع ، بل وددتُ ان تكون ، من اولها الى آخرها ، شيئاً مكدّراً ، شديد الإيلام . ولم يكن من السهل عليّ ان اظلّ حريصاً ، في الاجزاء الاربعة من الكتاب ، على ان لا اتخاذل ، ولا استرسل لـ « لشيد النفس العميق » ، إلا في فترات سريعة . فاحتفظت بقدرتي على الانطلاق في موضوعات اجدر بالاحترام من «الصبايا» . وفي هذا الصدد اضطررت الى البقاء « داخل نطاق عملي » كما يقولون في التعابير الرياضية . وكان يجب ان تجري الامور هكذا لتحتفظ سلسلة «الصبايا» بالمعنى الذي اردته لها بين مؤلفاتي .

س — وما هو هذا المعنى ؟

ج — اترك للقارىء مهمة اكتشافه . ولكنه لن يكتشفه قبل بضع سنوات .

س — ألا تخشى ، في مثل هذه الحال ، ان ينشأ سوء تفاهم بينك وبين القراء ؟ فالجمهور لا يجد الوقت اللازم للبحث عن المعنى المحجّب في الرواية التي يقرأها .

ج — والمؤلف لا يجد الوقت اللازم ليشرح هذا المعنى للقراء ، اذا

كانت الرواية على شيء من التعقد والعمق ، ففي وسعه ان يقوم بعمل افضل . وعوضاً عن ان يضيع وقته في الشرح ، يستطيع ان يضع مؤلفاً جديداً ، وهذا العمل هو الذي يغري الكاتب الخلاّق . على النقاد ان يشرحوا المؤلفات ، واذا لم يفعلوا ، او اذا فعلوا بلا عناية ، فعلى القراء ان يتدبروا امرهم قدر المستطاع .

س – ولهذا السبب طرحت عليك بضعة اسئلة لتنوير قراء « كنديد » . ولا ريب في ان سوء التفاهم بينك وبينهم سيكون اقل خطورة بعد اطلاعهم على هذا الحديث .

ج – المهم في الموضوع ان المؤلّف موجود . وفي ما عدا ذلك ، لا بد من العودة دائماً الى قول بودلير[1] : « العالم لا يسير إلا بقوة سوء التفاهم . ففي سوء التفاهم يتفق الجميع . ولو شاء سوء الحظ ان يفهم الناس بعضهم بعضاً ، لتعذّر عليهم ان يتفقوا » .

س – يخيّل اليّ ، احياناً ، انك تجد متعة خاصة في زيادة سوء التفاهم بينك وبين القراء .

فاجاب هنري دي مونترلان بحركة مبهمة ...

. . . .

---

١ – شارل بودلير شاعر فرنسي (١٨٢١–١٨٦٧) اشتهر بكتابه « ازهار الشر » ، وهو مجموعة قصائد عميقة الشعور ، بحث فيها الشاعر عن الموسيقى الشعرية قبل كل شيء . وله كتاب آخر بعنوان : « قصائد منثورة » . وهو مترجم مجموعة قصص لادغار بو من الانكليزية الى الفرنسية .



الجزء الاول



اسكورونكونكولو[١] ، اعطـني ردائي النوراني الكبير . اريـد ان اتنزه في حديقة يوسّع ظلـّها عيني ، ولا اريد ان اشتغل مهما يكن الثمن .

وعلى طريق الترهات[٢] ، نتوقف على ضفاف البحيرات ، لنرى هناك الحيوانات . نحب الحيوانات لأنهـا لا تكذب . ولهذا السبب استعبدهـا الانسان ، وهي تذكـّره بالحقيقة .

ما أسعد حياة تبدأ بالطموح ، وتنتهي بالاقتصار على امنية واحدة هي رمي الطعـام للبط ! هوذا سرب من البط يجرّ وراءه على المـاء اشكالاً مثلثة الأضلاع ، فهذه هندسته الخاصة كلها ، يمزجها بصور الهندسات التي يرسمها رفقاؤه . يتقبّب الماء بخفة وهدوء تحت ضغط صدوره المستديرة . ولبعض هذا البط مصباح صغير أخضر عوضاً عن الرأس . ما اجمله عندما يخطر في باله ان يكون مَرحـاً ، فينتصب مستقيماً على ذيله ، ويصفع الهواء باجنحته في غمرة الحماسة ، فيبدو كأنه جماعة من الصحافيين تتظاهر بالاستياء ! وفجأة يغطس في الماء ، غير تارك للهواء إلا زمكـّى عابثة ساخرة . ولا يخلو هذا الوضع من قـلة الأدب حـــين يتخذه الأوز .

---

١ - تخيّل المؤلف هذه الشخصية الوهمية واعتبرها رفيقته ، وهي من طراز شيطان الشاعر في اعتقاد عرب الجاهلية ، وشيطان فاوست في رواية غوته الشهيرة .

٢ - كتب المؤلف كلمة : « ترّهة » BAGATELLE ، بحرف كبير Majuscule في اولها ، اي انـــه اعتبرها علماً لمكان ، كأنه يسعى الى التسلية الغرامية سعي المتعب الفكر الى السياحة الترفيهية . وكثيراً مـــا تستعمل لفظة Bagatelle بالفرنسية للدلالة على الوصال العابر .

ولكن لا حرج فيه على البط ، لأن البط اصغر حجماً من الاوز.

في هذه المناسبة تحضرني ذكرى تركها في ذهني بط البحر لدى مروري ببحيرة تونس . كان هذا البط يدور على نفسه بسرعة قبل ان يغطس . وما اروع فتنته حين يستسلم لتموّجات الماء ترجّحه على هواها ، ويشعر من يراه انـه يجد نوعـاً من التسلية الممتعة في هذا الاستسلام ، كأن في رأسه فكرة طائشة تدفعـه الى التشبّه بالبط الاصطناعي الذي نراه في المسابح الراقية .

لم ينتهِ حديثي عن البط بعد . ما ألطفه عندما يطير ! كيف يمكن ان تنشأ في ذهن الانسان (غير الجائع طبعاً) رغبة في اطلاق الرصاص على هذا الحيوان الجميل ؟ ان رؤية سعادتـه الحرة قد تشفينا مـن آلامنا الخبيثـة ، لو كانت هـذه الآلام فينـا ، لكن من حسن الحظ اننـا منها براء .

وتطير هذه البطات مسرعةً ، بادلةً الجهد للحاق ببطات الطليعة التي اختارت اتجاهـاً لطيرانها وفرضته على السرب . اظنهـا ذاهبة الى مكان تحمل اليه خبراً ساراً . وعندما تلحق البطـات المتأخرة برفيقاتها ، يواصل السرب طيرانه على خط واحد . ومن البديهي انه فخور بدقة النظام في خطـه المستقيم . وللبط من الوعي والحكمة مـا يعصمـه من الرغبة في السباق . انه يترك هذه الرغبة للانسان .

... ترّهات ! ربما كانت هذه الساعات الطويلة ، نمضيها في حديقة ، افضل مـا نجني من الحياة ، ففيها ، على الأقل ، مـا يخفف العبء عن الجفون . ولا اريد ان يحدثني احد عن الاشخـاص الذين احبهم حتى العبادة ، فمتعتي السحرية ، في هذه الفترة ، هي ان اكون متحرراً منهم . اني مستسلم اليوم للازهار ولاوراق الشجر ، فهي تنعم عليّ بان لا تحبني ، وهوذا لبن النهار في فمي . وهذه هي الساعة الجميلة التي تحلم فيها النفس المرتوية بالزمن الآتي الذي يعاودها فيه العطش .

ولا ريب في ان زميلي العزيز بيار كوستال لم يكن في مثل هذه الحالة النفسية . ليت الشيطان يذهب به ! رأيته يسير الى جانب فتاة بارعة الجمال ترتدي ثياب الحداد . وكان يبدو ان هذه الشابة فقدت ، منذ حين ، اباها او امها . يالهـا من فرصة سانحة للعشير الطامع بالمتعة ! فاي امرأة ، في مثل هذه الحال ، لا تكون بحاجة الى التنفيس عن كربها !

كان كوستال يتكلم بحرارة كأنه يلقي محاضرة . وكانت الى جانبه تسير محدّقة الى طرفي نعليها . مـا اجمل مشيتها ! انهـا فارعة القامة ، طبيعية الحركات ...

ها انا وراءهما ، على مسافة ثلاثة امتار ، يطيب لي ان اختلس كلمة من حديث كوستال ، لاجعلها سلاحاً ضدّه يوماً ما . إلا انها توقفا تحت قنطرة من الصخور . وكان عناق . ثم سمعت : « طق... طق... طق... » وتذكرت هذا البيت من الشعر لكوستال ايامَ شبابه :

« قُبَلُ العشاق روثٌ يتساقط ! »

ولم اكن قد تنبهت ، قبل تلك اللحظة ، الى الشبه العجيب بين قُبَل العشاق وتساقط روث الدواب . اجل ، يا زميلي العزيز ، تشبيهك مدهش ومصيب .

لندعهما الآن . فالأسلحة ضد كوستال متوافرة في مؤلفاته . اعترف بانه موهوب . لكنه يضايقني ، ولا قِبَل لي بمقاومة هذا الشعور . وخلاصة تمنياتي بالنسبة اليه ؟ اني انتظر ان يموت .

ها نحن في الساعة الثانية بعد الظهر . بدأ الناس يتوافدون الى الحديقة. انهـا جسم سليم اخذت تجتاحه الجراثيم . اود ان اذهب الى هنـاك ، فارى رجلا . وأعود ادراجي ، فأجد اناساً هنا ايضاً . اني مطوّق . اسمع صفيراً حتى من الناحية التي لا ارى فيها احداً ... فثمّة شخص يصفر بقوة وراء الحائل ولا اراه . انـه يعرب عن نظرته الى الكون ، وهي نظرة تدل على ان صاحبها جلف غليظ .

كان الناس يتقاطرون من جميع اطراف الحديقة . لستُ من صنفهم . فما عسام يعملون بي اذا تبينت لهم هـذه الحقيقة ؟ افكر بالاوثان الخشبية الصغيرة ، والينابيع المعبودة التي بقيت على الارض ردحاً من الزمن بعد انتصار المسيحية ، فكانت دائماً في موقف الترقّب . لم تؤثر بي الخرافات قط كما أثرت بي هذه الفكرة الآن .

وقبـل ان اخرج ، لمت حصاة نديّة نضرة كعنق الفتوّة ، لاحتفظ بشيء من هـذه الحديقة . لكني لا ادري لـماذا لمت هـذه الحصـاة ، ألأرميها بعد ثلاث دقائق . من يدري ؟ ربما اكون قد لمتها لأستطيع ان ارميها .

وبينما كنت خارجاً ، التقيت فتـاة حسناء جالسة الى جانب الطريق على الاعشاب النديّة . كانت تدخّن وتقرأ في كتاب .

وجهي الذي كان قد ارتاح ، عاد فتوتر من جديد ، وعادت اليه الاخاديد التي كانت قد محتها الاضواء المنبثقة من اوراق الاشجار . يجب ان اعود الى معاشرة الناس ، يجب ان استأنف البغضاء .

اسكرونكونكولو ، خذ ردائي النوراني الكبير .

تغدى كوستال مع سولانج في احد مطاعم غابة بولونيا ، ثم اصطحبها الى خلوة غرامية .

وفي لقائها الثاني في شهر نوار ، أعرب لها عن دهشته لكونها لم تتزوج بعد على الرغم مما تتمتع به من الفتنة والجمال . فاجابت بان كثيرين طلبوا يدها فرفضتهم ، لانها لن تقترن إلا بالرجل الذي يعجبها .

وكان كوستال يعلم انه ليس من الحكمة ان يكون هو البادىء بالحديث عن الزواج . إلا أنه طرق هذا الحديث رغبة منه في الانحراف عن سبيل الحكمة . حدد « سنيك » المرأة بانها : « حيوان وقح » . ويكفي ان نضيف حرفاً واحداً الى هذا التحديد لنطبقه على الرجل ، فيكون : « حيواناً مغفلاً » [1].

وبعد تلك المقابلة صُرف النظر عن الزواج ، ولم يبقَ من الموضوعات الواردة .

واليوم عاد كوستال الى الموضوع فجأة فقال بلا تمهيد:

– الزواج بلا طلاق ، الزواج المسيحي ، هو شيء فظيع ومضاد للطبيعة بالنسبة الى الرجل . فمن طبيعة الرجل ان يسأم ما يعتاد . لكن المجتمع يفرض عليه ان يظل اميناً لامرأة تفقد في نظره شيئاً من محاسنها اذا مرّ شهر على ارتباطه بها . فالزوج في الخامسة والخمسين من العمر يكون

---

١ ـ استطاع المؤلف التلاعب بالالفاظ لأن لفظة : Impudent ، بالفرنسية تعني : « وقحاً » ، ولفظة : Imprudent ، تعني : « مغفّلاً » ، فأضاف الى الكلمة الاولى حرف R ليصف الرجل بالغفلة .

عادةً في ذروة الرجولة ، ان لم يكن مهدّم العافية ؛ أفيستطيع الاكتفاء بامرأة في الخمسين ، ان لم يكن فاسد الشهوة ؟

واذا اعتصم بالامانة عملاً بوحي الواجب ، تأثرت فيه طبيعته ، وساءت صحتـه . وجميع الاطباء الاذكيـاء الذين اعرفهم ينصحون مَنْ كان في مثل هذا العمر من الرجال بان يخون زوجته اذا كان مزاجه يتطلب الحب .

يسيء الناس ، في الزواج المسيحي ، الى العقل والى الطبيعة ، فيصبح الدين منافياً للحيـاة والمعقول . ففي اعتباره ، يجب الاعتقـاد ان الاله « الحسود » اراد ان يكون الانسان شقياً ، فخلقة غبياً ، ليدفعه غباؤه الى البحث بملء ارادته عن البؤس والتعاسة والانغماس فيها . انا شخصياً اقول ان الحد الأعلى من عمر المرأة الذي استطيع ان اشتهيها فيـه هو السادسة والعشرين ؛ اما الحد الادنى فمن الافضل ألاّ نتحدث عنه . ان احد علمـاء الطبيعة العرب اكتسب بآرائه في هذا الموضوع شهرة واسعة هو جدير بها : فمن اقواله ان الارنب البري يغيّر جنسه مرةً كل ستة اشهر . واما ارى ان المرأة عندما تبلغ السادسة والعشرين او السابعة والعشرين تغير جنسها ، وتصبح شيئاً آخر غير المرأة ، تصبح شيئاً لا نستطيع ان نشتهيه . أتظنين اني سأرغب في معانقتك ، وفي ما هو أهم من العناق ، الى آخره ... عندما تبلغين الخمسين من العمر؟ من المحتمل ان تتبدّل المرأة بعد الزواج تبدلاً خلقياً وجسدياً ، وان تصبح مخلوقـاً آخر ، كما يصبح الفتى في السادسة عشرة غير ما كان في الرابعة عشرة . فمن يتزوج كمن يُقلع الى عالم مجهول .

وساد الصمت قليلاً . فقفزت فتاة صغيرة عن احد بنوك الحديقـة كما يطير العصفور عن غصن شجرة .

وكانت سولانج اقل الناس استعداداً للرد على هذه الآراء بحجج دامغة ، فلزمت الصمت ، وإن تكن فكرة الزواج كانت راسخة في ذهنها . غير انها كانت تستمع ، وهي متجهمة الوجه ، الى حديث كوستال ، فاستطرد

قائلاً :

ـ ان الرجل المتوسط يستطيع ان يتزوج . امـا ان يتزوج الرجل المتفوّق ، فالويل له ! فزواج عظماء الرجال هو الخطيئة التي لا يعترفون بها. ان المرأة مبعث قلق وهموم ، وعلى الرجل المتفوّق ان يظل حراً طليق الفكر . ومن واجب الكاتب ، مثلاً ، ان يكون قادراً على ان يزن بكل دقة مـا يتلقى من الحيـاة ، وعلى ان يفتح حنفيـة الحيـاة ، او حنفية الشغل ، او يسدها كما يشاء . كان احد الكتّاب[1] يقول ما معناه ، على وجه التقريب : « ان ما يلزمني هو ايام مستوية ، وفارغة ، فارغة ، حتى ان الحب والصداقة لا يستطيعان دخولهـا دون ان يحدثا فيهـا اضطراباً » . وهذه الايام الفارغة ضرورية للتأمل ، وتكوين الفِكَر ، والخلق . وقـد بالغ فلوبير ، ولا ريب ، يوم طلب ان تكون الايام فارغة دائمـاً . ان للايام الفارغة اوقاتها ، ولا يحصل عليهـا إلا من كان طليقـاً ، لا يرتبط باحد ، ولا يساكن احداً ، وليس له اعمال تتطلب اهتمامه بهـا . فالرجل الخلاّق يجب ان يتمكن ، في الزواج ، من ان ينسى امرأتـه واولاده . وهذا غير مستطاع . وما الفائدة من الزواج اذا كان الرجل سينسى انه متزوج ؟ ساكنتُ نساء ثلاث مرات ، فـدبَّ بيني وبينهن الشقاق بسبب اقامتي مع كلٍ منهن تحت سقف واحد . وهذا الشقاق محتم لا مفر منـه كمخاصمة الصديق الذي تقرضه مبلغاً من المال . وبعد ، فـلا اقوى على الشعور باني مكبَّل . ربما خطر في بالي ان اسافر الى بلد بعيد واقيم فيه ، او ان اشترك في رحلة طويـلة ، او ان اتنسَّك في صومعة . من المحتمل ان لا اعمل شيئاً من هـذا كله . إلا اني بحاجة الى الشعور ان لا شيء يمنعني من القيام بها جميعاً . يقتلني مـا يثبّتني في حالة مستقرّة . ليس في حياتي سوى شيء واحد ثابت هو عملي الادبي . أفضل الف مرة ابن

---

١ ـ اميل كليرمون . ـ المؤلف .

السِفاح غير المعترف بـه على الولد الشرعي ، والخليلة على الزوجة ، لان الصفة الشرعية ، الاجبارية ، في العلاقة ، هي التي تفقدني صوابي .

اجابت سولانج :

– أسلّم جدلاً بان رجلاً مثلك يستطيع الاستغناء عن الزواج . ولكن فراغ الحياة من الاولاد يبدو لي اشد خطورة ، خصوصاً بالنسبة الى من كان مثلك ، لا اخ له ولا اخت .

– لو شئت ان احدثك حديثاً فيه شيء من الادعاء والغرور ، لقلت لك : الحياة هي زوجتي ، والكتب التي استلها منها هي ابنائي . وبمثل هذا النوع من التفكير تحدّث باريس[1] عن نابوليون فقال : « بناته كانت انتصاراته » . يا ليت لم يكن لنابوليون غير هذه العائلة ! وثمة اعتبار آخر هو اني لا احب اليوم ان انجب ابناً لاعتقادي ان لا سبيل الى جعله كما اريد ان يكون في عالمنا الحاضر . ولا مجال للبحث في انجاب بنت . فلو حلت بي هذه الكارثة لقتلت نفسي . وفي اعتقادي ان لا مفر للابن من ان يلطخه عار هذا العصر . فكيف يكون موقفي من هذا الابن الذي اضطر الى احتقاره ؟ لو حدث ذلك لأبغضته بغضاً لا يخطر في بال احد . ومن يدري ؟ فقد افكر بحذفه من الوجود ! لا ، لم أشأ خوض هذه المغامرة .

والحق يقال ان باريس كان في التاسعة عشرة من العمر لما أنجب ابنه فيليب ، ولم تكن له مؤلفات ، ولا خبرة كافية في شؤون الحياة ، وربما كان يفتقر يومذاك الى الارادة التي تمنعه من مواجهة الخطر . وقد شاءت الصدفة ان كان فيليب ولداً طيباً . ولكن لا يجوز ان تتكل دائماً

---

١ – موريس باريس (١٨٦٢–١٩٢٣) كاتب فرنسي دقيق التحليل ، شعري البيان . اهم مؤلفاته : « دم وارادة وموت » . انتقل من الايمان بالذات الى الايمان بالارض والوطن . ومن وحي هذا الايمان كتب « الربوة الملهمة » ، و« المنتزعون من ارضهم » ، و« كوليت وبودوس » . كان عضواً في الاكاديمية الفرنسية .

على حدوث المعجزات .

قالت سولانج :

– ومع ذلك ، ارى ان الرجال الذين يتسحون الزواج كثيرون ، حتى بين اصحاب الشهرة (وكانت تخلط دائماً بين اصحاب الشهرة والرجال المتفوّقين !)

فاجاب كوستال :

– ان ضعفاء الشخصية وبسطاء العقول يستطيعون دائماً ان يتسحوا الزواج . واعلمي ان الذين يدافعون عن الزواج بالقول هم الذين يكابدون منه اشد الآلام . انهم يتظاهرون بالسعادة الكبرى خوفاً من ان تنكشف حقيقتهم ، ومن ان يرثي الناس لحالهم .

– انك اليوم شاب ، أفلا تظن انه سيأتي يوم تشعر فيه بالحاجة الى وجود اشخاص الى جانبك يشجعونك في ساعات الخَوَر ؟

– في ذهنك فكرة بورجوازية عن العالم توهمك بانه لا بد للرجال من معاناة ساعات خَوَر . فكوني على ثقة بان ثمة رجالاً يشذون عن هذه القاعدة ؛ وهم لا يجهلون ما هو الخور وحسب ، بل لا يجدون في حياتهم وذكرياتهم نقطة ارتكاز واحدة تساعدهم على تخيّل ما هو الخور . انا ، مثلاً ، لا احتاج مطلقاً الى المساعدة ، اللهم إلا اذا كنت مصاباً في جسدي . اني ارتاح في ما أخلق . وخليقتي هي صحتي التي تنقذني ممن لا احب ، وتزيل عني التعب . لست بحاجة الى ان أكون اثنين . وبكلمة أدق واوضح ، ليس هناك سوى مناسبة واحدة ، وواحدة لا غير ، احتاج فيها الى شخص آخر ، هي : مناسبة المتعة الجنسية . وفي جميع الحالات الاخرى احس اني أصغر وأنقص اذا كان الى جانبي شخص آخر ، او اذا خيّل اليّ اني مع شخص آخر . واخيراً ، اذا افترضنا ان ساعات صعبة ستحل بي ، فاني اجد عزائي في نفسي ، او في تعاليم كبار الحكماء . وقد اجد العزاء ايضاً في الوصال الجنسي . ولست بحاجة الى زوجة ، على ما

اعتقد ، للحصول على هذا الوصال . واني لأسائل نفسي حقاً اين تستطيع المرأة الشابة ان تجد القوة اللازمة لتعزيتي ، إن لم يكن في جسدها ؟ أتكون هذه القوة كامنة في معاشرتها الفكرية مثلاً ؟ لا ، اني احتقر كل زواج يعتبره الناس ضمانة للمساكين الضعفاء الذين يعجز كلٌّ منهم بمفرده عن مواجهة « صعوبات الحياة » . هؤلاء الناس كناية عن وحدات من النقص والعوز تحتاج الى التقارب بحثاً عن تبادل الدفء ... واذا كان الزواج كذلك ، فلا بأس ، اذ لا يجوز لنا ان نحتقر ما يسعف المساكين ، ولا ان نرميه بحجر . ولنعد الآن الى ما قلته لك في بداية هذا الحديث من ان المساعدة لم تخلق إلا للاشخاص الضعفاء ، فلا تحدّث بها الآخرين .

— عشرات وعشرات الالوف من الرجال وجدوا في المرأة ملجأ لهم ، منذ بداية العالم . وهذه حقيقة لا تستطيع نكرانها ولا التنكر لها .

— بلى ! استطيع كل شيء ضدها ، لاني قادر على نكرانها باعمالي . لكل منا مصيره ، وليس مصيري هنا . احببت سيسَرا الذي حدثتنا عنه التوراة في الفصل الرابع من سفر القضاة . احببته حباً اخوياً صافياً . كان هذا الرجل قائداً لـ « اشرار » ، اي قائداً كنعانياً في خدمة يابين ملك حاصور . قهره الاسرائيليون ، فلاذ بالفرار ، ولجأ الى ياعيل امرأة حابر القيني التي خرجت من خيمتها لاستقباله ، وقالت له : « مِلْ يا سيدي ، مِلْ اليّ لا تخف » . فمال اليها ، ودخل خيمتها ، واستلقى على فراش وهو مرهق ، فغطته بالقطيفة . فقال لها : « اسقني قليلَ ماء فاني عطشان » . ففتحت وطب اللبن وسقته ، ثم غطته . ذكر الكتاب المقدس عبارة « قليل ماء » ، فكلما فكرت بهذا الطلب الزهيد ينتابني بعض البكاء . واذا كنتِ لا ترينني ابكي ، فلأن بكائي داخلي . وغرق سيسرا في النوم ، فاخذت ياعيل وتد الخيمة ، واخذت الميتدة بيدها ، وضربت الوتد في صدغه حتى غرز في الارض . وقد نام واسترخى فمات .

تربطني بسيسرا محبة اخوية لأنه مكروه ، ولأنه عطش . فعطشه في نظري هو عطش المرء الى اللسان المثلث ، هذا العطش الذي اعانيه انا . انه عطش المعارف الثلاث[1] . وربما اصبح مصيري كمصيره اذا لجأتُ الى امرأة ، لأنها ستجعل دماغي خليطاً معفّراً . فالمرأة تبغض دماغ الرجل دائماً . وثمة كلمة بليغة الدلالة على ذهنية المرأة ، وفي منتهى العمق والصحة ، قالتها السيدة تولستوي في زوجها ، وهي من الكلمات الجديرة بالحفظ كآيات الكتب المقدسة . قالت السيدة تولستوي : « لا استطيع احتمال زوجي لانه لا يتألم ، ولأنه يكتب » . يقول العلماء الكثوليكيون ، او بالحري الذين اعتنقوا الجانسنية منهم ، ان سيسرا هو احد وجوه الشيطان . وهذا معقول اذا اخذنا عطشه بعين الاعتبار . لكني اشك في ان يكون الشيطان قد وثق بامرأة ولجأ اليها ، لأنه ، في جوهره ، شعلة ذكاء .

— لم تستطع إلا الاعتراف بانك تحتاج الى المساعدة اذا كنتَ مصاباً في جسدك . فعندما تصبح هرماً وعليلاً يسرّك ان تكون الى جانبك زوجة تمدّ لك اللزقات المسكّنة !

— اودّ ان يكون قولك هذا من نوع الترديد الخالي من الفكر ، على طريقة الببغاء . فلو فكرتِ بمعناه ، ثم تفوّهت به ، لما كان لك عندي اقل اعتبار . يا له من انتصار عظيم للمرأة ان يدعوها عجوز متهدم في اواخر حياته ! انه من طينة انتصار الكنيسة عندما يقبل الملحد ، وهو في منتصف غيبوبة احتضار ، ان يستقبل كاهناً . اجل ، قد اتزوج عندما امسي عجوزاً خائر القوى . وبعد ؟ أفيعني هذا الزواج اني اكون مع

---

١ — اذا اراد الفرنسيون المبالغة في الوصف عمدوا الى تثليث النعت فقالوا مثلاً : « هذا معتوه مثلث » ، اي في منتهى البلاهة والغباء ، او محتال مثلث ، الخ... وربما اراد المؤلف هنا هذا المعنى . اما المعارف الثلاث فربما كانت معرفة المرء نفسه ، والناس ، والله .

زوجتي روحاً واحدة ، وجسداً واحداً ، ومـا قيل ومـا يقال في هـذه المسألة ، ام يعني اني أرضيت ممرضةً مخلصةً باعطائها صفة شرعية ؟ ليس في هذا كله ما يدحض رأيي في الزواج .

وكانا في مكان من الحديقة محاط باغراس الورود الذابلة ، المرمـة ، في اواخر تموز ، فاستأنف كوستال حديثه قائلاً :

– يصرف الانسان فطنته وبراعته في إفساد كل شيء متقن وناجح ، وتشويه كل جمال ، حتى لو كانا من إبداعه . منذ قليل ، سمعت خرير ماء بعيد ، فهرعت اليه ، فاذا فوق الماء تمثال ، تمثال خالٍ من الجمال . فتصوري كم كانت خيبتي مرّة ! وفي مكان آخر رأيت بنكاً ، فاذا هو بـلا مسند للظهر . ولا يصنع بنكاً بـلا مسند إلا من لا يعرف مـا هي الراحة . والآن انظري الى هذه الورود ، فاقول لك لماذا تذكرني بالزواج . لكل واحدة منها لوحة هويّة ، ورقم يدل عليها ، واسم بالفرنسية ، واسم آخر باللاتينية ، ومعلومات عن فصيلتها ، فكأننا ما نزال في المدرسة . وأرى أن ليس بين هـذه الورود واحدة تحمل اسم شاعر ، انمـا هنـاك وردة « الرئيس كارنو » [1] ، وهي ثقيـلة كالقلب المعذب ، تذكرني بتلك القرى الجزائرية التي تدعى باللغة العربية « رأس الماء » و « مراح الحمام » ، وقد استُبدلت اسماؤها فدعيت « ارنست رنان » [2] او « ساريان » [3] . وفي هذه

---

١ ـ احد رؤساء الجمهورية الفرنسية انتخب عـام ١٨٨٧ ، واغتاله الارهابي كازيريو عام ١٨٩٤ في مدينة ليون .

٢ ـ (١٨٢٣–١٨٩٢) كاتب فرنسي ، درس تاريخ اللغات والاديان ، وآمن بالعلم والعقل . اشهر مؤلفاته : « مستقبل العلم » ، و « تاريخ اصول الديانة المسيحية » ، و « تاريخ شعب اسرائيل » ، و « مذكرات الحداثة والشباب » و « حياة يسوع » ، ومصنفات في الآثار الفينيقية .

٣ ـ (١٨٤٠–١٩١٥) سياسي فرنسي تولى مناصب وزارية عديـدة ، وبلغ رئـاسة الحكومة عام ١٩٠٦ اذ حل محل الرئيس روفياه . كان يساري النزعة .

الواحة التي أنشئت للراحة والانشراح، تعيدنا لوحات الورود وارقامها الى الخليط الاجتماعي الذي حاولنا الفرار منه. فوردة « المحترم فلان » تدعونا الى حل مسائل خلقية دقيقة، كأن تسألنا، مثلاً، ما هي الصفات التي تجعل المرء محترماً. ووردة « التفاهم الودي » تجبرنا على القيام بأعمال مؤسفة لنفحصها ونرى أذايلة ومعفرّة هي. ووردة « السيدة فلانة » (وهي ممثلة معروفة) تكرهنا على المقارنة بين السيدة فلانة واحدى الورود. واعتقد اننا اذا سرنا على هذه الطريق، تحتم علينا ان نواصل السير دون تردد. واقترح ان تضاف الى اسماء الاشخاص المسجلة على اللوحات ألقاب الشرف وانواع الاوسمة التي يحملها هؤلاء الاشخاص... ولا يجوز ان ننسى نوع السيارة التي يملكها كلٌّ من الذين خلعت اسماؤهم على الورود، ولا ان نهمل الاشارة الى القصور التي يقيمون فيها.

— وما هي علاقة هذه الورود بالزواج؟

— يفسد الناسُ الحبَّ بالزواج، كما افسدوا هذه الورود بالتسمية والتصنيف. والحب لا يفسد بالزواج وحسب، بل يفسد باحتمال عقد الزواج. فشبح الزواج يحرّك سلاسله — سلاسل الزواج، طبعاً! — ويسمّ كل حب يكنّه الرجل لاحدى الفتيات. وفي اللحظة التي اقول فيها انه من الممكن... لا، لا اريد حتى ان اتلفظ بهذه الكلمات... فان حبي لك يضعف، اذا تلفظت بها، كأنه تحت تأثير قوة سحرية شريرة. اما اذا طردتُ من ذهني هذه الفكرة المشؤومة، فان حبي ينتفض فوراً، ويشرئب، ويضطرم ناراً. ثقي بان الطريقة الوحيدة لجعل جنون الزواج شيئاً معقولاً، على وجه التقريب، هي السماح بالطلاق اذا اراده احد الزوجين، دون ان يضطر الى ايجاد اسباب شرعية لتبرير رغبته. فمن حق الكاهن ان يخلع ثياب الكهنوت بعد سيامته، اذا تبين له انه غير مدعو الى الزواج الروحي. والزواج العادي هو ايضاً دعوة. ومن واجب الرجل ان يفحص نفسه بدقة، قبل الزواج، ليعلم أمدعو هو لهذا النوع

من الحياة . لو كنت واثقاً بقدرتي على فسخ الزواج ، بعد تجربة تستغرق سنتين ، مثلاً ، دون ان اقدم اقل تبرير لعملي ، لكان من المحتمل ان اتزوج .

– الزواج في نظرك اذاً عملية ايجار محدود المدة ، لا اكثر !

وفي هذه اللحظة ، وقعت على الارض كرة كان احد الاولاد يلعب بها ، فارسلت عوداً صغيراً من الغبار ، وصاح الولد – وهو في حوالى السابعة من العمر – : « انفجرت قنبلة ! » فاين رأى هذا الولد قنبلة تنفجر ؟ أفي السينما ؟ ما أغرب ما يحفل به خيال ولد اوروبي عام ١٩٢٧ !

واستأنف كوستال حديثه قائلاً :

– وثمة حالة اخرى قد اكون فيها مستعداً للزواج ، وهي وقوع كارثة ، حرب ، او ثورة دامية . فعندئذ لا فرق عندي بين ان يزيد الشر قليلاً ، او ينقص قليلاً ، ما دام الدمار سيشمل كل شيء . ومن المحتمل ان اقترن بك اذا نشبت الحرب غداً .

وكانت على الارض قشور قصب بيضاء ، ملساء ، ناعمة ، وُجدت خصيصاً لتُكتب عليها افكار عميقة . وكان هناك عصفور ... (فيا عصفوري الصغير ، هات لي تشبيهاً ادبياً ! آه ، نعم ...) عصفور في وسط الشجرة المستديرة كالنار في وسط مصباح بندقي . كانت في تلك الشجرة اوراق وقعت عليها اشعة الشمس ، شمس من الاوراق ، وشوهد رجل يحملها بين ذراعيه . وكانت هناك غربان متكبرة ، فظّة ، فيها شيء من الانسان ، وعصفور دوري يتفرغر على حافة بركة ، وعصافير مثله نائمة على التراب كالثيران ، وزُمّج ماء يستمع الى صوته (ولكن هل هذا حقاً زُمّج ماء ؟) ، وضفادع صغيرة يذكرنا شكل جسدها بابطال الرياضة الفرنسيين المنتخبين للمباريات الاولمبية . وكانت الاوراق الميتة تكسو وجه البركة ، فمسكينة

الاسماك السابحة تحتها ، لانها لا ترى الاشياء بوضوح ! وقد بنيت في البركة صخرة مزيفة جوفاء لتحتمي الاسماك تحتها عندما يهطل المطر .



من
سولانج دنديو
باريس
الى
بيار كوستال
باريس

٢٨ تموز ١٩٢٧

صديقي !

عزمت على الكتابة اليك ، لاني لم أجد في نفسي القوة اللازمة لمخاطبتك ، فحضورك يشلّني ، فافقد كل قدرتي على المبادرة . وبما اننا نلتقي كثيراً ، ويرانا الناس معاً ، وتروج حولنا اقوال عديدة ، فقد رأيت ان التفاهم على علاقتنا اصبح ضرورياً ، ولا يجوز لنا تأخيره . وألتمس منك الصفح اذا كنت لا احسن التعبير عن شعوري كتابةً كما احسنه قولاً .

اصارحك باني فتاة بكل معنى الكلمة ، مهما تكن هذه الحال غريبة في نظرك . ولا ريب في ان حالة كهذه جديرة بالسخرية لانها من التقاليد البالية التي سبقها الزمان ، لكن هذه هي حالي . فاذا ثابرنا على الالتقاء وعلى الخروج معاً ، فسيقول الناس حتماً اننا خطيبان ، ولا اريد ان اتصوّر تفسيراً آخر لعلاقتنا .

ولو كان الامر متعلقاً باختك ، فبمَ كنت تنصحها ؟ وكيف يكون رأيك في رجل يتخذ منها الموقف الذي تتخذه انت مني ؟

فما هو القرار الذي يجب اللجوء اليه ؟ أننقطع عن اللقاء ؟ قد يكون ذلك صعباً علينا . أليس لدينا وسيلة تمكننا من التوفيق بين نفورك من الزواج وهذا الوسواس الذي اصبح وقراً على ضميري ؟ لماذا لا نحاول اقامة نوع من العلاقة الشرعية بيننا بعقد مدني بسيط وشكلي ، لا نستشير بشأنه احداً (ما عدا امي طبعاً) ، فيكون بمثابة قران موقت ، لانك لا تطيق فكرة الدوام ؟ لا اريد حفلة دينية ، فاحترامي للكنيسة يردعني عن توريطها في تمثيلية زواج مزيّف . واؤكد لك اني اخرج من حياتك عندما اصبح عبئاً عليك . اخرج بمثل الصمت والهدوء اللذين رافقا اتحادي بك . وتكون عمليتنا ايجاراً لا اكثر .

ذلك كل ما كان يجول في فكري ، ولم يبق لديّ ما اقوله في هذا الصدد . سانتظر جوابك بقلق كبير . إلا اني واثقة بان رجلاً شريفاً مثلك لن يؤخره طويلاً . اودعك ، يا صديقي العزيز ، مؤكدة لك اخلص المودّة .

سولانج

فكـَّرت الآنسة دنديو بالزواج منـذ التقائها الاول بكوستال ، في اليوم الاول من نوار[1] ، في منزل دوانيي . ولكنهـا لم تتصور الزواج ممكنـاً إلا برجـل يعجبهـا . وكان الارتباط الزوجي في نظرهـا شيئاً بغيضاً . ولم يكن قد اعجبها رجل حتى ذلك الحين ، فاقامت تنتظر بهدوء النصيب الذي سترسله اليها السماء . والمألوف ان المرأة تبدأ بان تحب الحب ، والكون ، والطبيعة ، والله ، والنزهات ، وما الى ذلك ؛ ثم يتبيّن لها انها بحاجة الى رجل واحد . اما سولانج فلم تكن قد احبت شيئاً او احداً بعد غير امها . ولم يكن قلبها ولا شعورها بحاجة الى شيء . فكانت سعيدة ، هانئة ، وراضية بان تستمر هـذه الحال . غير انهـا رأت كوستال ، وأحست انها اعجبته ، وان فيـه ما يجذبها اليه ، فقالت في نفسها : لِمَ لا ؟ إلا انها لم تشعر بالحب الصاعق الذي يعصف عادة بالفتيات في مثل سنها .

وما لبثت ان تحدثت الى امهـا بهذا الامر ، منذ اليوم الاول ، لما بينها من الثقـة المتبادلة الوطيدة . وفـاضت السيدة دنديو سروراً وهي تقول في سرها : « وأخيراً ، اعجبها رجلٌ ! وبما انها لا تنتظر إلّا هذه الفرصة ... فقد نلنا الأرب ! »

وكانت السيدة دنديو تعني بهذا التعليق المتفائل ان رضى سولانج يبرر

---

١ ـ لفهم الحوادث المنوّه بها في هذا الفصل لا بد من مراجعة الجزئين الاول والثاني من هذه السلسلة ، اي : «الصبايا» و «رأفة بالنساء» . ـ المؤلف .

الاغضاء عن بعض العقبات ، ومنها الفرق في السن ، وكون كوستال كاتباً قد يجرُّ سولانج الى بيئة لا تجد فيها مركزاً لائقاً بها ، لما في ثقافتها من النقص ، ولاختلاف ميولها عن ذوق الاوساط الادبية والفنية .

ولم تكن السيدة دنديو تحب الفخفخة والمظاهر الخلّابة ، إلا انها شعرت بشيء من الخيلاء لان رجلاً شهيراً سيصبح صهرها . وقد خامر هذا الشعور نفس سولانج ايضاً في بادىء الامر ، غير انه ما عتّم ان انقلب الى شعور معاكس ، والى أسف مرير ، لأن كوستال كاتب ، ولأنه شهير . ولم تكن السيدة دنديو تدري ان الصهر المرتجى نزق الطبع ، لبعدها عن الشؤون الادبية ، ولأنها لم تقرأ من مؤلفاته شيئاً .

وبينما كان كوستال عائداً مع سولانج من منزل دواني ، اثنى على بساطة قيافتها ، وعلى الخاتم الصغير الذي زيّنت به احدى اصابعها قائلاً : « انه خاتم فتاة صغيرة ! » وكانت سولانج بسيطة المظهر حقاً ، فارتاحت الى ثناء كوستال وبدأت تدرك ذوقه . وفي الاسبوع التالي ، لما دعيت الى حفلة بيارار بايعاز من كوستال ، عُنيت بهندامها اكثر مما فعلت في الحفلة السابقة ، لان هذه الحفلة كانت ارفع اناقة من الاولى ، وكان بين المدعوين اليها اناس كثيرون لا تعرفهم . غير انها رفضت ان تزين عنقها بالعقد الثمين المتجانس مع ثيابها ، وهو من الحليّ التي تفاخر بها اسرة دنديو . وكانت قد حمّرت شفتيها قليلاً لما ذهبت الى حفلة دواني ، اما هذه المرة فلم تستعمل الحمرة ، بل اكتفت بان تعض شفتيها قليلاً لتجلب الدم اليها ، ووقفت دقيقة على السلم وهي منحنية ، تتظاهر باصلاح جوربيها ، ليصعد الدم الى وجهها ، ثم دخلت الى قاعة الاستقبال . وكانت تحرص اشد الحرص على مراقبة نفسها كيلا تقع في ما يستحق اللوم ، وعلى تكييف تصرفاتها حسب الجو الذي هي فيه . وقد ساعدتها قدرتها على التكييف مساعدة كبرى ، اذ سمحت لها بان تُبرز من مزاياها ما يعجب كوستال ، وبان تستر ما لا يعجبه منها .

ذهبت معه يوماً الى الاوبرا المزلية (في ١١ نوار) ، فجلست الى جانبه وقد شلها الحياء ، فلم تأت بحركة . ولكنه احسّ انه لو قام هو بحركة ما ، لو مد اليها يده ، لكان من المستبعد ان تجفل ، وهي التي غضت النظر عن وقاحة رسالته الاولى اليها ، وعن تصرفه معها تصرفاً لا يجوز إلا مع البغايا . ولم يكن سبب هذا الاغضاء إلا انها تحبه كفاية وتحتمل منه ما يزعجها ، وتود ان يتعلق بها ، ثم لأنها كأمها قليلة الشعور بالكرامة والأنفة .

لم تُطلع امها على تلك الرسالة الوقحة لئلا تسيء الظن بكوستال ، ولكنها اتفقت معها على الجواب ، ثم اتصلت به تلفونياً لتعلمه بانها توافق بكل طيبة خاطر على مقابلته . وتظاهرت بانها لم تفهم ما قصد بالرسالة ، غير انها كانت قد فهمتها جيداً ، مع ان فهمها كان مفتقراً الى الدقة ، فهي تحب الغموض كجميع النساء اللواتي يبنين فيه عشّهن .

وفي مثل هذه الحال ، كانت مداعبات كوستال لها في الاوبرا ، على الرغم من براءتها ، مفاجأة كبيرة لها ، فقد قبلها علانيةً ، ولثم فخذها من خلال ثوبها ، ثم رفع الثوب ليلامس بيده الفخذين العاريتين . فاصيبت بصدمة ملأتها اضطراباً ، وهي التي لم تكن قد سمحت ، حتى ذلك الحين ، بان يقبلها احد ، وعرفت كيف تفرض احترامها على كل من تدفعه الجرأة الى التطاول عليها . وقد رأينا انها ، بعد عودتها من الاوبرا ، انتابتها ازمة نفسية حادة اثارت اعصابها ، فتقيأت . وفي ذلك المساء (١٦ نوار) بدأت تحب كوستال . ولم تستعد هدوءها الا بعد انقضاء خمسة عشر يوماً على هذه الحادثة .

وفي غابة بولونيا ، لما تعانقا للمرة الاولى (٢٢ نوار) ، لم تستسلم له اكثر مما استسلمت من قبل ، وإن تكن قد امتعضت قليلاً من بعض ملامساته المتطرفة ، وقالت له ، في ما بعد ، انها لم تمتعض . قالت لامها انه قبلها ، ولم تذكر شيئاً من التفاصيل . ومنذ ذلك اليوم ، عدلت

عن السياسة التي كانت تنتهجها لتقترن بكوستال ، ولم تعد تحدثه مطلقاً عن الزواج ، بانتظار ان يفتح هو هذا الموضوع لتقول له : « من منا ذكر الزواج قبل الآخر ! »

لم تكن تشك ، لشدة سذاجتها ، بانه سيطرق هذا الموضوع يوماً ما . وحسبت هذا اليوم اقرب بكثير مما كان . إلا انها كانت واثقة بقدرتها على الصبر والانتظار من غير ان تبذل جهداً كبيراً .

وعملاً بالعادة المتبعة في مثل هذه الحال ، بقيت هذه القضية بين سولانج وامها ، فلم تطلعا السيد دنديو على شيء منها ، ولم تذكرا اسم كوستال بحضوره طوال خمسة عشر يوماً . غير انهما اضطرتا في النهاية الى الاعتراف بان سولانج تخرج احياناً مع الكاتب ، ففتح السيد دنديو اذنيه بكل انتباه ، وبوشر وضع مشروع الزواج ، فدُعي كوستال الى تناول الغداء .

وأعجب السيد دنديو فوراً بكوستال ، فاعرب عن موافقته على المشروع ، لكنه لم يقل له شيئاً في الحديثين اللذين جريا بينه وبين كوستال لاسباب عديدة . فالسيد دنديو وُلد مطبوعاً بالنفور من الزواج ، وُلد ليعيش عازباً ، ولم يتزوج إلا « لأن الجميع يتزوجون » ، فما جنى من زواجه إلا السأم . ولما كان اشد ذكاء من زوجته وولديه ، أحس ان كوستال ليس من معدن الرجال الصالحين لان يكونوا ازواجاً ، ناهيك بانه لم يكن يحب ابنته ، لأن ولادتها كانت نتيجة خطأ ارتكبه في ساعة اهمال ، وقد جاءت بعد ان اقسم على ان لا ينجب اولاداً ، لأن ابنه كان يقلقه وينغّص عيشه . وكانت سولانج في نظره غبية ، وهذا خطأ ... وكثيراً ما كان يجدها تافهة ، وهذا خطأ ايضاً ، فليس بين الناس من هو تافه . ولو انه تطرق الى موضوع الزواج لقال حتماً لكوستال : « اولاً : انك لم تخلق للزواج ؛ ثانياً : لو افترضنا انك خلقت للزواج لرأينا ان ابنتي ليست المرأة الصالحة لك ؛ ثالثاً : سأموت بعد

بضعة اسابيع . وقد تحملت الكفاية من افراد عيلتي ، واني اغسل يديّ من هذه القضية ، واتبرأ مما سيجري بعدي . ان زوجتي وابنتي تريدان هذا الزواج ، إلا انك بلغت من العمر ما يسمح لك بأن تزن الامور بحكمة وروية ، فتدبر امرك من دوني » . ولا ريب في ان هذا البند الثالث قضى على البندين الاولين ، فالتزم الرجل الصمت .

ومات السيد دنديو دون ان يقول كلمة وصية لزوجته او لابنته . لم يوجّه اليها وصية اخيرة ، ولا نصيحة ، ولا بادرة عطف او حنان ، ولا رسالة تُفَضّ بعد وفاته . فقد اعتصم بالعزلة والصمت اللذين لزمهما طوال عشرين عاماً ، ولم يترك حتى اشارة الى اعماله وممتلكاته . فعرفت زوجته صدفةً ، وهي ترتب اوراقه ، ان لديه صندوقاً مستأجراً في المصرف ، وفيه مبلغ من الذهب . ولما سألته السيدة دنديو ، قبل وفاته بيومين : « أتوافق على اقتران سولانج بكوستال اذا طلبها للزواج ؟ » اجاب بكل اختصار : « لتعمل ما يطيب لها » . ولما اشرف على الموت توسلت اليه قائلة : « ألتمس منك ان توافق على دعوة كاهن » . وكان قد بلغ من الضعف حداً قصياً ، واصبح عاجزاً عن الكلام ، فاكتفى برفع ذراعيه قليلاً ، وبتركهما تهويان على الفراش بحركة فيها كل معاني الاذعان .

وكانت سولانج قد حرصت كل الحرص ان لا تحدّث كوستال بالزواج منذ عناقهما الاول في غابة بولونيا ، وبعد ان سلّم للمرة الاولى بانه من المحتمل ان يقترن بها في حال نشوب حرب او ثورة ، ثم بعد ان جعلها نصف عذراء في ٢٥ نوار ، وبعد ان جعلها امرأة في ٢٤ حزيران .

وكانت بارعة في منحه ، بلا غنج ودلال ، كل ما يستطيع الحصول عليه من امرأة سهلة المنال ، وقد حافظت على حالتها الطبيعية ، وعلى بساطة الفتاة الساذجة المتخلفة عن حياة عصرها . وهكذا استطاعت اشباع نهمه الجنسي ، ومسايرة تشبثه ببعض التقاليد المحافظة ، فبدت له مزدوجة ،

مركبة من بغي ومن فتاة غارقة في الحياة الاجتماعية ، وهو الذي لم يكن يهتم إلا بالازدواجية . قدمت له نفسها وأشعرته بانها مزيج من المتناقضات ، فألهبت رغبته فيها ، لانه حسبها من نوعه .

وكان يبدو ان ما تشعر به نحوه هو احتمال وقوعها في حبه ، لا في الحب بمعناه الصحيح . ولما كانت تكره الاوضاع الشاذة ، والتستر عن عيون الناس ، اقامت تنتظر ان تنفتح لها الطريق لتطلق لنفسها العنان . وهذا الشعور بالذات جعلها تحجم عن رفع الكلفة بينها وبينه ، وعن مخاطبته بصيغة المفرد . لم تشأ رفع الكلفة بينها وبين رجل قد يهجرها يوماً فيصبح غريباً عنها . إلّا أنها كانت عازمة على تجاوز جميع الحدود اذا وضع في اصبعها خاتم الخطبة . أجل ، استسلمت اليه مدفوعة بما كان له في نفسها من المودة ، وعلى امل ان تعلقه بها . وكان من الواضح انها لو انتهجت طريقة اخرى وتصلبت لتلهب شوقه اليها لأبتعد عنها غير آسف ، لأنه لم يكن من الرجال الذين يذعنون لمشيئة المرأة .

في بادىء الامر ، لما كانت مداعباته لها نقية ، طاهرة ، غنمت منها لذة عارمة تلهب الحواس . غير ان هذه اللذة ما لبثت ان بردت ، وخفّت ، لما تبيّن ان تلك المداعبات لم تكن سوى توطئة للوصال ، كأنها رغوة الشهوة .

اما مداعباته الشهوانية فلم تكسبها اقل متعة ، لأنها كانت باردة بطبيعتها لكونها لا تزال عذراء ، وباردة بالوراثة اذ كان ابوها وامها باردين ، فجعلت حبها معلقاً ، نوعاً ما ، وفي حالة انتظار . وكان موقفها هذا شبيهاً بموقف كوستال منها في بعض الاحيان : كان يقرر ان يكون حاراً معها بقدر ما ترتفع حرارتها ، ولامبالياً اذا اختارت الانفصال عنه .

وكانت مقتنعة بان زواجها بكوستال سيتم لا محالة . غير ان امها كانت تشك في الامر ، لانها كانت ابعد نظراً ، ثم لانها كانت

قد قرأت بعض مؤلفات كوستال . فما افظع الخفة التي يعالج بها الناس شؤونهم ! كانت هذه المرأة مستعدة ان تعطي ابنتها لرجل دون ان يخطر في بالها ان تقرأ بعناية وانتباه جميع مؤلفاته التي اعتاد ان يعبر فيهـا عن حقيقة تفكيره ونظرته الى الحياة .

قالت لابنتها يوماً :

– اذا لم يفتح لك حديث الزواج ، فلا بدّ لك من ان تكوني البادئة بـه ، لأن استمرار هذه الحالة الشاذة لا يجوز . وسيأتي يوم يبدأ فيه اللغط ، ويتناولكما الناس بألسنة حداد .

فاجابت سولانج :

– لا تخافي ، فسيفاتحني حتماً بهذا الحديث .

– اذا انقضى الاسبوع المقبل ولم يفاتحك به ، فسأدعوه الى هنا لأسأله عما ينوي .

– لا ، لا تتدخلي في هذا الامر . افضّل ان اكتب اليـه اذا لزم الصمت . ولكن يجب ان ننتظر اكثر من اسبوع .

– واذا اجاب عن رسالتك بالرفض الحازم ، فلا بد لك عندئذٍ من الامتناع عن مقابلته .

– طبعاً ... ولكني اؤكد لـك انـه حتى اذا رفض ، فلن يكون رفضه جازمـاً . المهم في الامر ان لا نضايقه ونخرجه عن حدّه . فاذا احسّ اننا نحاول اصطياده انقبض وتراجع ... وفي مثل هذه الحال تصبح معالجته صعبة . انه يحب الاساءة الى الناس حتى يتملكهم الغيظ . وهو يذكرني باخي غستون لـمـا كان في الخامسة عشرة من العمر . أتظنين انـه رصين لأنه يؤلف كتباً ؟ انه مـا يزال طفـلاً . وكثيراً مـا يأتي اعمالاً لا يعملهـا إلا الاطفال ، كأن يجرّ يـده على الحائط او عـلى حاجز حديقـة عندما يكون مـاراً في الشارع ... فهذه حركة لا تبدر إلا من الاحداث ، وليس من المحتمل ان تبدر من رجل . وفيه ايضاً ناحية تدل

على انه طفل شرير، وهذا ما لا احبه فيه ...

وكانت ثقة سولانج بان كوستال سيفاتحها «حتماً» بحديث الزواج ترفع حملا ثقيلا عن صدر امها، فترتاح الام الى ان ابنتها ما تزال نبيهة، متوقدة الذهن، على الرغم من كل ما يجري حولها!

ولم تكن السيدة دنديو فضولية، كثيرة الاسئلة، بل كان حوارها مع ابنتها يقتصر احياناً على كلمات معدودة:

— أكنتِ عنده؟

— نعم.

وكثيراً ما كان يتبادر الى ذهنها انها لو أطالت الحوار وسألت سولانج: «وهل ضاجعته؟» ثم نظرت بقوة الى عيني الفتاة، لاعترفت هذه بالحقيقة، لانها لا تكذب، واذا كذبت مرةً فلا تستطيع الاستمرار في الكذب.

وكانت الام تحب ابنتها وتحترمها فلا تحرجها كيلا تضطرها الى انكار الحقيقة. غير انها لم تستطع إلا ان تقول لها يوماً:

— أتعلمين كيف تتخذين بعض التدابير الواقية؟

فاجابت الفتاة: «نعم»، دون ان ترفع عينيها.

ولم يكن لسولانج صديقات يطلعنها على نوع تلك التدابير، ولا كانت تحب الاطلاع، او تحاول تثقيف نفسها بالقراءة، فادركت الام ان كوستال افهمها كل شيء.

وايقنت السيدة دنديو ان ابنتها اصبحت خليلة الكاتب، فلم تتأثر، ولم يخامرها شيء من الغيظ، لانها كانت بنت عصرها، وبنت بلادها، ناهيك بمستواها الاجتماعي الحقيض. وبدلاً من ان تثور لشرف عيلتها قالت في نفسها: «اذا حبلت سولانج منه ووضعت ابناً، فانه يقترن بها». ولم تكن تعتبر هذا الامر مما يثيرها او يسيء الى سمعتها.

وهكذا كانت هاتان المرأتان تافهتين، مظلمتي الذهن، تعيشان في

كمد ، كما هي حال الانثى دائماً حيال الذكر في جميع انواع المخلوقات . فذكور هـذه الرواية : كوستال ، والسيد دنديو ، وحتى برونيه ، كانوا ابرز رونقاً ، واعمق غوراً ، واكثر طموحاً من المرأتين . ولم تكن هذه الحال إلا مثلاً واحداً يدل على قاعدة عامـة هي : ان الرجل مختلّ اكثر من المرأة ، لانه متطور اكثر منها . وتذكـّر كوستال ان طريقة الخلط والدمج هي القاعدة الاولى في الشؤون النفسانية اذ تبين له فوراً ان تمسك المرأتين بالشرف والاستقامة لم يكن خالياً من الحسابات الحقيرة . واذا كان قد اصاب في نظرته الشاملة الى هذا الامر فقد اضطر احياناً الى التردد حيال بعض اعمال المرأتين ، لانه لم يدرك ما اذا كانتا صادقتين او كاذبتين في ما تظهران ، وكثيراً ما كان يخطىء في التقدير . وكان هذا الشك احد عوامل الحذر الذي جعله يعارض مشروع اسرة دنديو ، ويتخذ منه موقف التحفظ .

- تسلمت رسالتك ، فادهشتني بعض الشيء . ولكن قبل ان تواجه اساس الموضوع الوارد فيها ، كما يُقال في قصر العدل ، اودّ ان ابدي ملاحظة . تقولين لي ، في هذه الرسالة ، انك « فتاة حقيقية » ، أفلا ترين انه يجب ان تبقى للكلمات معانيها ؟ اني مستمرّ في تسميتك « فتاة » ، لانه يجوز لي – وانا كاتب – استعمال الاسلوب الشعري . اما انت فكيف تجيزين لنفسك ان تقولي ، لي انا ، انك فتاة حقيقية ؟... لا ادري كيف اقدمت على مثل هذا القول في رسالة جدية ؟!

والآن ، فلننتقل الى الاساس .

« اعترض اولاً على كونك طرحتِ الموضوع على بساط البحث باكراً جداً . فانا اكاد لا اعرفك ، ولم اضعك على محك التجربة بعد . وانت بالذات ، كيف تقبلين الزواج برجل لا تعرفينه إلا منذ ثلاثة اشهر؟ يجب ان ترقى معرفتك به الى ثلاث سنوات ليجوز لك التفكير في الزواج به .

« ولنفترض ان لك واحداً من مائة الف جزء من الحظ بان اقترن بك ، فانك تخسرين هذا الحظ اذا قطعتِ علاقتك بي ، متذرعةً باني لا ابادر الى اتخاذ قرار حاسم . ومهما يكن هذا الحظ ضئيلاً ، فهو موجود . انك تتحدثين عن قطع علاقتك بي . فهذا خطأ مبين . فمن مصلحتك ان نلتقي ، لأن اللقاء يعطيني عنك فكرة صحيحة قد تحملني ، يوماً ، على اتخاذ قرار .

« اني مثلك في هذا الصدد ، واودّ لو اوفّق بين مخاوفك الوجدانية ونفوري من الزواج . غير ان الطريقة التي تقترحينها عليّ ليست ، كما

تقولين ، « تحريفاً ساخراً للزواج » . فسواء تدخلت الكنيسة او لم تتدخل ، يظل الزواج زواجاً . فهو يقوم على العقد المدني ، ولا يمكن الخروج منه إلا بالطلاق . فاذا شئت ان اطلّق دون ان يكون لي عليك مـأخذ ، ودون ان تكوني راضية بالطلاق ، تعذر عليّ الامر من الوجهة القانونية الصرف ، واصبحت عالقاً في الفخ ، وهذا ما أخشاه .

« ولننقل الآن كلمة عن « احترامك للكنيسة » . اعتقد انك تبالغين في هذا الاحترام عندما تحاولين توريط الكنيسة في ما تسمينه « تحريفاً ساخراً للزواج » . وفي يقيني ان هذه المبالغـة لا تختلف عن التحقير ، وانـك لا تحترمين الكنيسة مطلقاً ، لانك ترضين بالاستغناء عنها لتتزوجي .

« والخلاصة ، اني اقترح عليك ان نواصل علاقتنا ، على ان نجعلهـا اكثر تكتماً مما كانت ، وعلى ان نلفّها بسريّة تامة . واذا كنتُ قد جنفتُ حتى الآن عن التكتم ، فلاعتقادي ان ظهورك الى جانبي يخدمك خدمة جليلة ، ويكسبك شهرةً ومجداً . دعيني امنحك السعـادة في جو من الحرية والعفوية والقوة . هذا هو جويّ الطبيعي حين اكون في نجوة مما يضايقني ويزعجني . وهو ، كما ترين ، ليس جو الحياة الزوجية وكتاب المطبخ . وبعد مرور حقبة من الزمن اكون قد اختبرت شعورك نحوي وشعوري نحوك ، فاستشير احـد رجال القانون ليفهمني بالضبط كيف يستطيع احد الزوجين الخلاص من عقد الزواج بلا موافقة زوجه » .

واستغرق اجترار هذا الموضوع ساعتين وعشر دقائق ، مع ان كل ما قيل فيه يمكن ان تتضمنه صفحتان من كتاب . وكان كوستال يتكلم بحرارة وجديّة واخلاص مطلق لفكرته ، فشرح جميع الشروط التي لا بد منها ليكون الزواج على اوسع نطاق من الحريـة ، وليكون كل من الزوجين مطلق التصرف وحده بمـا يملك ، وليتمّ العقد في مكان بعيد ، فـلا يحضره إلا الشاهدان ، ولا يتدخل فيـه رجال الدين كي لا يضطر احد الزوجين ، في ما بعد ، الى الحصول على موافقة روما للفوز بالطلاق .

وامعن كوستال في شرح شروطه فقال انه لا يريد اولاداً ، ويطلب عطلة سنوية مدتها ثلاثة اشهر يكون خلالها كلٌّ من الزوجين حراً طليقاً ، يذهب الى حيث يشاء ، ويتصرف كما يطيب له كأنه غريب عن زوجه . ثم استطرد قائلاً : « لا يجوز ان يكون المنزل الزوجي مكاناً يستقرّ فيه الزوجان ، بل مكاناً يعودان اليه » . وختم محاضرته بقوله انه يصرف النظر عن مشروع الزواج برمته اذا رُفض شرط واحد من هذه الشروط .

وبدت سولانج متضايقة من هذا البحث الطويل ، فقالت انها ستفكّر بالامر ، وقد تقبل بهذه الشروط . وكان صوتها شبيهاً بصوت عصفور مرتفع وخافت معاً ، وهو صوت من يكون مستعداً للقبول . ولا ريب انها كانت تفكر بمراجعة امها للاستئناس برأيها .

وبعد صمت قصير سألها كوستال :

– ما الذي يخيفك في هذه القضية ؟

– اخشى ان اتعلق بك اكثر من اللزوم .

– وتخشين ان اهجرك وقلبك عالق بحبي .

– أجل !

– وفي مثل هذه الحال ستتألمين ! اصارحك بانك تفتقرين الى الشجاعة . وبعد ، فما هي الضمانة التي يقدمها لك الزواج ما دمتُ لن اتزوج ما لم اجد طريقة للتحرر منه ساعة اشاء وبارادتي وحدي ؟ ان الرجل العاقل الذي يذهب الى الحرب يفكر دائماً بطريقة الانسحاب من الميدان اذا دعت الحاجة . وفي الزواج ايضاً يجب على المرء ان يفكر بالانسحاب .

– انك لا تحب المجازفة ...

– من المضحك ان يقال لي مثل هذا القول ! اني اجازف للحصول على شيء اتوق اليه . اما اذا كنت لا اريد هذا الشيء ، فما معنى المجازفة ؟

كانت سولانج تحدق الى الارض ، فما إن سمعت هـذه الكلمات حتى رفعت رأسهـا ونظرت الى كوستال وفي عينيهـا عتب وتوبيخ . فلامس وجهها بطرف قفازيه اللذين كانا في يده ليحوّل نظرها عنه ، كأنـه لا يريد ان تنظر الى وجهه في تلك اللحظة . ثم قال لها :

– ساعيرك بضعة كتب ، بينها مذكرات تولستوي ومذكرات زوجته ، فترين ما قد يحل بنا اذا ارتكبنا عملاً طائشاً .

– وكم من التعليقات سأجد على هوامش هذه الكتب !

– انهـا تعليقات فتيـات عديدات أعرتهن هـذه الكتب . ستجدين خمسة او ستة انواع من الخطوط المختلفة على الاقل ، لان هـذه الكتب اسفار صلاة وتأمل لكل فتاة تريد الاقتران بي .

وراح يقلّب صفحات احد هـذه الكتب ، ثم قرأ بعض التعليقات المكتوبة على هوامشه ، وقال :

– انظري ، هوذا تعليق يـدل على الذكاء . انـه مكتوب بالقلم الرصاص ، ويتعذر عليّ ان أتذكر صاحبته . وهو مؤثر للغاية لانه رسالة من فتـاه لا اعرفها . كانت تحبني ، فـاذا بهـا تذكّرني بنفسها بهـذه الكلمات : « كان من المحتمل ان اقترن به ، على الرغم من جميع العقبات ، دون ان تحل بي مصيبة كبيرة » .

وكانت عينا سولانج تنظران بقوة الى هذا التعليق ولا ترتفعان عنه ، وفيها قسوة غير معهودة . فقال كوستال في نفسه : « ان الغيرة تنهشها ... فيا للسخافة ! » ثم قال لها :

– أمسرورة انت من هذا الحديث ؟

فلزمت الصمت فترةً ، ثم اجابت :

– نعم .

– اذاً ، نواصل علاقتنـا ، بعض الوقت ، كما كانت من قبل ؟

فساد الصمت فترة جديدة ، ثم قالت :

– نعم ...

– وهل انتظرك في منزلي بعد غدٍ ، الساعة السادسة ؟

فصمتت برهة ، ثم اجابت :

– نعم ...

– أتتألمين يا صغيرتي الحبيبة ؟ يجب عليك منذ الآن ان تستقري في هذا الألم ، ويجب ان اكون انا سببه ، وان امددك فيه على مهل حتى اشفيك منه .

ولما لثم يدها مودعاً احس ان هذه اليد كانت باردة كالجليد .



١٠

مذكرات كوستال

٣ آب . – يبدو هذا الزواج متعذراً وبعيداً عن المنطق كلما فكرتُ به في هدوء ورويّة . وهو بالفعل مستحيل . انظر اليه في فترات الهوس فارى انه :

١ً – تجربةٌ جديدة بي . فمن العظمة ان يفوز المرء بما يحتقر ، لأنــه يضطر الى التغلب على نفسه اولاً ، ثم على العقبات . وقــد أقدم على هذا العمل بشجاعة ، ولا اخشى مواجهة الحياة ! ذلك اني اجتزت بنجاح مرحلة المراهقة وغيومها المريعة ، واجتزت ايام الحرب ، وقمت برحلات بعيــدة ، وتحملت العزلة ، وتذوقت انواع المتعة والفوز ، وجابهت الاخطار المختلفة التي تحيق بحياة من يسعى الى اللذات . ليس في الكون كله سوى وحش واحد تخاذلتُ حياله وارتعدت خوفاً منه ألا وهو الزواج . وعليّ الآن ان اصرع هذا الوحش الذي اسمّيه : « هيبوغريف ! » او بالحري يجب عليّ ان اروضه لاجعله حصاناً طيعاً . اود ان ادهش نفسي ، وان اقنعها بقدرتي على الاحتفاظ بكل جرأتي وكل حريتي في الزواج كما في العزوبــة . والخلاصة ، يجب ان أقدم على هذه المغامرة اقدام المغرور بنفسه ، الواثق بمتانة عضلاته ، النــازل الى حلبــة الصراع مهدداً متوعداً . وهذا تصرف سخيف مضحك لمن ينظر اليه من الخارج . غير اني لا اعتبر نفسي مخطئاً ، لاني مضطر الى تحميس نفسي ، وتشديد همتي لأتمكن من مجابهة ما أكره . واذكر ، على سبيل المثال ، ان عدد العزّاب في سلاح الخيالة ، على عهــد

اغسطس قيصر ، كان اكبر من عدد المتزوجين . وكان المتزوجون يخوضون المعارك ببسالة نادرة ، ويواجهون الموت بلا وجل ، ثم يرهبون الاختلاء بزوجاتهم . واذاً ، فلستُ في خوفي من الزواج « حالة » شاذة ومستغربة .

٢ — اختبار ضروري لمعرفتي بالحياة ، وضروري ، بالتالي ، لانتاجي الفكري والادبي . فلا بد لي من تجديد المادة البشرية في فني ، ومن إخصاب ارض جديدة لعملي ، ومن تفجير ينبوع ماء جديد ارتوي منه ، ومن ضم ارض مجهولة الى ممتلكاتي ، ومن ان أحوّم بفخر واعتزاز فوق هذه الاشياء كلها .

اجل ، ينبغي لي ان أحوّم كما حوّمت فوق الحروب ، وفوق الألم ، وكما أحوّم الآن فوق الابوّة ، اعني أن لا أمسها إلا باطراف اصابعي . يجب ان اجتاز الزواج كما يقفز الشبان فوق نيران الاعياد . وما يضيرني اذا نشبت ازمة ؟ اني ارحب بها مهما يكن من امرها . فالكاتب يشتري الازمات ويدفع ثمنها عداً ونقداً .

وبعد ، أفليس من التسلية ان اعرف ما هو الواجب ؟

٤ آب . — جاءتني . واعادت اليّ مذكرات تولستوي ومذكرات زوجته ، ولم تنبس بكلمة . فتذكرت قول اوريل : « ثمة نساء تعيرهنّ كتاباً فيعدنه اليك ولا يقلن كلمة ، كما يعدن ملقط السكّر » . ولو بعث دانتي حياً وقرأ امام جماهير من الناس نشيداً من « الكوميديا الالهية » لما وجد نساء ورجال مثقفون ما يقولون سوى ان بنطلونه غير مكوي بعناية .

ان سولانج تجيب عن جميع أسئلتي بعبارات مبتذلة من نوع :

— لماذا تظن ان ما جرى لتولستوي سيجري لك ؟ ليس لديك اقل دليل على ان احوالنا لن تكون على ما يرام ... أجل ، اصبح كل شيء صعباً ، لان هؤلاء الناس يفتقرون الى تفكير ناضج .

في بضعة ايام وسّخت سولانج كتاب تولستوي ، ومزقته ، وألصقت به

ورقاً لتصلحه . لا ريب انها قليلة العناية بما تستعمل من الاشياء .

ليس في العالم قوة تستطيع ان تجعلني بحاجة الى وجودها معي .

لا اجد سبباً واحداً يبرر اقتراني بها .

لا احبها . اود لو اجد ما يحببها اليّ ، فلا اجد شيئاً . لا احبها ، واراني مستعداً للاقدام على عمل جنوني لاجلها .

يساورني خوف شبيه بخوفي من النزول الى الماء يوم كنت حدثاً . وشعوري هذا اشبه بشعور امرىء يركب البحر للسفر الى بلاد مجهولة .

ان قصة زواج تولستوي تبتلعني كما تبتلع الهوة من يسقط فيها . كانت هذه القصة ترعبني يوم كنت لا افكر بالزواج . اني ارى جيداً اين هو الشر واذهب اليه .

اقترن بك لاجعلك انت سعيدة ، لا لأكون انا سعيداً .

سيتم هذا الامر لكثرة ما نتحدث عنه . ويخيل اليّ ان آلة بدأت تدور منذ الآن ، ولم يعد توقيف حركتها ممكناً .

٥ آب . — اني ادخل هذه المغامرة كما دخلت الحرب ، او بالحري كما ادخل في كل شيء ، اي ان فكري يتجه ، في اثناء الدخول ، الى البحث عن الطريقة التي ستساعدني على الخروج .

واكثر من ذلك ، اني افكر بما سأجني من امجاد الانتصار حين سأخرج . واعتبر دخولي تحفزاً للقفز الى هذه الامجاد .

لا تقتصر اساءتي الى سولانج على دخولي في زواج اريد الخروج منه ، بل تشتد في قسوتها لأني اعتبر هذا الزواج حافزاً يجعل حياتي أعنف سعادةً بعد تحرري منه .

٦ آب . — جاءتني . ولكنها قالت لي انها منحرفة الصحة . يا للنساء ! انهن مريضات دائماً ، ودائماً متوعكات ، فلا تجدهن مرة واحدة على ما يرام . سألتها متى تنتهي وعكتها ، فاجابت : غداً . ولما سألتها اذا كنا نستطيع ان نلتقي بعد غدٍ ، اجابت بالنفي . وفي اليوم التالي ايضاً لا

تستطيع ان تأتي اليّ . فهذه ثلاثة ايام فارغة ! كم هي قليلة الاكتراث بالحب ! كان وداعها مختصراً . لم تضغط على يدي لما صافحتني . وقد هالتني برودتها . ما الخبر ؟ أتراني جرحتها معنوياً ؟ حسدياً ؟

الخبر اليقينُ هو هذا : كانت البادئة بحديث الزواج ، فما كدت اقرأ رسالتها حتى اخذت اتخبّط محاولاً الخلاص . اما الآن ، وقد اصبحت باردة ، فقد انقلبت الآية ، فاذا بفكرة الزواج ترقص في عقلي ، واذا بي اطلب هذا القيد الذي كنت ارفضه بشدة منذ اربعة ايام . كنت افكر بفرض مشيئتي ، وها انا ، لاجل سولانج ، اخضع لمشيئة تُفرض عليّ . في هذه اللحظة التي اكتب فيها هذه الكلمات احس اني لست مستعداً لان اخسرها . ومع ذلك فهي باردة ، ومن المحتمل ان تفلت من بين يديّ كالغزالة النافرة . اني ادرك تماماً كم تستطيع تعذيبي . فيا سولانج ، لقد اعطيتني كل شيء : السعادة والألم ، وكنتِ في هذا الصيف مندمجة بجميع فترات حياتي اندماج مياه المطر باغصان الاشجار .

اني اكاد لا اصدق انك افقدتني المتعة التي كنت اجدها في العزلة .

قال بودلير : « ليس من المستغرب ان يتنكر المرء لقضية كان يخدمها ليعلم كيف يكون شعوره عندما يخدم قضية اخرى . وقد يجد عذوبة في ان يكون تارة ضحية وتارةً جلاداً » . وانا ، بعد ان كنت جلاداً مراراً عديدة ، ربما استعذب الآن ان اصبح ضحية .

اني دائماً في الطرف الآخر من شخصيتي .

١٠ آب . — صارحتها باني بدأت اقترب من فكرة الزواج ، وبانها في هذه الاثناء ابتعدت عني ، فاجابت :

— لا ، لم ابتعد عنك ، بل اعتقد بان تعلقي بك يزداد قوةً يوماً بعد يوم .

قلتُ : اذاً ، لماذا كنتِ باردة في مقابلتنا الاخيرة ؟

قالت : لم اكن باردة .

ولما اصررت على قولي ، تابعت احتجاجها وفي نظراتها طيف ألم ، ونوع من التوسّل والاسترحام لكي اصدّق ما تقول ، فكانت النتيجة انها غلبتني ، فاعتذرت اليها .

افترقتُ عنها مقتنعاً بصدقها واخلاصها ، مقتنماً بان جميع تصرفاتنا تقودنا الى الزواج . ولكن ما انقضت هنيهة على افتراقنا حتى رحت اسائل نفسي : لماذا اقترن بها لا بسواها ؟ لماذا افضلها هي ، بينما هناك كثيرات يمتزن منها بكيت وكذا من الصفات ؟ »

لو قُدّمت لي ابنة ملكة سبأ على صحفة من ذهب ، وهي في اليوم الثالث بعد الرابعة عشرة من العمر ، لكان من المحتمل ان افكر ، يا سولانج ، بما تسبب لك هذه التقدمة من آلام ، ولكنت عجزت عن القيام باقل عمل .

١١ آب . - انها فتاة أكنّ لها مودةً واحتراماً ، وارغب فيها جسدياً . ومع ذلك تبدو لي فكرة الاقتران بها كابوساً مرعباً ، كفكرة اعلان الحرب ، عندما استيقظ من احلامي .

أتراها تخاصم برونيه ؟ انها لا تحب الصبيان الصغار . وكثيراً ما سمعتها تقول : « ما اقبح سحنتهم القذرة !... » ولا تحب حتى الشبان . فاذا ذُكروا لها اجابت : « انهم بهائم !... » ومطّت الألف مطاً طويلاً . اجل ، لن تحب برونيه ، ناهيك بلومها الصامت ، وبقولها معاتبة : « كيف استطعت ان تربيه هكذا ؟ » ما اصعب ان اجد نفسي ملوماً من الآنسة دندير ! ثم انه قد يخطر في بالها ان تتسلط عليه ، وهذا ما لن اسمح به ابداً . عملت ما كان يجب عمله لأنقذه من الأم ، وبذلت في سبيل انقاذه ثمناً باهظاً ، فكيف اقبل بان اسلّط عليه خالة ؟ أأضع شخصاً ثالثاً بيني وبينه ، واهدم في يوم واحد ما بنيت خلال ست عشرة سنة ؟

اني اعرفه حق المعرفة . سيقول لي فوراً ، قبل ان يطلع على حقيقة مشروعي : « ألا تستطيع ان تدبّر لي علاقة بها ؟ اذا رفضتَ طلبي

تكون رجلاً مزعجاً حقاً ! »

ان تدبير « علاقة له » مع غيرها يسرّني . لكن من الافضل له انْ يجتاز الخطوة الاولى مع خالته زوجة ابيه . على ان سولانج لا تصلح لهذا الامر، فهي نقيض ما نحتاج اليه في هذه المهمة ، لانهـا بالغة الفساء . وسيمضي برونيه اوقاته في اللفّ والدوران حولها ، وهو يعلم اني اضاجعها ، فتصبح سبباً لمـا يعـاني من الكبت ، ومحوراً لتخيّلاته الجامحـة . وسيهزأ بـه رفقاؤه فيتألم بسببها ، واريد ان لا يتألم ، وان لا يسيء احد اليه . والويلُ لمن يمسه !

ويجب عليّ منذ الآن ان ارتّب مناسبة يلتقيان فيها . واني اعلم ما سيجري في هذا اللقاء . وهذا سبب جديـد يحظّر عليّ الاقتران بهـا . ومن العجب اني وجدت هذا السبب وانا ابحث عما يبرر لي الزواج بها .

وثمة شيء آخر : لنفترض اني رزقت منهـا بولد . فعندما افكر بهذا الاحتمال اكاد اجن من الخوف والحنق . فاذا كان هذا الولد بنتاً — ومن المؤكد اني سأشتهي ، يوماً ، بان تكون لي ابنة — ملأت حياتي اضطراباً ، وارهقتني بعبء المسؤولية ، على الرغم من ثقافتي الرفيعة [1] . فـآلة الدمار تتحرك عندئذٍ كلهـا كما تتحرك كلما مسّ الرجـل امرأة . ثم ان البنت تربط اباها وتفرض عليه واجبات اكثر من الصبي ، سواءٌ أكانت مرغوباً فيها ام لا . لا نستطيع ان ندعهـا تتدبر امورها وحدها ، فتسبب لنـا القلق واضاعة الوقت .

واذا كان الولد صبيـاً فـأحبه ، لكني لا اريـد ان اعطي ولداً آخر مـا اعطيت الولد الذي عندي ألآن . فثمة كلمات لا يقولهـا المرء مرتين

---

١ ـ ينوّه كوستال هنا بكتب الاحداث المصورة التي تُعطى للاولاد الفرنسيين في بداية تثقيفهم . فيجدون فيهـا ملوكاً يهيمون ببناتهم ، وقططاً مغرمة لهميرات ، وعمالقة يحبون صبياناً صغاراً ، الخ ... فلا عجب اذا كان كوستال ميـالاً الى الاعتراف بعيوبه بعد ان تلقى هذا النوع من الثقافة . — المؤلف .

حق في قلبه . في وسعي ، اذا دعت الحاجة ، ان اردد قولاً واحداً لمائة او لمائة وخمسين امرأة ، وان اكون مخلصاً صادقاً كل مرة في ما اقول ، لان المرأة لا تحتل إلا مكاناً سطحياً من حياتي . ومع ذلك فكثيراً ما تضايقت وتألمت من هذا الاجترار .

لا ، لن اعطي ولداً آخر ما اعطيت برونيه . لكل حصته . ويجب ان تكون كل حصة كاملة . ربما استطاعت الامهات تقسيم محبة الامومة دون اضعافها . اما انا فلست اماً . ولا اصدق ان الام توزع محبتها على ابنائها ، وتبقى كل حصة كاملة لا يمسّها نقصان . هذا التبجح ألِفته الامهات وحدهن .

وبعد ، فقد جازفت مجازفة حمقاء ، فاوجدت مخلوقاً بشرياً ، فكان ناجحاً على ما يرام وما اشتهي . احبه ، واعتقد انه يحبني . لم يعمل بعد عملاً يستحق عليه التوبيخ ، وهو يغتبط بمعاشرتي كما اغتبط بمعاشرته . وهذه معجزة لا يمكن اجتراحها مرتين .

ثمة اسباب قاهرة تحتم على المرأة السعي الى الزواج . اما الرجل فلا يجد في حياته واحداً من هذه الاسباب . انه يتورّط في الزواج مندفعاً مع تيار التقليد . ومن الطبيعي ان تخصه الشرائع بمركز ارفع وافضل من مركز المرأة على هذا الصعيد .

سألت يوماً الأب مونياه : « لماذا يتزوج الرجال ؟ » فاجاب : « لانهم يجدون متعة في مواجهة الكوارث ! » اجل ، فحب المغامرة ، ومجابهة الخطر ، والانغماس في المتاعب ... هذا الحب الوبيل الفاسد هو الذي يدفع بالذكور الى الارتماء في الموبقات . فاذا تذمروا قليلاً وشكوا اتهمهم الناس بالجبن . والجبن في مثل هذه الحال هو الذكاء الفطري الذي يدافع به صاحبه عن حياته .

اني افكر في الزواج بسولانج حباً بتذوّق مرارة المأساة .

ولكن لا ! اني ابحث عن ذرائع لاحجب حقيقتي عن نفسي ، فالسبب

الوحيد الذي يحدوني الى هذا العمل هو الرأفة بسولانج.

١٣ آب. — عندما تنتظر امرأة تشتهيها بحرارة، فتتأخر ساعة ونصف الساعة عن الموعد المضروب حتى يستولي عليك اليأس من مجيئها، ثم تسمعها تقرع الباب، فان الحركة الاولى التي تقوم بها لمقابلة هذه المرأة لا تكون وليدة السرور، بل مشبعة بالسأم.

في فترة الانتظار تتجه تصوراتك اتجاهاً مضاداً لرغباتك، وتسترسل فيه، فلا عجب اذا خامرك الاستياء والارتباك حين تعود هذه التصورات فجأة الى وضعها الاول.

هل انتظرتُ سولانج بحرارة وشوق؟ لا ادري. ولكن لما تأخرت نصف الساعة عن الموعد، وددت لو يكون قد وقع لها حادث مؤسف — كحؤول امها دون مغادرتها البيت مثلاً — فتمتنع عن المجيء الى الابد.

ها هي!

وها انا اردد لها الاسباب السرمدية التي تحظر عليَّ الزواج:

ان احجامي عن الاقتران بك ينقذ حبنا من الهلاك. فالزواج نهاية الحب. هذه هي سنّة الحياة منذ اقدم العصور. اني ابعث السأم في نفسك اذا اقترنت بك. وقد تضايقيني. وربما تكشفت لك صفاتي السخيفة، فتزول النشوة التي نحيا بها الآن. ليس في الزواج شيء من هذه النشوة الممتعة، واذا حالفه التوفيق فلن يكون فيه منها إلا النزر اليسير. ما الفرق بين علاقتنا الحالية والزواج بالنسبة اليك؟ الابناء؟ تعلمين جيداً اني لن استولدك اذا تزوجنا. المصلحة المادية المشتركة؟ اخبريني بصراحة: أبحاجة انت الى هذه المصلحة؟ أتريدين ان نبقى دائماً متلازمين؟ ان هذه الملازمة هي التي تهدم الحب. ففي العلاقة القائمة بيننا يجب ان يتمتع كلٌّ منا بحريته التامة، فلا يكون الحب كتاب قوانين، ولا يصبح حبي لك «واجباً» زوجياً، ولا يمسي وجودي الى جانبك مرضاً محتماً، بل متعة حافلة بالسرور. اما اذا تحجبتْ علاقتنا فالسر يجعلها

اشد حرارة . وهذا ايضاً أمر معروف منذ اقدم العصور .

قلت لها ما تقدم ، ولكن ما الفائدة من بذل هذا الجهد كله ؟

ها هي تشرع في ضرب الحصار عليّ .

يا للفتيات اللواتي يحبكن حولنا شبكة الزواج ! ويا للبغايا اللواتي يرهقننا بطلب النقود ! ويا للنساء الشريفات اللواتي ينكبننا بالامراض الزهرية !

١٤ آب . هذا الصباح ، لما افقت من النوم ، احسست ان جميع الذرائع التي كانت مكدّسة ضد الزواج قد سالت كالماء ، ولم اعد اجد في نفسي إلا اسباباً مشجعة عليه . اني مصمم على الاقتران بها . وفي اواسط النهار ، حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، اتخذتُ قراراً مفاجئاً بالاحجام عن الزواج . أيكون هذا بدء موقف ثابت !؟ اني انتظر وصولها بسأم .

في المساء كتبتُ ما يلي :

ما اطيب رائحة جفونها ! جلدها ناعم كالطحين . توالت في مداعباتنا فترات من الموت والحماة كوتر نضرب عليه فيرتعش ثم يجمد ليرتعش من جديد . تمددتُ فترة طويلة الى جانبها وانا ملتصق بها ، وفي نفسي عطف عليها ، فاحببتها كما اشتهي . ان شعرها يتشمث دائماً في وقت معيّن ، في الساعة الثانية عشرة والدقيقة العاشرة ، كأنه ينذرنا بدنو لحظة الفراق . وعندما تذهب الى الحمام اوشك ان اقول لها ان لا تغتسل بالمطهرات ، وانا افكر بان مصير علاقتنا يتقرّر نهائياً اذا حملت مني .

لا استطيع ان انسى نظرتها اليّ لدى انصرافها . وقفت امامي مستقيمة الجسم كجندي صغير ، فقلت لها : « لا يمكن ان تكوني مرائية وفي عينيك هذا الصفاء » . فاجابت : « لستُ مرائية » .

سألتها ما عساها تصنع اذا افهمتها بجزم اني لن اقترن بها . فلم تجب في

بادىء الامر . ولكنها قالت لي ما معناه بعد تفكير وتردّد : « لم يخطر هذا الافتراض في بالي قط » . ان ثقتها بنفسها تضايقني بعض الشيء . ومهما يكن من الامر ، فاني مصمم على الاقتران بها .



لم يكن كوستال يفكر بهذا الزواج إلا فترة قصيرة من الوقت لدى نهوضه من النوم ، ثم يطرد فكرته من ذهنه كمن يلقي عن ظهره عبئاً ثقيلاً ، ويؤجّل البتّ نهائياً فيه . ولما كان يكره العمل كرهاً شديداً ، لم يكن يعمل إلا مضطراً . واصبح تأجيل البتّ في القضايا المزعجة مبدءاً من مبادئه الاساسية في الحياة ، لا لضعف ارادته ، بل لانه كان يحب ان يفسح في المجال لمرور الزمن ، لعل الاحوال تتبدل فتغنيه عن اتخاذ قرار . وكان يعلم ، فضلاً عن ذلك ، ان التخوّف من شيء ما يجعل المرء معرّضاً للوقوع في ما يخاف . وقد اصاب النجاح دائماً بهذه السياسة .

وانقضى يومان على اللحظة التي كتب خلالها في مذكراته : « مهما يكن من الأمر ، فاني مصمم على الاقتران بها » ، فخطر في باله ان يكتب الى السيدة دنديو رسالة طويلة يشرح لها فيها الاسباب التي تحول دون اقترانه بابنتها . ويدا له هذا المسعى مهذباً ولائقاً . وأحس انه بدأ يعطف على ام سولانج كلما فكّر بما يسبب لها من القلق والمتاعب . ولكنه خشي في سرّه ان تأخذ ذرائعه بعين الاعتبار فتقطع علاقة ابنتها به ، او ان تردّ عليه رداً قاسياً يضطره الى التخلّي عن سولانج نهائياً .

وكتب كوستال رسالته محاولاً ان يكون جدّياً قدر المستطاع ، وان يساير السيدة دنديو ويلاطفها ، فأمضى يومه بسرور ، وكان يوم عيد صعود العذراء الى السماء .

من

بيار كوستال

باريس

الى

السيدة دنديثو

باريس

١٥ آب ١٩٢٧

سيدتي العزيزة !

اكتب اليك من مسكن خالٍ يقع في بناية هجرها سكانها ، وتحت ناظريّ شارع مقفر ، لا سيارة فيه ، ولا مارّة ، ولا ضجيج . ولا أجرؤ على القول أنْ لا هرّ فيه ايضاً ، لان فيه هراً واحداً ، ذيله مستقيم كالشمعة ، وهو في منتهى اللطف .

يتبادر الى ذهني اني مسؤول عن وجودك الآن في باريس مع سولانج ، واني مسيء اليكما ، لان التجربة القاسية التي مررتما بها جعلتكما بحاجة الى الراحة بعيداً عن المدينة . واني مخطىء في امور اخرى عديدة . لكني اشعر بقوة تحفزني على التحدث اليك طويلاً بمزيد من الرغبة والمودّة ، وعلى شرح احوالي لك ، وعلى التوسّل اليك ان تفهميني ، فتعذريني .

واذا كنتُ اكتب اليك هذه الرسالة بدلاً من ان اذهب لمقابلتك والتحدث اليك ، فلأني كاتب ، اجد في الكتابة الطريقة الفضلى للتعبير بصدق وصراحة عما يخالج نفسي . وانك لتجدين في هذه السطور توضيحاً

دقيقاً لحقيقة شعوري . وبما اني مرتاح الضمير في ما اعمل ، وددت ان اضع بين يديك هـذه الوثيقة بخطي لتكون ملكاً لك ، ولترجعي اليها اذا دعت الحاجة .

لا تُدهشي اذا بدا لك شعوري غريباً . فالغرابة راسخة فيّ ، وانا غريب الاطوار . لا أتباهى بهذه الميزة ، ولا اجد فيها مبعثاً للغرور ، بل كنت دائماً شديد الحرص على صقل نفسي ، وعلى ابراز ما يجعلني شبيهاً بالناس ، قريباً منهم ، وعلى اخفاء ما يميّزني منهم . وفي هـذا السبيل احاول ان تكون حياتي الخاصة بعيدة عن الانظار ، لا تسترعي انتباه احد .

اني روائي ، والله يعلم كم ابذل من الجهود لأتصوّر احياناً شعور الناس العاديين ، لاني لا احسّه عفوياً . لم أتألم قط من هـذه الغرابة ، إلا انها تؤلمني الآن للمرة الاولى .

... لا يجوز ان يتم هذا الزواج .



اني ارى ما سيكون كأنه اصبح ماضياً ، وكأني اتذكره .

أراه لأني اعرف نفسي ، وقد خبرت هـذه النفس طويلاً ، وتفهّمت لباب علاقاتي بالناس ، ولأني ادرك كيف تكون ردة الفعل من جهتي في حالة معيّنة ، وكيف تكون النتيجة شؤماً وشقاء اذا حاولت اكراه نفسي على ما لا تريد .

يخيّل اليّ ان لا شأن لنفسي في هذا الأمر ، وان جسدي هو الذي يرفض الاشياء والاحوال التي لا يستطيع الانسجام معها .

يوم سافرتُ الى الهند الصينية ، كنتُ اعلم اني سأمرض هناك ، لاني شعرت بنفور شديد من هذه الرحلة . فصدق تشاؤمي ومرضت . ولدي عشرة امثلة من هذا النوع ...

لا . تحدثيني عن المتعة التي يغنمها المرء لدى قيامه بالواجب ، فلنا لا اؤمن إلّا بمتعة العزوف عن القيام بالواجب .

اليك ما قد يحدث اذا اقترنتُ بسولانج : في الايام الاولى من حياتنا الزوجية ألمس فيها من الحنان والاخلاص ما يفرض عليّ نحوها واجبات ادبية . لكن من شأن هذه الواجبات ان تلاشي متعتي بالحنان ، وان تحرمني الافادة من المساعدة التي يقدمها لي الاخلاص ، لاني اصبح قلقاً ، دائم الاهتمام باتجاه فكرها وشعورها ، اخشى ان لا اعطيها كفاية من السعادة بقدر ما اخشى ان أسيء اليها ، او ان تسيء اليّ ، فاضطر الى اتخاذ موقف الحذر منها . وانت تعلمين ، يا سيدتي ، ان على الفنّان ان لا يهتم إلا بنتاجه الفني . وقد تستأثر سولانج بجزء من قوتي وتصرفه عن غايته ، فاعجز عن حصر قواي كلها في سبيل رسالتي الفنية . ولن استطيع لوم سولانج على ما يبدر منها في هذا الميدان ، مع انها قد تكون سبباً لازعاجي وتقليل قيمتي الفنية . سأشعر انها تعطيني نفسها كلها ، ولا استطيع ان اعطيها نفسي كلها ، فأتألم واصبح شقياً ، بينما انا في حياة العزلة لم اعرف إلا السعادة . وهي ؟ من يصدق انها تكون سعيدة الى جانب رجل يتحرّق ويفنى اسىً ؟

أتسألين عن المخرج ؟

انه الطلاق !

وكيف يطلّق الرجل أمرأة لا مأخذ له عليها ؟

كيف يتجنّى على مخلوقة صغيرة كلها عذوبة ، واخلاص ، ووفاء ، وحسن طوية ؟

أتراني استطيع ان اقول لها : « اذهبي في سبيلك ، فلستِ مذنبة في شيء . لا ذنب لك إلا انك ُخلقتِ واحببتني . غير أن وجودك عبء ثقيل عليّ ، وحبك يسمّ حياتي . اعطيك مهلة ثمانية ايام لتتدبري امرك ، وتعودي الى امك » .

لا ! لن اقول لها هذا !

لماذا نرهق نفسنا لنتوهمها باننا قد نبلغ هذا الحد من التنافر ، فاضطر الى مخاطبتها بمثل هذا الحديث ، وتستطيع ان تقبله مني ؟ بناؤنا على هذا الافتراض بناءً على فراغ ، نقوم به ونحن نعلم اننا نبني على فراغ .

وبعد ؟ سنبقى هكذا متشابكين ، متلاصقين ، يقضم احدنا الآخر ، كذينك المالكين اللذين حدثنا عنهما دانتي [1] ، فنظل في هذا الوضع الجهنمي ، وجهاً لوجه ، الى النهاية .

وثمة سبب آخر لعدولنا عن الزواج يبدو ثانوياً في نظر الناس ، لا في نظري ، وهو اني مخلوق دائم الحركة : احب المخلوقات ، احب امتلاكها ، احسها في دمي . ولا مفرّ من ان اشتهي نساء اخريات غير زوجتي . فما العملُ والحالة هذه ؟ أألجأ الى التستر والنفاق اليومي ، والحيل الحقيرة ، مع امرأة احبها وتحبني ؟

لو اقدمتُ على الزواج لكنت كمن يتفق له ان يرى فتاة ما ، فلا يتحرّج في أخذها وطرحها بين متاعه ...

لا ! وهذا ايضاً لن يكون ابداً !

ماذا بقي لنا من الأساليب الممكنة ؟ التواطؤ ؟ ربما رضيت به مع بعض النساء ؛ اما مع سولانج ، فلا . واكرر قولي اني سأشتهي نساء اخريات ، لا بعد أشهر او اسابيع تنقضي على زواجنا ، ولا بعد بضعة ايام ، بل في اليوم التالي ، في يوم الزواج بالذات .

قد تقولين : « لا بد من النضال ... » فاجيبك : « اني لا اقاوم شهواتي » .

---

١ ـ شاعر ايطالي (١٢٦٥ – ١٣٢١) نظم ملحمة « الكوميديا الالهية » التي بوأته مرتبة رفيعة بين عباقرة التاريخ . وقد وصف فيها الجحيم وصفاً رائعاً فريداً ، ومن اشد مشاهد هذا الوصف هولاً صورة عدوين عالقين في جليد من النار ، يقضم احدهما رأس الآخر بضراوة ، وكل منهما باقٍ في مكانه ، مستمر على حاله الى الأبد .

يجب ان لا يتم هذا الزواج .
ويجب ايضاً ان يظل المستقبل مفتوحاً امامنا .



امامنا حلّان :

حلّ مبتذل يلجأ اليه الكسالى ، وهو ان نفترق فلا يرى أحدنا الآخر . فاذا وقع اختيارك عليه ، فاني اسافر الى المغرب ، واريحك مني الى الأبد .

ولكن يجب ان تعلم سولانج كم اكنُّ لها من المودّة ، والعطف ، والحنان . يجب ان تعلم انها ستبقى لي ذكرى نقية ، لا تشوبها الا الغيوم التي بعثتها انا فيها . يجب ان تعلم ان حبي لها لم يبلغ قط من العمق والقوة مقدار ما بلغه يوم بدأت افكر بالانفصال عنها ، وان متانة هذا الحب وثباتي فيه هما اللذان يُكرهاني على القطيعة ، فلولا سولانج لما احسست بتبكيت الضمير ، ولما همني ان آخذ اكثر مما اعطي ، او ان اكذب ، او ان أطلّق .

والحل الثاني هو ان نتابع علاقتنا كما كانت ، بكل بساطة ، ومن دون ان نفكر بالزواج . انه حل غريب عن التقاليد البورجوازية ، لكني تجرأت على عرضه لانك افهمتني ، يا سيدتي ، انك ، على الرغم من استعدادك للقبول بهذا الزواج العجيب ، لا تترددين في الانحراف عن الطرق المألوفة ، اذا كان انحرافك مفيداً لسعادة ابنتك .

دعينا من « اللياقات الاجتماعية » . فما الذي يهمنا منها ؟ لا تفكري إلا بسعادة ابنتك . والام الحنون لا تقيم وزناً للياقات الاجتماعية في قضية تتعلق بسعادة ابنتها .

ولنقل الحقيقة ، فان ابنتك تغتبط بمعاشرتي ، وانا اغتبط بمعاشرتها ، فلماذا نُحرم هذه المتعة بحجة اننا لم نتزوج ؟

ان هذا الاعتبار ، في نظري ، لخليق بالعصر الحجري وسكان الكهوف .
ألا نستطيع ان نجد حلاً وسطاً بين القطيعة والزواج ، هذين الحلّين السخيفين ؟

العمل الانساني هو المحفوف بالصعوبات والمحاط بالملابسات . فلنتشبث اذاً بالوضع الراهن ، ولنقابل اقاويل الناس بتدابير عملية جديدة ، فتأتي سولانج الى منزلي ، ولا يرانا احدٌ معاً في الخارج ، خصوصاً في باريس ، ولا اتفوّه باسمها مطلقاً بين الناس .

واني مستعد ان اعطيها كل شيء ، مادياً ومعنوياً ، كأننا متزوجان ، شريطة ان نظل خارج الزواج .

ماذا قلتُ ؟ اني اعطيها في هذا الوضع اكثر مما اعطيها في الزواج ، لان حبي لها ، حين يرى نفسه امام الزواج ، لا يتقدم إلا متألماً ، لعلمه انه يسير الى الكارثة ، وانه لا بد له من ان يفسد ويتحطّم ؛ اما اذا كان في نجوة من الزواج ، فانه لا يجد على طريقه اقل عقبة ، فينطلق وينمو بحرية .

وتقبلي ، يا سيدتي ، وافر الاحترام ...

كوستال

١٦ آب . — في اليوم التالي ، الساعة الحادية عشرة والربع ، رنّ جرس الهاتف في منزل كوستال ، ثم سُمع صوت السيدة دندبو الأجش يسأل : أموجود كوستال ؟ فكاد صاحبنا يجيب : « لا ، لستُ هنا ، يا سيدتي » . ولو فعل لكان جوابه صادقاً بالمعنى الرمزي ، لأنه دائماً غير موجود (معنوياً وعقلياً) حيث يبحث عنه الناس .

غير انه اجاب بصوت خافت :

— انا كوستال !

وسمع صيحة في اعماقه تقول له : « ويحي ! ستوبخني بقسوة ! »

واستطرد صوت السيدة دنديو قائلاً :

– سيدي العزيز ، تأثـّرت الى اقصى حد برسالتك الصادقة المخلصة . إلا ان هذه القضية اهم بكثير من ان نعالجها بالرسائل . أيطيب لك بتناول الشاي معاً الساعة الخامسة ؟

فقال كوستال في نفسه : « اوه ! الساعـة الخامسة ؟ لست حراً في هذا الوقت ! » فقد اعتاد ان يتهرب دائماً في الوهلة الاولى ، حتى اصبحت هذه العادة فيه طبيعة ثانية . إلا انه غيّر رأيه وقبل الدعوة ، على أمل ان يتخلص من هذه التجربة بسرعة .

وعلـّق سماعة الهاتف في مكانها ، ثم علـّق فكرة الزواج كما يعلـّق المرء معطفه حين يخلعه مستغنياً عنه ، وخاطب نفسه قائلاً : « استطيع ان اصرف فكري عن هذا الموضوع الآن ما دمنا سنجتره طوال ساعتين هذا المساء » .

يشق الموت دائماً طريق التجدّد للحياة ، ومن الجثة تنبت ازهار قوية .

مات السيد دنديو ومشاريع الزواج تشغل بيته منذ ثلاثة اسابيع ، وتوجّه الافكار الى المستقبل . وطُهّرت الغرفة التي لفظ فيها الروح ، ورُفعت منها اجهزة المعالجة كأنها لن تضم مريضاً بعد اليوم ، وفُتحت نوافذها التي ظلت مغلقة طوال اسابيع خوفاً من الضجيج .

وكانت سولانج قد نقلت الى امها بعض آراء كوستال وانتقاده اللاذع للفرنسيين الذين يحبون الاشياء القديمة ، ويكدسونها في بيوتهم دونما ذوق او ترتيب ، حتى ليصبحوا موضوع تندّرٍ وسخرية في نظر الاجانب ، فجمعت السيدة دنديو قسماً كبيراً من هذه الاشياء التي كانت تملأ بيتها وباعتها .

ولم تقتصر اعمال التهوية على البيت ، بل تناولت روح السيدة دنديو التي ارادت ان تتجدّد هي ايضاً . كانت ثقيلة على زوجها ، لأن زوجها كان ثقيلاً عليها . اما وقد اطّلعت على ان ابلتها عاشقة ، وعرفت ان هذه الابنة العزيزة ترقد مرة كل يومين بين ذراعي الرجل الذي تحبه ، فقد احسّت بشبابها يُبعث حيّاً ، وهي في الثامنة والخمسين ، في العمر الذي تتعرض فيه المرأة للاضطراب الجنسي اكثر الاحيان .

ولم يكن اضطراب السيدة دنديو جنسياً بكل معنى الكلمة ، بل كان نوعاً من السأم الناجم عن الكبت الطويل . ولم يكن يدفعها الى البحث عن الرجال ، بل الى التفكير بنفسها . فقررت ان تبادر ، بعد انتهاء مدة الحداد ، الى الخروج من البيت للترويح عن النفس ، خلافاً لعادتها ،

والى القيام برحلات ترفيهية . وهذه في اعتبار الناس ضربٌ من التحرّر يجعل المرء يفكر بنفسه ، ويأخذ نصيبه من السعادة .

وفي اواسط آب كانت المرأتان : السيدة دندبو وابنتها ، في باريس . اضطرت الام الى البقاء في المدينة ، على الرغم من القيظ ، لمقابلة الذين ُعهد اليهم بتصفية تركة دندبو . وكان في وسع سولانج ان تصطاف عند بعض اصدقائها في « ايتريتا » ، غير انها لم تفعل ، لانه يتعذر على كوستال ان يذهب اليها وان يجتمع بها هناك من غير ان يثير ظنون الناس واقاويلهم . فرفض الكاتب ان يغادر باريس قائلاً : « الصيف هو الفترة الوحيدة التي يبتعد فيها اصحابي عن المدينة ، فاجد سبيلاً الى الهدوء والراحة » . ولم يكن ليفوته شيء من التمتع بجمال الطبيعة على طريقته الخاصّة . فبقدر ما كان يتقدم بالسن ، كان شعوره بالطبيعة يضعف ويتضاءل ، وشعوره بنفسه وبالاشخاص الذين يحبهم يزداد احتداماً . وكان يقول : « لا اكره ان ارى شجرة هنا ، وشجرة هناك ، غير اني لا احس بحاجة الى رؤية عدد كبير من الاشجار دفعة واحدة . اما البحر ، وسطحه السخيف المجعّد كمؤخرة الفيل ، فلا تحدثني عنها ، ففي نفسي اشياء اجدر منها باهتمامي ! »

وفي هذه الاثناء تلقّت السيدة دندبو رسالة كوستال ، فهزتها صراحة الكاتب الفظة هزاً عنيفاً ، إلا انها لم تثر غضبها ، لانها تأثرت ببعض ما فيها من الكلمات اللطيفة ، ولم تفتها عبارة : « اشعر بقوة تحفزني على التحدث اليك بمزيد من الرغبة والمودّة » . فارتاحت اليها ، ونظرت الى جميع ذرائع الكاتب بكثير من التفهّم ورحابة الصدر . ثم اقامت تنتظر موعد وصوله في الساعة الخامسة ، وهي مطمئنة الى نتيجة الحديث الذي سيجري بينهما .

وقرع كوستال الباب كحيوان روّعه السوط . وعبثاً حاول اقناع نفسه بانه بعيد عن الحوادث المزعجة ، وهو الذي كان يجتنب دائماً كل عمل

لا يروقه ، فقد تضخّمت في مخيّلته اهمية هذه المقابلة حتى غدت في نظره تتمخّض بكارثة .

وبـدأ الحديث ، فجعل الاثنـان يدوران حول الموضوع ، وكلٌّ منهما مرتبك لا يدري كيف يبوح بمـا في صدره . وحاولت السيدة دنديو ان تستميل ضيفها بكل وسيلة . وكانت قد سمعت من ابنتها انه يحب ايطاليا ، فقالت له ان من يراه يحسبه ايطالياً ، مع انه لم يكن يشبه الايطاليين في شيء . وبعد اخذ ورد ، اتخذ الحديث اتجاهاً جديداً اذ خرج صاحبنا من خندقه دون ان ينظر الى وراء ، فبدا مستعداً للنزال .

كرّر جميع الذرائع التي رددها على مسامع سولانج منذ استسلامها اليه استسلاماً كلياً ، وكانت السيدة دنديو تستمع اليـه بعطف ظاهر ، وبشيء من المرح والسرور .

لا ، لا ، ايها القارىء ، كن مطمئنـاً ، لن تقع السيدة دنديو في غرام كوستال . فبعد تلك الاسابيع المرهقة التي انصرفت خلالهـا الى العنـاية بزوجها المحتضر ، ثم الى مقابـلة رجال الاعمال لتصفيـة التركة ، احست بفيض من السرور والانشراح اذ رأت شابـاً يزخر بالحيوية والنشاط في بيتها ، في هذه القاعة المتجددة التي طالما عانت فيها توبيخ ابنها ، واحست بالاحتقار الذي غمرها بـه زوجها المتفوّق عليهـا عقلياً واجتماعيـاً ... فالطبقات قائمة في صميم العيال . وقد وجدت متعة كبرى في اجتماعها الى رجل شهير يتوق الناس الى الاحتفاء بـه ، وفي تحدثه اليهـا باحترام في موضوع لا يعرفه تمام المعرفة ، ثم في مـا كان يسرده من اقوال خاطئة بشأن قضية تعرفها هي وتدرك كنهها اكثر منه .

أجل ، كانت تعرف هـذه القضية معرفة تامـة . تعرف مـا هـو الزواج بحقيقته العامة باستثناء حالات شاذة مدهشة لا سبيـل الى الاخذ بهـا . انـه بوضعه التقليدي الدارج مهزلة مؤسفة يقوم بجوارها ممثلان شقيان سمّها ، اذا شئت ، نينيت ورنتانتان ، او فلاناً وفلانة من الناس .

قال السيد دنديو يوماً ، رداً على سؤال طرحه عليـه رجل لم يكن صديقه :

— ما خالج شعوري لما تزوّجت ؟ لا شيء ! غير ان المرأة التي تحمل اليك بائنة قدرها اربعمائة الف فرنك ذهبـاً جديرة بان تؤخذ . لم اكن احبها ، لكني حسبت المحبة تأتي تباعاً بالمعاشرة .

غير أن المحبة لم تأتِ ، وانقطع فلان عن تقبيل فلانة على شفتيها بعد ثلاثة اسابيع على عقد الزواج ، ثم أشعرها بتفوقه عليها .

وفي المرحلة الاولى من هذا الزواج كانت فلانة تقول في نفسها : « انه يحبني ! » كلما شتمها واتهمها بالغباء . غير انها ما لبثت ان ادركت بعـد ايام انه يعني مـا يقول ، خصوصاً حـين كان يصيح بهـا : « اوه ! لا ، كيف تريدين ان ننتقل من هذا البيت ؟ أمجنونة انت ؟ مـا اسمجك واثقل ظلك ! »

وعلقت أملها بان تكون ولادة ابنها غستون فاتحة خير ، فتصل مـا انقطع بينهما . لكن فألها خاب . فقد رفض فلان ان يقبل الطفل ساعة ولادته . ألم يكن هـذا الرفض سبباً لمـا ظهر في مـا بعد من فظاظـة غستون وشراسة طبعه في حداثته ، وفتوّته ، وشبابه ؟! ألم يكن هـذا الرفض ضرباً من اللعنة ؟

كانت السيدة دنديو تؤمن بذلك ، وتحسب ابنها موصوماً باللعنـة ، فما قبّلته إلا بعد ثمانية ايام على ولادته . ومـا إن أدنت شفتيها منـه حتى احمرّت خجلاً ، وساورها الكثير من القرف والخوف .

ولم يحبّ السيد دنديو ابنه ، مع انه كان يبذل بسخاء في سبيل الفتيان الذين في مثـل سن غستون ، والمنتمين الى الجمعيات الرياضية . وربمـا كان السبب في ذلك شعور دنديو بالمسؤولية حيال ابنـه ، وهـو الاناني الذي لم يكن يطيق عبء الواجب . اما بذله لاجل الآخرين فلم يكن يزعجه لأنه بعيد عن الواجبات والمسؤوليات .

ولا بد من الملاحظة انه لم يكن يحب اولئك الفتيان ، بل كان يحب نظرياته التي يمثلها الرياضيون في ألعابهم .

وانزوت فلانة في بيتها منصرفة الى اعمالها المنزليـة ، والى الاهتمام باثاث بيتها ، وبحديقتها الريفية الكبيرة . والحق يقال انها لم تكن بحاجة الى حب زوجها ، ولا الى سخرة العلاقة الجنسية ومتاعبها .

ومن حسن الحظ ان قيامها بهذه السخرة كان يقلّ ويتباعد تدريجياً . ولم تكن تشعر بميل الى زوجها إلا حين يقول لهـا انـه التقى امرأة فاتنة ، او ان احدى بنات الشارع تصدت له ودعته الى مخدعها .

جلّ ما كانت تريده من زوجها ان « يفهمها » . والمعروف عن المرأة انها لا تشكو من عدم فهم الرجل لها إلا في حالة واحدة لا تتغير ، هي ان يكون الرجل لا يحبها مطلقاً ، او يكون لا يحبها بقدر مـا تحبه .

وكانت شكوى السيدة دنديو من « عدم فهم » زوجها لها اكثر تواضعاً من شكاوى غيرها من النساء . فكل مـا كانت تطمح اليه ان يكون السيد دنديو عادلاً في معاملتها ، فلا يلقي عليها جميع الاعباء والمسؤوليات المتعلقة بالابناء وبادارة المنزل ليحتفظ بحق التذمر والانتقاد والصيـاح . كان يلقي عليها تبعات جميع الاخطاء ، ويقسو عليها في المعاملة اكثر مما يقسو على الخادمـة . وكان هذا امراً طبيعياً ، لأن فلانـة زوجـة ، لا تستطيع انذار سيدها بانها قررت مغادرة البيت بعد ثمانية ايام .

وكانت السيدة دنديو تودّ ان يرفع زوجها انفـه عـن جريدته ليرد عليها عندما تخاطبه ، وان يهتم قليلاً بغير المصارعة ، والركض ، والقفز العالي ، ورمي الاسطوانة والرمح ، والانسان الطبيعي ، ومعرفـة أتمطر السماء يوم الاحد فتحول دون قيامه برياضته المفضلة ام لا .

ولما وُلدت سولانج على كرهٍ من ابيها ، رفض فلان ان يرى فلانة ، فظلت يومين تبكي وحدها في فراشها . اراد ان يعاقبها على قلة احترازه هو ، فاضمحلّ أمل نينيت بكسب عطف زوجهـا على يد اولادهما . إلا

انها حاولت تسلية نفسها قائلة : « بعد ولادة هـذه الابنة لن اكون وحيدة في بيتي . فاذا امعن هذان الحيوانان – وهي تعني زوجها وابنها – في تعذيبي ، فسأجد في ابنتي احسن العزاء » .

واصبحت سولانج بالفعل عزاءً لامها في مختلف الاحوال وبكل معنى الكلمة .

وادهى ما في الامر ان رنتاتتان بدأ يدرك انه اخفق في حياته وهو في الخمسين من العمر ، فامتلأ صدره وغراً . واحست زوجته بمـا يعتلج في نفسه فنفرت منـه ، وصممت على الصمود في وجهـه ومقاومتـه . ثم راحت تبدي له الملاحظات الجارحة ، وتثير المناقشات الحادة التي كانت تنتهي دائماً بذهاب نينيت الى مخدعهـا في الساعـة الثانية بعـد الظهر ، وباحتباسها فيه حتى اليوم التالي .

كانت اساءتها اليه تريح اعصابها من كبت استمرّ خمساً وعشرين سنة . وفي ساعات نزقهـا واشتداد نقمتها أحرقت مذكرات زوجها ، وغسلت يديها بعد مصافحته ، وامتنعت عن تقبيل ابنها غستون كلما رأته يقبل اباه . ولما مات دنديو احبت ان تبكي ، ولو قليلاً ، فما استطاعت .

تلك هي الخبرة التي كانت السيدة دنديو تتمتع بها في شؤون الزواج لما شاءت ان تزوّج ابنتها من كوستال ، فغدت مستعدة للقبول بمختلف انواع الذل والهوان لتحقيق هذه الامنية . وقد رأت في تفوّق كوستال العقلي على سولانج ، وفي انانيته وغرابة اطواره ، وفي فارق السن بينهما ، واختلاف نظرتيهما الى الحياة وبرودة سولانج – رأت السيدة دنديو في هذه كلها ما جعل زواجها مظلماً كئيباً . إلا انه لم يخطر في بالها قط ان زواج ابنتها بكوستال قـد يثمر غير السعادة . وكانت مؤمنة بمـا تنوي قوله لكوستال في مديح الزواج ايمان الآباء الاجلاء الذين يروي لهم مـدير المدرسة خبراً مكدراً عن سلوك ابنائهم ، فيجيبون : « نفضّل ان نتلقى نبأ موته على ان يكون في هـذا الدرك من فساد الاخلاق ... » ، مع

انهم لم يكونوا ايام الدراسة افضل من هذا الابن المنغمس في الرذيلة .

ان الشبان الذين يتزوجون معذورون لجهلهم وقلة خبرتهم . لكن ما قولكم في الذين يزوجونهم وهم يعلمون حق العلم ما هو الزواج ؟

ويتبادر الى الذهن ان هناك رغبة عمياء تدفع بالناس الى الزواج كرغبتهم في الجماع ، فكأن لغريزة المحافظة على الجنس سلطاناً لا يُقهر .

من حين الى آخر ، كانت السيدة دنديو ترد على ذرائع كوستال . غير ان اقوالها كانت عديمة التأثير فيه . ولم يخطر في بالها شيء من الحجج الكثيرة التي كانت تستطيع افحامه بها . اما هو فكان يتستّر بغيرته على فنه ونتاجه الأدبي بلا خجل ، كمقاتل في الميدان يعلم ان سلاحه هو الأمضى . ولما امعن في تغنّيه بالفن ، قالت له السيدة دنديو :

– أليست خفقة القلب حباً أنقى نتاج فني في الحياة ؟ ألا ، ليست حياةٌ هذه العزلة التي تتحصن بها.. تزوّج يكنْ لك موقد نار يبعث الدفء في جسمك، ومطبخ جيّد ، وضوء ، وضجيج ، وبعض المتاعب التي لا بد منها ، فالحياة الحقيقية لا تخلو من هذه الامور .

فراح كوستال يجتر استنكاره قائلاً في نفسه :

– « الضجيج » ... هذا ما يحتاجون اليه . فافتقارهم الروحي المريع يريد ضجيجاً لا عزلة ، وإلا جابههم العدم الغارقة فيه نفوسهم . يحسبونني شقياً لأني اعيش منفرداً ، ويتحدثون عن المطبخ ، متوهمين ان سعادتهم الحقيرة تستطيع ان تكون سعادتي ، وان حياتي ليست حياةً !

أجل ، لم تكن السيدة دنديو تعتبر حياة كوستال شيئاً يستحق الذكر . وكثيراً ما اعربت ، بلا تحفظ ، عن استنكارها لحياة الاعزاب المتقدمين في السن . ولم يخطر في بالها ان العزّاب انواع متباينة ، وليسوا نمطاً واحداً . ومن المضحك حقاً ان يسمعها المرء تنتقد « عزلتهم » حين تكون هذه « العزلة » آهلة بمخلوقات فاتنة ، ليس في الزواج ما يضارعها جمالاً . ان ثمة حالات يكون فيها الانسان متزوجاً في العزوبة ، او عزباً في الزواج . اما تلك

النهنية التي ترى عزوبة" جافة في شيخوخة امثـال ـفلوبير ، وبودلير ، ونيلشه [1] ، فمن الافضل ان لا نأتي على ذكرها .

وضربت السيدة دنديو على اوتار عديدة منها وتر : « الزوجة المعاونة » ، ووتر : « ستعنى بك في شيخوختك » ، والوتر التقليدي المعروف : « يجب ان نعمل ما يعمله الجميع ! » ثم قالت :

– أيخيفك القليل من الانضباط في حياتك ؟ عشتَ حتى الآن سيـد نفسك ، تطيع نزواتك ، فلا بد لك اخيراً من الانصياع للقوانين العامة . اذا ابيت ان تتزوج فسيحز" في نفسك الحنين الى البيت العائلي . وكلما رأيت مستخدماً نشيطاً يعود مساءً الى منزله ليلتقي زوجتـه واولاده ، وليجد الحساء الساخن ، ستلتهد من الاعماق قائلاً : « اواه ! ما اشقاني في عزلتي وانفرادي ! »

وتبادر الى ذهن كوستال قول شيلر [2] في كتابه « جان دارك » : « حتى الآلهة يقاتلون الغباء بلا جدوى » . وكان قد اورد هذه العبارة في مقال ارسله الى جريدة يومية مسائية ، فنشر المقال بكامله ، إلا هذه العبارة ، اذ لا يجوز انتقاد الغباء في صحيفة فرنسية .

وبعد هذه المقدمات ، شرعت السيدة دنديو تعرض محاسن ابنتها ، كما يعرض النخـّاس أَمَتَه ، وكما يمتدح تاجر الخيل فرساً يريد بيعها ، ومما قالته تلك الام البورجوازية :

---

١ – فريدريك نيلشه (١٨٤٤ – ١٩٠٠) فيلسوف الماني تقوم فلسفته على تنمية طاقات الحياة والارادة والقوة حتى يصبح الانسان متفوقاً . اشهر مؤلفاته كتابه : « هكذا تكلم زرادشت » . يعتـبر باعث المذهب العرقي الذي اصبح قانون ايمان النازية .

٢ – فريدريك شيلر (١٧٥٩ – ١٨٠٥) كاتب الماني ، اشهر مآسيـه التاريخية : « الاشقياء » ، و « ومؤامرة فياسكي » ، و « والنشتاين » ، و « ماري استيورات » . يعتبر صلة الوصل بين شكسبير والادب الكلاسيكي ، ومن اشد الكتاب تأثيراً في نشوء الحركة الرومنطية في القرن التاسع عشر .

– ان سولانج صريحة الى اقصى حد .

فارتبك كوستال قليلاً وتردد، لا يدري أتروقه هذه الصراحة ام تزعجه . ثم استطردت الام قائلة :

– ... وانها شديدة العناية باعمالها ، تحسن ترتيب اعمالك ترتيباً متقناً .

فقال كوستال في نفسه : « وما الفائدة من الخدم اذاً؟ »

واكملت السيدة دنديو حديثها فقالت :

– ... وهي لا تحب البذخ ، فلن تكلفك غالياً لشراء الثياب . اما السيارة فلا حاجة بها اليها . قالت لي سولانج يوماً : « لا اريد سيارة » . ورددت على مسمعي اكثر من عشرين مرة ان دعوتها في هذه الحياة هي ان تخضع لزوجها ، وان تكون زوجة شرقية الصفات .

فقال الكاتب في نفسه : « أتراها تحافظ على هذا الاستعداد عندما تنال أربها وتصبح ربة البيت ؟ »

واستطردت السيدة دنديو قالت :

– وانها ستساعدك في كل شيء ، وانت تعلم انها ليست حمقاء . وستضرب مخطوطاتك على الآلة الكاتبة .

وأكمل كوستال الحديث كأنه يتكلم بلسان السيدة دنديو : « وستذهب بالنيابة عنك الى دور النشر ، وتحصل لك على عقود تعود عليك بالارباح الطائلة وهي الحسناء الفاتنة !... »

قالها الكاتب بمرارة واستياء ظاهر ، واحس ان ما كان في نفسه من العطف على هذه المرأة بدأ يذوب ذوبان الثلج في حرارة الشمس ، وان سولانج تبتعد عن نفسه وعن محبته كلما فكر بانها تقيم مع هذه المرأة وتشاطرها حياة مشتركة حميمة .

وتبادر الى ذهنه ان زواجه يمنح السيدة دنديو حقوقاً عليه ، منها حق محاسبته على ما يكسب وما يبذل ، وحق معرفة كل شيء عن

حياته الخاصة ، وحق المجيء الى داره ساعة تشاء ، وحق مراقبة اعماله .

وفيما هو غارق في هذا التفكير ، شرع يتفحّص بعينيه يديّ المرأة الغليظتين ، وما يتشعب فيهما من شرايين بارزة ، وما يبدو عليهما من العقد ، كأنهما براثن احد الطيور الجوارح .

وخطر في باله كتاب صدر حديثاً ، عنوانه : « مجهولون في بيتي » ، فقال في نفسه : « اني اضيق ذرعاً بعيلتي ، وهـا انا اريد ان تكون لي عائلتان ! لو اقتصرت المصيبة على الاقتران بشخص واحد لهـان الأمر ، لكن لا بـد لي من الاقتران بقطيع من المجهولين ، بقبيلة قذرة من الآباء ، والامهات ، والاخوة ، والاخوات ، والاعمام ، والعمات ، والاخوال ، والخالات ، وابنـاء الاعمام والاخوال ... الذين سيدّعون ان لهم حقوقـاً عليك لترتيب اعمالك ، وتكون النتيجة ، في احسن الاحوال ، اضاعـة الوقت سدىً » .

وعلّق كوستال على هذه الافكار بصوت مسموع ، فقال :

– مجتمعنا مجنون ، وكل ما فيه فظيع ومفجع . اذا كنتُ مرغماً على الزواج ، اذا كان القانون يحتمه عليّ ، فمن الافضل لي ان اختار لقيطاً من المأوى وان اتبناه . دعونا من هذا المزاح البغيض .

واسترسل في الاعراب عن حقيقـة شعوره ، فتحدث عن « ثقـل » النساء ، اي عـن افتقارهن الى الظرف والرشاقة . ثم راح يدعم رأيـه ببعض ذكرياته ، فقال :

– كنت يوماً على زورق صغير بالقرب مـن الشاطىء ، فاحسست فجأة ان زورقي قـد ثقل كأن قوةً شريرة جمّدته في مكانه فتوقف عن السير ، ثم سمعت ضحكة ، وما لبثت ان رأيت احدى السابحات متعلقة بـه ، فاذا هي امرأة كنت احبهـا ... ومرةً رأيت ضفدعـة تجـامع سمكة ، تحتضنهـا بيديهـا ورجليها يومـاً كامـلاً ، حتى ماتت السمكة

مختنقة [1] ...

كان كوستال يروي هذه الاخبار وهو ممتقع الوجه من شدة الهلع ، فرأت السيدة دنديو ان خوفه يقرّبه الى القلوب ويجعله محبوباً ، فقالت له بلهجة المنتصر :

— أتخيفك المرأة الى هذا الحد ؟

وكم كان كوستال يود لو يجيب ان اقوى الاقوياء يخسر النصر اذا تقذّت عينه بشرارة ، وان الاسد يخشى البعوضة ، وهو في خشيته على صواب ، وان ذبابة تموت في حق عطر فتفسد كل رائحته المنعشة ، كما يقول الكتاب المقدس . إلا ان اقوالاً من هذا النوع لا تقال في صالون ، حتى لو كان كصالون السيدة دنديو مزداناً بتحف بعيدة عن الذوق : تماثيل حيوانات منسوبة الى مدينة « بومبيي » [2] تبدو كأنها من البرونز ؛ ونخلة معصوبة بشريط وردي اللون كأنها كلب حراسة ؛ صالون اشبه ما يكون بصالونات اطباء الاسنان ، مع فارق واحد هو انك في هذه الصالونات تنتظر ان ينتزعوا ضرسك ، وهنا تنتظر ان يزوّجوك . والفرق بين الحالين زهيد جداً .

وقطعتْ عليه السيدة دنديو تفكيره قائلة :

— لنتحدث في ما هو عمليّ .

وتحدثت عن الاشياء التي تقبل بها ، فاذا هي تقبل بكل شيء : بان

---

١ ـ لا تحتاج هذه الحادثة الى تفسير كما وردت باللغة الفرنسية لان لفظة « سمكة » بالفرنسية اسم مذكر ، والضفدعة مؤنث .

٢ ـ مدينة أثرية في ايطاليا تقع في سفح البركان « فيزوف » . كانت في عصور الامبراطورية الرومانية من مدن الترفيه واللهو الخالع العذار . سنة ٧٩ ميلادية ثار البركان فدفنها تحت الحمم والرماد . وسنة ١٧٤٨ بدأت الحفريات للكشف عن آثارها . وهي من اشهر الاماكن السياحية في العالم لما فيها من التماثيل وبقايا المباني والتصاوير الجدارية الرائعة .

يعقد الزواج في الريف بحضور اربعة شهود لا غير ، وبان ينص العقد على أن يحتفظ كلٌ من الزوجين بما يملك ، وان تُقدم لسولانج مرتباً سنوياً ، وتعطيها بائنة ، لكن بعد بضع سنوات ، متى تبيّن لها ان زواجها وثيق العرى . فقال كوستال في نفسه : « انها ستنقطع عن دفع المرتب السنوي قبل موعد دفع البائنة ، فينتهي كل شيء باوراق عليها طوابع اميرية ولا فائدة منها . اني اعرف الطبقة البورجوازية العليا معرفة تامة » .

وقبلت السيدة دنديو ايضاً بان يكون عقد الزواج مدنيـاً ، على ان يتم العقد الديني متى تبين لها ان زواجها متين ومضمون الاستمرار ، قالت :

— ليس من الضروري ان نورّط الكنيسة في زواج مزيف وغـير جـــدي .

فارتعش كوستال لأن سولانج كتبت اليـه هـذه العبارة حرفياً في احدى رسائلها اليه . أتراها استلهمت امها لتكتبها ، ام ان امها أملتها عليها في تلك الرسالة ؟

اذا كان الامر كذلك فقد كذبت سولانج ، لأنها انكرت ان لامها شأناً في رسالتها . واذا كانت صادقة فهي كالاولاد الصغار الذين يرددون ما يسمعون في بيوتهم من كلمات تحدث في نفوسهم بعض التأثير .

ومرة اخرى ، اشمأز كوستال من جبن سولانج وامهـا في اعتناقهما للمذهب الكثوليكي ، وفي نظرتهما الى هذا المذهب ، فقال في نفسه : « ان دين الاوروبيين افظع بكثير من ان يكـونوا بـلا دين » . ولم يستطع إلا ان يجاهر برأيه هذا . فاجابت السيدة دنديو :

— ما كان ليخطر في بالي ، بعد ان طالعت كتبك ، يا سيدي العزيز ، انك ستلقي عليّ درساً في الدين .

وصرمت فمها الشبيه بافواه بنات الحقول في المناطق الوسطى ، فاذا هو شبيه بما ايبدو على الدجاجة المصابة بالامساك . كانت من اولئك النساء اللواتي يضحكنك عندمـا يصرمن افواههن ، ويبثن في جسدك قشعريرة

من البرد عندما يضحكن . لم تكن مستاءة ، لكنها رأت انه لا بد من التظاهر بالاستياء ما دام الأمر متعلقاً بالدين . فالكنيسة ذريعة للمنغمسين في الحياة الدنيا ، كما ان يسوع المسيح ذريعة للكنيسة .

وأحفل كوستال بدوره كما احفلت السيدة دنديو ، إلا انه كان صادقاً وبعيداً عن المراوغة ، فقال :

– لو شئتُ ان اكون كثوليكياً لكنت كثوليكياً حقيقياً لا غبار عليه . ولو اقترح عليّ البابا ان يجعلني كردينالاً كما اقترح على تورين[1] الذي لم يكن اجدر مني بهذه الرتبة ، لقبلت اقتراحه بسرور . اقولها بلا ادعاء ، ولا غرور ، فانا واثق بأني استطيع ان اكون كردينالاً .

أسمعت الدجاجة تقاقي عندما تبيض ؟

هكذا راحت السيدة دنديو تضحك . وكانت كلما قهقهت رفعت يدها الى فمها كالبنات الصغيرات . لم تدرك ان كوستال كان جاداً في ما قال ، وانه لو تسنى له ان يكون من رجال الكنيسة لكان شبيهاً بالبابا اسكندر بورجيا السادس[2] ، له نظرته الخاصة في شؤون الاخلاق ، إلا انه لا يحيد قيد انملة عن مبادىء المذهب والايمان .

اقترحت الام الحنون ان يتم العقد مدنياً ، وقالت ان الزوجين يستطيعان ، يوماً ما ، ان يذهبا الى احد الارياف البعيدة ليتلقيا بركة احد الكهنة ، بعد إيهامه بانهما متزوجان دينياً ، ولا بأس اذا قالا له انهما

---

١ ـ مارشال فرنسي (١٦١١ – ١٦٧٥) احرز انتصارات عديدة ، واصيب بشظية قنبلة في معركة سالسباخ فقتل . خلف مذكرات قيمة تعتبر من اهم المؤلفات العسكرية .

٢ ـ كان رئيس الكنيسة الكثوليكية من سنة ١٤٩٢ الى سنة ١٥٠٣ . وكان سياسياً قديراً بعيد النظر ، قاتل الاشراف الايطاليين قتالاً لا هوادة فيه ، وكان في حياته الخاصة شبيهاً باكثر امراء عصر الانبعاث ، يطلبون اللذة ، ولا يتحرجون في امور الدين .

يلتمسان بركة اضافية لانهما يجدان فيها مزيداً من قوة الايمان . وهكذا تنشر جريدة « الفيغارو » الخبر ، فتقول : « وقد بارك الاكليل ، الخ... » دون ان تكذب . وقد وجد كوستال في هذا الاقتراح نموذجاً عما هو مشهور عن نبوغ الطبقة البورجوازية العليا .

والتمس مهلة جديدة للتفكير قبل البت في الامر ، فوافقت السيدة دنديو بحرارة ، إذ كانت تحس مثله بانها على منحدرٍ خطرٍ وتكاد تتدهور ، ولم يكن هذا المنحدر إلا الامعان في الجاملة الى اقصى حد ، فقال كوستال في نفسه : « كم هي مفتقرة الى الإباء وعزة النفس ! » غير انه ما لبث ان استغرب قوله ، لأنه لم يجد فرقاً بين الأباة وغير الاباة ، فهؤلاء يتصرفون كاولئك تماماً ، ولا وجود للاباة قطعاً ، انما هناك اناس يتحدثون عن إبائهم ، وآخرون لا يبالون بهذا الشيء .

زعم كوستال انه يلتمس مهلة للتفكير . اما الحقيقة فهي انه كان يريد استشارة محاميه في امر لم يجرؤ على بحثه مع السيدة دندبو ، وهو يلخص بالسؤال التالي : كيف يستطيع الرجل ان يطلّق اذا كانت زوجته ترفض الطلاق وليس عليها مأخذ ؟

استأثر هذا السؤال باهتمامه لأن محبتـه لسولانج ظلت قوية في نفسه خلال ذلك الحديث ، واستطاعت ان تقاوم دفاع امها عنها ، فقد عجز هذا الدفاع عن زحزحتها ، فاحتفظت بالمركز الذي تحتله في قلب من تؤثر .

ولما خرج كوستال واصبح في الشارع ، راح يفكر قائلاً في نفسه : « ان ما يجري ليس عادياً . أتراني في منام؟ يا لها من مغامرة ! » وخيّل اليه كأنه في قطار ، صعد اليه ليودع صديقاً ، فتحرك القطار وانطلق به لا يدري الى اين ...

كان المحامي ديبوشيه رجلاً كريهاً في نظر النساء. والنساء يكرهن كل رجل رزين، او وقور، او جدّي في تصرفاته.

كان الاستاذ ديبوشيه بيروني المذهب[1]، يفرض على نفسه جهوداً مرهقةً ليبدو رزيناً. وكان لا بد له من هذه الجهود الضرورية في قصر العدل، فاذا تخلّى عنها لحظةً واحدة، اصبح اضحوكة سائغة للجميع. واذا كانت هذه الرزانة متعبة، فان الاستاذ كان يستعيض عن تعبه بما يجد امام المحاكم من لذات عارمة وفريدة، اذ يتسنى له ان يحمرّ حنقاً، ويهدر غاضباً، ويختنق من شدة الغيظ، ويمسح بمحرمته صبيب عرقه، ويشتم ويبكي، او يرقص رقصة الطير الذبيح، ليثبت براءة امرىء اعترف بجريمتـه، ويشوّه الوقائع، ويحرّف النصوص، ويهزأ بالضحية البريئة، ويورد الفكاهات ساخراً باقوال الشهود، وهو يرى الناس من حوله يوافقون على اقواله، ويدعمون آراءه، فيلوّح بردفيه الضخمين، كأنه يرفع راية النصر.

ان امجاد هـذا الموقف تستحق بعض التضحيات، خصوصاً اذا كان صاحبها رجلاً تقتصر فلسفته في الحياة على الهزء والسخرية.

وكان ديبوشيه اصلع، املط، غليظ الوجنتين[2] غلاظةً متدلّية يتجلّى فيها النبل. على عينيه نظارتان مذهبتان، وفي ملامحه سيماء مفكر لا يفكر

---

١ - مذهب فلسفي يقول صاحبه بيرّون بوجوب الارتياب، والبيروني يشك او يتظاهر بانه يشك بكل شيء.

٢ - استعمل المؤلف لفظة Bajoues للدلالة على الوجنتين، وهي لا تستعمل إلا لوجنتي العجل والخنزير.

مطلقاً . وكانت هذه خيانة كبرى للمذهب البيروني الذي يُقدر باكثر من هذه المظاهر .

والخلاصة ، ان مظهر الاستاذ كان يفرض الاحترام ، إلا اذا كان يقوم بنزهة في شارع قصر العدل ، بين حافلات القطار الكهربائي ، ويرتدي ثوباً اسود ، وفي عنقه ربطة غليظة كالمحارم التي تربط في اعناق الاطفال ليسيل عليها لعابهم ، ناهيك بحركاته التمثيلية .

لم يكن ديبوشيه محبوباً ، لأنه كان يملك مبلغاً كبيراً من المال ، ويتحيّن كل فرصة لاظهار ثرائه . وكل من يملك مالاً يصبح قرداً مفترساً في نظر من لا يملك شيئاً .

ذهب كوستال الى هذا الاستاذ وقال له :

– اني اضع رواية بطلها احمق جرّه غباؤه في طريق الزواج ، رحمةً منه للفتاة التي تحبه . وبعد فترة من الزمن ، تبيّن له ان الزواج يُضرّ بما يسميه : « نتاجه الادبي » . وبطل روايتي احمق من نوع ارباب القلم . وهو اليوم يريد الطلاق . غير ان الفتاة التي اقترن بها غريبة الاطوار ، لا تريد مطلقاً ان تخونه ، وليس له عليها اقل مأخذ ، وهي ترفض الطلاق .

اجاب المحامي :

– لا أمل لأبلهك الاديب بالطلاق ، اذا كانت المرأة ترفضه ، وهي بريئة من كل ذنب . فالطلاق مستحيل في مثل هذه الحال . يستطيع كل من الزوجين ان يعيش بعيداً عن الآخر ، إلا انهما يبقيان زوجين .

– مهلاً ، يا استاذ ديبوشيه ! لا تحاول اقناعي بان في القوانين اشياء محظورة لا يمكن تجاوزها في فرنسا ! ما جئت استشيرك لتسدّ في وجهي الطريق . أخبرني ابـ... ابن عمي ، وهو ما يزال صبياً ، ان احد رفقائه سأله يوماً : « ما الفائدة من الأبوين ؟ » فاجابه بلا تردد : « خلقهما الله لنكذب عليهما » . وانا بدوري اقول لك : « ما الفائدة من القوانين اذا

كان الاذكياء الخبثاء لا يستطيعون اظهار براعتهم في تجاوزها والتلاعب بها ؟ »

– طبعاً ، لا يعدم المرء وسيلة خيالية ، ما دام صاحبك بطلا خيالياً لرواية ... فالطلاق ، والحالة هذه ، ممكن . يكفي ان يقدم الزوج للمحكمة وثيقة تثبت خيانة زوجته . واعني بالوثيقة رسالة تقول فيها المرأة لزوجها انها سئمت الحياة معه ، ولا تستطيع الاستمرار في هذا الشقاء . ففي هذا القول ما يعني انها تحب سواه . وفي وسع أبلهك ان يطلب الى فتاته ، ايامَ الخطبة ، ان توجّه اليه رسالة من هذا النوع ، فيحتفظ بها ، ولا يبقى عليه إلا ان يكتب عليها عنوانه ، ويضعها في صندوق البريد ، عندما يزمع على الطلاق . ولكن ، أمن المعقول ان توافق خطيبة على كتابة رسالة من هذا الطراز ؟ لكي توافق ، يجب ان تكون متهالكة على الزواج حتى الجنون . واصارحك باني لا استطيع ان اكون كبير الثقة باخلاق فتاة تقدم على مثل هذا العمل . لكن ربما كانت بطلة روايتك هكذا .

قال كوستال في نفسه : « مهما يكن من الأمر ، فلا بد لها من كتابة هذه الرسالة ، سواء أكان الحافز حباً وفياً ، ام رغبة مجنونة في الزواج . لا أظنها ترفض هذا السجود الجديد لمشيئتي . ما الذي سيتبادر الى ذهنها ؟ ستقول اني افضّل مصيري الادبي عليها . لا بأس ! فبهذه الطريقة ، اضعها من جديد امام الحقيقة الراهنة . وهذا يعني اني تصرفت تصرفاً شريفاً » .

ما إن وصل كوستال الى هذا الحدّ من تفكيره حتى قال للاستاذ :

– آمنت بان طريقتك مظلة واقية ، لكن أتراها تنفتح في اليوم المصيب ؟

– طبعاً ، يجب ان تنفتح .

— اذاً ، فتكرم بإملاء الرسالة علـيّ . انتقِ الفاظك . اود ان يهبط أبلهي سالماً معافى في المروج الفاتنـة ... مروج الحرية المستردّة بعـد ضيـاع .

— خذ قلمك . اني أمـلي عليك : « يا صديقي ... » لا ، دعنـا من « يا صديقي » . ولندخل فوراً في صميم الموضوع : « اذا كنتُ اكتب اليك هذه الرسالة ، فلأني في حضورك ...

— انهار وافقد الوعي ورباطة الجأش » . حسناً ، هذه اللهجة هي اللازمة . وجدتُها فوراً . دع لي هنـا سطراً ابيض لاملأه بكيت وكذا حسب الاحوال . وبعد ؟

— « يجب ان يعترف بالواقع ، فقد اسفرت تجربتنا عن اخفاق تام . لا انكر أنك انذرتني مراراً باني لا احتل في حياتك إلا المرتبة الثانيـة بعـد صنيعك الادبي . غير اني ما ادركت ، آنذاك ، نتيجة خنوعي واستسلامي . هـذا ما اراه اليوم بوضوح . اني لا شيء في حياتك ... و... و...

— ... ومهما تحاول اخفـاء الحقيقـة بمظـاهر السخاء الذي عرفتـه فيك ... »

عفواً ، يا استاذ ، قاطعتك بهذه العبارة لاني معتاد على كتابة مقالات للصحف اقرظ بها نفسي ، فتأتيني نعوت الثناء والاطراء عفواً ، على الرغم من ارادتي . هذه خلـّة لا أقوى عليها ...

ولنعد الآن الى نص الرسالة :

« انك تجود بهذا السخاء ، ولكنك عصبي المزاج ، فيك قسوة عفويـة تجرحني في الصميم » .

وهنا يجب ان اضع غلطة امـلاء ، وان اكتب « السميم » عوضاً عن « الصميم » ، لأن فتاتي تنسى اصول اللغة وهي في غمر من غيوم هيامها . ومن فضائل بطلة روايتي انها كثيرة الاخطاء في الكتابة .

قال ديبوشيه :

– لنبدأ الآن سطراً جديداً .

فاجاب كوستال بحرارة :

– لا ، ففي عواصف الهيام الطاغي لا يبدأ الكاتب سطراً جديداً .

واستطرد الاستاذ املاءه قائلاً :

– « اصارحك باني لم اعد اطيق هذه الحياة التي اضطر فيها الى التخلي عن كوني امرأة ، لاكون زوجة كاتب » .

فاعترض كوستال قائلاً :

– هذه العبارة رائعة اكثر من اللزوم ، تجعل القارىء يدرك اني كاتبها . لكن ما عليك ، سأبسّطها واجعلها في صيغة مصطربة . ويجب الآن ان تشتم الفتاة صاحبها قليلاً . فما رأيك في ما يلي : « كنتَ تفكر دائماً بان وجودي معك سيصبح ثقيلاً عليك يوماً ما ؛ امـا انا فلم يخطر في بالي قط ان وجودك معي سيصبح ثقيلاً عليّ كما هو الآن ... »

– ولنكتب الآن الجملة الرئيسة : « ... ولم يخطر في بالي انه سيأتي يوم افكر فيـه بان وجـود شخص آخر معي يمكن ان يجعلني سعيدة . لا تجب عن هذه الرسالة ، فكل قصدي منها ان لا تُفاجأ بما لا تنتظر اذا تمّ ما تشتهي » .

وسأل كوستال :

– أتظنها كافية هكذا ؟

ونظر الى الرسالة كما ينظر راكب الطائرة الى مظلته الواقيـة المطوية في كيسها .

فاجاب الاستاذ :

– إن لم تنجح بهذه الطريقة ، فلا يبقى سبيل الى النجاح .

قال كوستال :

– مهلاً ، يجب ان أرش على هذه الرسالة شذرات من عبقرية حواء .

وراح يضع ثلاث نقـاط وعلامات تعجب في نهـاية اكـثر الجمـل ، وختم الجملة الاخيرة بعبارة : « وهكذا ! »

فضحك ديبوشيه قائلاً :

– لك التهنئة على « وهكذا ! »

فاذا كانت المرأة لا تحسن التعبير عن فكرها ، او لا تجد ما تقول ، كتبت : « وهكذا ! » ، ففي هذه الـ « وهكذا ! » اعماق لا يُسبر لها غور .

– اسمح لي بملاحظة ، ففي اعتقادي ان المرأة تكتب : « وهكذا ! » كلما ارادت المفاخرة بانها عبّرت تعبيراً واضحاً عمـا يجول في خاطرها او يخالج شعورهـا . ان « وهكذا » صيحة انتصار شبيهة بـ « بق ... بق ... بق ... » الدجاجة عندما تبيض ، وهي ايضاً نوع من التحدي السخيف الذي يعني : « هذا ما اراه ، آه ! خذ علماً به ، لم يبق لي ما اقول . قلت كل شيء » .

وجرى بينهما نقاش حادّ في هذا الموضوع ، إلا انهما اتفقا على ان « وهكذا » كانت مثقلة بكل « اسرار الجنس التي لا تُدْرَك اعماقهـا . فالبسمة الساحرة ، الخ ... الخ ... والانثى الخـالدة ، الخ ... الخ ... كانتا تتألقان تألقاً معبوداً ، الخ ... الخ ... على وجه « هكذا ! »

وقبل ان يفترقا ، تبادلا عبارات الاعجاب بتفوقهما الوهمي او الحقيقي ، فقال كوستال :

– واذاً ، فانت ايضاً لا تصدق ان المرأة سر عميق لا يدرك له قرار ؟ يا للغرابة ! فجميع الرجال يقولون هـذا القول عندما يتحدثون فيما بينهم . امـا اذا ارادوا أن يكتبوا شيئـاً في المرأة ، او ان يتحدثوا عنهـا امـام جمهرة من النـاس ، اعـني اذا اضطروا الى التعبـير عـن رأيهم تعبـيراً رسميـاً ، فـتراهم ينظمون الأناشيد في « حواء الغارقـة في الاسرار » . واعتقـد انهم ، في مثـل هـذه الحـال ، يتصرفون تصرف اشخاص اجتماعيين ، ويقومون ، على غـير علـمٍ منهم ، بـدور المنـادي

على بضاعـة للبيع ، او الخطيب الداعي الى التطوع في الجيش . وهـذا كـله في سبيل الجنس البشري . فجنسنا بحاجة الى اعتبـار المرأة اعظم مما هي . الى اين ينتهي بنا المطاف اذا أصرّ الرجل على ان لا يرى في المرأة إلا حقيقتها ؟ اعتقد ان الرجل لا يشتهي المرأة لأنه يراها جميلة ، بل يعلن انها جميلة ليبرر شوقه اليها ؛ وهو لا يحلم بهـا لانها غارقـة في الاسرار ، بل يزعم انها غارقة في الاسرار ليبرر حلمه بهـا ؛ ولا يأتيـه هذا الحلم من الطبيعة ، بل من المجتمع الذي يلجأ الى كل وسيلة للمحافظة على الجنس البشري .

اجاب ديبوشيه :

— منذ ثلاثين عاماً ، وانا ارى في هذا المكتب نساء ، ونساء يتخبطن في الأزمات . واصارحك بان الرجل البصـير يستطيع ان يقرأ اعماق كل امرأة كأنها كتاب مفتوح امام عينيه . انه يرى جميع مشاعرها تتحرك في داخلها كما يرى الاسماك تسبح في وعاء من زجاج شفّـاف . اما المرأة ، فمها كانت ثاقبـة النظر ، ودارت حول الرجل ، ونظرت اليـه خلسةً ، وتنصتت على ابوابـه ، يظـل بالنسبـة اليهـا لغزاً مستعصيـاً . فمها يكن تصوير اخلاق النساء ضعيفـاً وسطحيـاً في الروايات الـتي يؤلفهـا الرجال ، فهـو افضـل بكثير من التصوير السخيف لأخـلاق الرجال في الكتب التي تدبجها اقلام النساء .

وامعن الرجلان طويلاً في تبادل وجهات النظر حول هذا الموضوع ، إلا اننـا نكتفي بهـذا القدر من آرائها . ومها يكن من الأمر ، وسواء أكانت للمرأة اسرار ام لا ، فلا ريب في ان للرجل سره الخاص . وسر الرجل هو ان المرأة تستطيع ان تحبه .

وبعد ربع ساعة ، كان كوستال في منزله ، فاذا بـه ينتقل فجأة من جوّ خطته القـذرة الى جوّ من الحب الصـافي ، من المكر الباحث عـن الذريعة القانونية الى امرأة تهيم به ، وكل ما فيها يعبّر عن هذا الهيام .

قال لها :

– استشرت المحامي ، فقال لي : « ثمّة وسيلة تمكّن بطلك من الخلاص اذا رأى ان تجربة الزواج لا توافقه » . فقد اوهمته اني اكتب رواية ، واود ان اجد طريقة قانونية لانقاذ بطلها من الزواج . وقال المحامي ايضاً : « والشرط الاساسي لنجاح هذه الطريقة ، ان تحب الفتاة صاحبها حباً عميقاً ، وان تثق به ثقةً مطلقة ، وان تكون فتاةً مثالية ، سامية الخلق كعذارى العصور القديمة ، وكبطلات كورناي[1] . فهل بطلة روايتك من هذا النوع ؟ »

اجبته : « ليست فتاة روايتي كبطلات كورناي ، لكن ليس في الحياة عمل عظيم وكريم إلا وهي مستعدة للقيام به » .

قال : « اذاً ، فاليك بالطريقة القانونية الوحيدة » .

وشرح لها القضية ، ثم اطلعها على الرسالة .

واحس بالخجل يستولي عليه . ولما كان جالساً بالقرب من سولانج ، ابعد مقعده قليلاً عنها كيلا ترى وجهه في تلك اللحظة الحرجة ، او كيلا يرى وجهها . إلا انها استدارت صوبه مبتسمة وقالت :

– فهمت ما تقصد ، هذا شيء « مردود » .

– وما هو الشيء المردود ؟

– عندما تشتري شيئاً من احد المتاجر الكبيرة وترى بعد حين انه لا يوافقك ، ففي وسعك ان ترده ، وهذا هو الشيء المردود .

---

١ – بيار كورناي (١٦٠٦ – ١٦٨٤) شاعر فرنسي وضع تمثيليات خالدة اشهرها : « السيد » ، و « هوراس » ، و « سينّا » ، و « بوليوكت » . امتاز بنقل عقدة الرواية من الحركات المسرحية الى الصراع الداخلي بين الشهوة والواجب ، فكانت تمثيلياته مثالاً في عظمة النفس ، والتضحية ، والشعور الوطني النبيل ، والبطولة . وقد اصبح عدد كبير من اشعاره امثالاً تضرب في الاباء والمروءة والبذل وسمو الاخلاق .

فتأثر تأثراً عميقاً اذ رآها تواجه طريقته الجارحة بهذا اللين وهذه البساطة ، وقال لها :

— انك فتاة رائعة بعظمة نفسك . اما انا فقد سمّيت هذه الطريقة : « مظلة واقية » . ولنقل جدلاً انها « مردود ومظلة » . واني اسألك الآن : أتحبينني كفاية ؟ أتكونين حقاً بطلة كورنيلية تستطيع ان تكتب اليّ هذه الرسالة ؟

فاجابت : « نعم » ، بصوتها المتزن الرصين .

قال لها :

— شكراً . انك ، ولا ريب ، فتاة مطيعة . وهكذا احب ان يكون الناس . وهكذا احب ان تكوني دائماً . احب ان تكوني لي كالوشاح للعرب . والوشاح نوع من الثياب يستطيع صاحبه ان يطويه كما يشاء ، وان يعمل به ما يشاء ، فهو تارة عصبة عنق ، وطوراً قبعة ، وحيناً عرمة ، وحيناً حبلة ، او لثام ، او مصفاة للماء ، او كيس ، او مذبّة ، او زنار ، او سراويل ، او مخدّة . لم ارفعك اليّ لتكوني شيئاً آخر غير ذاتي . اريد ان تكوني انا ، ولا شيء آخر ، كيلا ارى نفسي مضطراً الى الاحتراز منك ، وكيلا اسأمك ابداً .

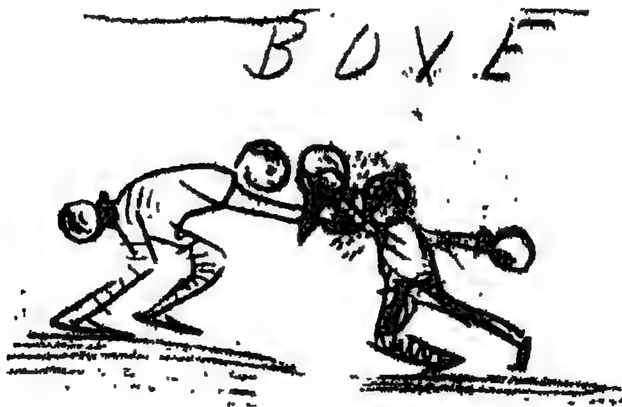
وكانت مسودّة الرسالة على الطاولة ، فراح كوستال يقول في نفسه : « يجب ان تكتبها حالاً قبل ان يتسع لها مجال للتفكير » . إلا انه تجرأ على ان يخطو الخطوة الاولى ، ولم يجسر على الثانية فوراً ، لأنه كان قد بذل كل ما لديه من طاقة الوقاحة لمدة ربع الساعة . ولا ريب في انه كان قادراً على استعادة هذه الطاقة ، فهي تتجدد فيه تلقائياً ، غير انها تتطلب بعض الوقت كالقوة التي يفقدها الرجل حيناً ثم تعود اليه .

وفكّر بانه لم يكن لديه إلا اوراقه الخاصة ، اوراق الآلة الكاتبة التي يستعملها لوضع مؤلفاته ، ومن السهل على المحكمة ان تعرف مصدر هذه الاوراق . فلا بد لسولانج من ان تكتب الرسالة على ورقة من

اوراقها هي، او على ورقة من اوراق الرسائل التي تستعملها النساء . فانتقل بالحديث الى موضوعات اخرى وهو يخاطب نفسه قائلاً : « أتراها تكتب هذه الرسالة حباً بي ، ام رغبة منها في الزواج كيفما كان الأمر ؟ أتراها عاشقة ، ام طموحة ؟ سواء عندي أكانت هذه او تلك ، فلن اتعب نفسي بالبحث عما يعتلج في نفوس الناس . اذا كان حافزها الحب فهو جدير بالاعجاب ، وفيه ما يدفعني الى التصميم على الزواج ؛ اما اذا كان الطموح فهي مسخ رهيب ، ومن المهم ان يعيش المرء مع مسخ رهيب ، ومن المهم ان يعيش المرء مع مسخ . »

ولما وقف الى جانبها ليودعها على باب منزله ، قال لها :

— ان قضيتك تسير سيراً حسناً .



مذكرات سكوستال

٢٣ آب . — اني لفي وضع جهنمي حقاً منــذ خمسة اسابيع ، فانا لا احبها كفاية لاخطو الخطوة الحاسمة ، واحبها كفاية لأتألم من كوني لا اخطو هذه الخطوة . قلت لها امس ، لما ودعتها : « ان قضيتك تسير سيراً حسناً » . اما اليوم لما كدت استيقظ من نومي حتى احسست ان كل شيء قد تبدّل . منذ خمسة اسابيع فقدت حرية الفكر ، ولم اعــد استطيب شيئاً . فحياتي مبددة ومسدودة معاً . ففي كل صباح اراني على استعداد جديــد ، وعرضــة لأتفه المؤثرات . اذا ذهبت الى النافذة ، ورأيت في الشارع وجهاً جميلاً ، أصيح: «كيف اعدل عن مطاردة الصغيرات الحسان ؟ لا ، انه لأمر في منتهى الفظاعة ! »

قرأت في احدى الصحف خبراً خلاصتــه ان شاباً قروياً وقف مع عروسه امام شيخ القرية لعقد زواجه ، فلما طرح عليه السؤال المشؤوم : « أتريد فلانة زوجة لك ؟ » اجاب : « لا ! » وعلـّقت الصحيفة على هذا الخبر بقولها : « وهكذا نجا الشاب من الوقوع في خطإ لا يمكن اصلاحه . فادركتُ عندئذٍ عظمة الحكمة الانسانية التي تعتبر الزواج خطيئة غير قابلة الاصلاح . وها انا اتخذ موقف الرفض ، واقول : « لا ! »

وبعد لحظة تذكرت كلمة لطيفة قالتها لي هي ، او دميتها المخملية ، فرجعت الى القبول ، وكدت اقول : « نعم ! » ان هــذا الترجّح الدائم بين لا ونعم يحطمني . وموقفي من الزواج يتبدّل كلياً بين دقيقة واخرى .

تارة اخافها ، اخاف امها وذويها جميعاً ، اخاف هذا التيار المريع الذي يجرفني ؛ وتارةً اخرى اشعر بالطمأنينة والارتياح ، وانتفخ كالشراع للريح المؤاتية ، اذ يتبادر الى ذهني اني استطيع ان اجعلها سعيدة . كانت لي خليلات لا مأرب لهن إلا ان يسعدنني . فاذا تزوجت اكون قد اخذت امرأة لاسعدها . واحدة بواحدة ، ولكلٍّ منّا دوره في هذه الحياة .

في اللحظة التي اخط فيها هذه الكلمات ، اود ان ارحل من غير ان اراها ، اود ان اسافر الى المغرب لتمضية بضعة اشهر هناك مع صديقتي خديجة . وعندما اعود اجعل سولانج خليلتي لا اكثر .

اني في غمرة من التردد والارتباك تتوالى فيها رغباتي المتناقضة بسرعة مذهلة ، فلا اتمكن من التعبير عنها .

ومهما يكن قراري الاخير ، فقد حلّ عليّ الشقاء ، والى أمدٍ طويل . اذا اقترنت بها كان هذا الشقاء حقيقة مطلقة ، ؟ واذا لم اقترن بها كانت حريتي التي استعدتها مجالاً لتبكيت الضمير لاني عذبتها ، ومجالاً للندم كلما فكرت بانه كان من المحتمل ان اجد معها من السعادة ما لا اجده الآن ، ومجالاً للقلق ما دامت فتاة ، وما دام يخطر في بالي ان فرصة الزواج لم تفت بعد ...

القطار يحملني وينطلق بي ... انه مزيج من المخاوف والرغبات المغرية . كذلك كان القطار الذي حملني للمرة الاولى الى جبهة القتال .

وهذه المأساة هي اكثر المآسي بورجوازيةً . اذا اتخذت منها موضوعاً لرواية ، كانت روايتي تافهة ، سخيفة ، مبتذلة ، لا انطلاق فيها ، ولا ابداع . ومن البديهي ان تكون من هذا النوع ، لأن ميزة الزواج الاساسية هي انه دنس .

مررت بازمة المراهقة ، وازمة الحرب (أكان لزاماً عليّ ان احسن التصرف في هذه الحرب ؟) ، وازمة التعطش الى السعادة ، وازمة وجوب القيام بعملي بينما كنت اود ان احيا ، وان احيا فقط . فكانت ازماتي

كلها شريفة ومحترمة نوعاً ما . اما ازمتي هذه فانها الغباء المطبق . اجل ، انا غبي ، ولا ريب . إلا ان هذه المأساة لا تخلو من النبل ، لاني اريد انقاذ نتاجي الادبي بهذه التضحية ، ولأن آلامي ناجمة عن اني استفظع تعذيب سولانج . إلا ان هذا النبل لا يُبعد الازمة عن الدنس . فواقع « الزواج » يفسد كل شيء .

٢٤ آب . — اود ان تنسيني ، واود ان لا تنسيني . حين تخبو محبتك اشعر بفقدانها ؛ وحين تبذلين لي العطف والحنان ، احسبك مفرضة تبيّتين غاية . إن كنتِ رصينة اتهمتك بالفتور ، وإن كنت محتدمة غراماً قلتُ انك متعبة حتى الارهاق .

انا عامل العذاب فيا بيننا ، ولم يكن هـذا العامل قبل إلا انا .

اني اود ان لا اكون إلا العشب القصير الذي تمر الابقار عليه ولا ترعاه .

من عادة النــاس ان يمرضوا يوم الاحــد ، اذ تكون الصيدليات مقفلة والاطباء في نزهة . وكثيرون منهم يحتاجون الى نصيحة ضرورية متعلقة باعمــالهم في شهر آب ، اذ تكون باريس خاليــة من سكانهــا . وكم كان شهر آب فظيعاً عــام ١٩٢٧ ! ففي حديقــة الحيوانات – وهي من عاهــات فرنسا الخجلة – كان الدب يروح ويجيء الى اليمين والى اليسار لا يتوقف لحظة ، وكان الاسد واقفاً في مكانه ، خامــد العينين ، يترجّح على قائمتيه الاماميتين كتلك الحيوانات التي ارهقها الحجر الطويل ، ورسخت فيها فكرة الفرار ، فاصبحت مريضة الاعصاب ، تتجلى فيهــا الكآبة . كذلك كان كوستال سجين قفص هو حب لا يشعر به شعوراً عميقاً ، فراح يتقلّب في حيرته من جانب الى آخر .

ولنقل بصراحــة ان بطلنــا ، الذي كان فخوراً بصلابة عوده وشدة مراســه ، اصبح مخلوقاً ضعيفــاً يحتــاج الى نصيحة ، ويحتــاج الى من يفرض عليه تأثيره .

هذا ما فعلته به فكرة الزواج !

ولكن ، لماذا يلقي تبعة عذابه على باريس الخاليــة من النــاس ، اذا كان لا يجد فيها صيفاً الذين يحتاج اليهم ؟ ما عليه إلا ان يتهم كبرياءه . فلو كانت باريس مكتظة بالناس ، لما وجد فيها من يحتاج اليهم .

أيعرض وضعه السخيف المضحك لصديق ، ام لأحد الاقرباء ؟ هــذا ما لا يستطيع احتماله . انه لا يطيق ان يراه احد في هذه الحال ، وهو الذي كان دائماً قوياً ، رابط الجأش ، وسيد مصيره . وهو في عجرفتــه

يفضّل ارتكاب حماقة غير قابلة الاصلاح على تدخل احد في شؤونه الخاصة ، ويفضل الوقوع في هذه الحماقة على اجتنابها بنصيحة يسديها اليه رجل موثوق به .

لم يكن زواجه ممكناً إلا اذا حدث بغتةً ، وعُقد بسرعة كما يشرب المريض الدواء المسهل .

إلا انه في نهاية الشهر بدأ يضعف ، واحس بحاجة ملحّة الى التحدث عما به . ولم يعد يكتفي بالذهاب الى الاستاذ ديبوشيه ليقول له : « بطل احد رواياتي كان ... وكذا ... » ، بل اراد البوح بحقيقته لرجل مجرّب خبير . اراد ان يقول بلا مواربة : « اليك بالخبر اليقين ، اني مقبل على الزواج في احوال هي كيت ، وكيت ... فبمَ تنصحني ؟ »

وكما يعترف المؤمنون بخطاياهم للكاهن متكلين على سرية الاعتراف ، وعلى اعتقادهم ان هذا الكاهن رجل خير ، ونجدة ، ومحبة ، قال كوستال في نفسه كذلك يجب عليه ان يعترف هو بكل شيء للاستاذ ديبوشيه المقيّد بسر مهنته ، والمعتاد بفضل هذه المهنة على الرفق بالمنكوبين ومعالجة قضاياهم . وبعد صراع بينه وبين نفسه ، حاول الاتصال هاتفياً بالمحامي ، واغتبط لما قيل له ان ديبوشيه غائب ، ولن يعود قبل الساعة الواحدة بعد الظهر ، لأنه وجد فسحة ساعتين يرتاح خلالهما من همّ الاعتراف المقيت . وعاد الساعة الواحدة الى التلفون فعلم ان ديبوشيه سافر لتمضية عطلته الصيفية ، ولن يعود قبل ثلاثة اسابيع .

واطبقت عليه العزلة من جديد . فكيف السبيل الى تحطيم هذه السلاسل التي تكبله ؟ واي خطر عليه من الزواج ، ما دام رجل القانون قد أكد له انه يستطيع الحصول على الطلاق بـ « الرسالة المظلة الواقية » ؟ لن يطول عذابه اكثر من بضعة اشهر .

وخطر في باله الكاتب العدل ، فاتصل به هاتفياً ، واتفق معه على الذهاب اليه الساعة الخامسة . ثم فكر بان هذا الكاتب العدل يعرفه

ويهتم بقضايا عائلته ، فاذا اطلع على حكايــة الرسالة المظلة الواقيــة راح ينشرها بين الناس .

وهاله هذا الامر ، فاتصل بالكاتب العدل من جديد وألغى الموعد .

ثم تذكر موظفاً كان قد ساعده في قضية متعلقة بشؤون التأليف والنشر ، وهو لا يعرف احداً من اسرة كوستال ، فاتصل به هاتفياً ، وعلم انه في عطلته الصيفية ، فجعل يزمجر غاضباً : « انه في عطلة طوال ايام السنة ! » فقال له مخاطبه ان موظفاً آخر لدى الكاتب العدل مستعد لاستقباله ، فاتفق معه على موعد .

من التقاليد المرعيــة في فرنسا ان يكون مكتب الكاتب العدل او احد موظفيه قذراً يكسوه الغبار ، للدلالة على انــه رصين ، جليل ، لا يهتم بالمظاهر ، كالهيكل القائم في كوخ حقير . ولم يكن مكتب الاستاذ « س » شاذاً عن هــذه القاعدة . فجلس كوستال ينتظر دوره وهو يشع تواضعاً . جلس في مقعد من الخيزران ما هو إلا حطام لفظه احد فنادق الدرجة الثالثة ، وقد ارهقته اجيال متواليــة من اقفية معلمات المدارس ، فتقعّر وتهرّأ .

اما الموظف الذي كان كوستال على موعد معه فكان رجلاً في الثامنة والخمسين ، يقول للنساء انه في الرابعة والخمسين . وكان نذلاً خسيساً من رأسه الى اخمص قدميه ، ولنقل من رأسه الى سرته ، لانه حين يجلس الى مكتبه لا يظهر منه إلا هذا المقدار . وكان شعره مصبوغاً صباغاً مفضوحاً صارخــاً ، مجعداً تجعيداً مصطنعاً ، مفروقاً في منتصف الرأس فرقاً مستقيماً مضبوطاً . امــا شارباه فكانا مصبوغين ايضاً ، ومعقوفين صعداً على الطراز القديم . وكانت عيناه تنتقلان ، حسب تقلب الاحوال ، من الاستبداد الصغير الى الخوف ، وراء نظارتين مطوّقتين بالحديد ، وهما في وضع معوج ازور . وكان انفــه في منتهى القبح ، مستدير الطرف ، ضخماً وخانساً ، وفمه اشد قبحاً ، مشوّه الجانبين والاطراف ، لامعاً ،

بوّاساً ، مصّاصاً ، لحاساً ، ومعدّاً للسرطـان بعد ثلاث سنوات ، تتدلى منه بقية سيكارة خمدت نارها .

وكان لحم عنقــه مترهّلاً على طوق قميصه المصنوع من السلـّولوئيد المطوي الزوايا ؛ وفي ذقنه غمازات ، يا عزيزتي ! وفي عقدة رباط عنقــه دبوس . وكان يرتدي صدرتين في شهر آب . يبدو متذمراً برماً ، ويلقي على الناس نظرة جانبية كلها لؤم ونفاق . كان مثال الذل والزلفى امام الرؤساء ، وعنوان العنف والشراسة مع الصغار الضعفاء . وكان من روّاد المطاعم الرخيصة حيث يضع الزبون حبتي البندق الباقيتين من حصته في الطعام في جيبه كيلا يترك على طاولته شيئاً ، ويداعب الخادمة مداعبة وقحة حتى اذا أبت مسايرته في سفالته سعى في طردها من العمل .

وجمــلة القول كان مظهره مظهر نائب رئيس دائرة في وزارة خاليــة من الظرف والاناقة .

ألقى عليــه كوستال محاضرة مشوّشة عن بطل روايته ، والرسالة المظللة الواقية ، فقهقه قائلاً :

– هذه الرسالة التي املاها عليك صديقك المحامي وهمٌ باطل . انهـا تضر ببطلك ، ولا تعود عليه بأقــل فائــدة . فــاذا كانت المرأة لا تريد الطلاق بادرت الى اظهــار الحقيقة ، وفضحت الغــاية التي وُضعت هــذه الرسالة لاجلها .

– ولكن ، ألا ترى المحكمة ان مزاعم المرأة تنافي الواقع الراهن ؟

– لن تجد المحكمة شيئاً منافيــاً للواقع ، لأن بطلك كاتب ومؤلف يعرف اشخاص رواياته . وعلى كل حال ، فلا بد لهذه الرسالة من اثارة الشكوك . ومتى وقع الشك تبـادر المحكمــة الى فتح تحقيق ، والقيــام بتحريات ، فيتبين لها ان المرأة بريئــة من علاقتهــا بالعشيق الملمح اليــه ، وان هذه المحاولة مدبرة لغاية مبيتة . فتعتبر هذه الرسالة عديمــة القيمــة لبعدها عــن كرم الاخلاق ، وترفض الطلاق ، لا لشيء إلا لتلقي درساً

بليغاً على الزوج الذي اراد ان يكون بعيد النظر اكثر من اللزوم . ومن يدري؟ فقد تلاحقه بتهمة تحقير القضاة ! لا ، يا سيدي ، مع كل احترامي لصديقك المحامي ، اصارحك بإن هذه الطريقة عديمة الجدوى . أسلّم معك بان المحامين يتمتعون بخيال واسع خصيب . اما ما تبقّى فمسألة فيها نظر.

ما كاد كوستال يسمع هذا القول حتى انهار يأساً ، وراح يقول في نفسه : « اذا كنتُ لا استطيع الخروج من هذا الزواج ، فلا بد من صرف النظر عنه » . ثم اخذ يحدق باشمئزاز عميق الى ذلك الموظف التافه ، مع انه لجأ اليه مسترشداً بمعرفته لانه « الرجل الذي يعلم » ، والرجل الذي يستطيع ، بكلمة : « لا » او كلمة : « نعم » ، ان يقرر مصير سولانج .

واحس كوستال انه ضعيف عاجز امام هذا الرجل ، وانه كئيب مسكين كوسام جمعية خيرية . لكنه حاول ان يشجع نفسه ، فجعل يتساءل : « أتراه مصيباً في ما يقول ؟ وهل أصدّقه واثق به ؟ »

وكانت لهذا الشك مبررات وجيهة ، لأن اقوال الموظف جاءت مشحونة باخطاء ومغالطات كثيرة لا حاجة بنا الى تعدادها . فلمع في نفس كوستال بارق من الأمل ، ثم خاطب نفسه قائلاً : « بعد استشارة الموظف في اقوال المحامي ، يجب ان استشير الكاتب العدل في اقوال موظفه ، ثم استشير احد المدعين العامين في اقوال الكاتب العدل . وعلى هذا ، فما يزال امامي متسع رحب للعمل » .

وكان كوستال في هذه المساعي شبيهاً بمريض ملهوف ، يقول له الدكتور « أ » انه مصاب بالسرطان ، فيلجأ الى الدكتور « ب » فيقول له انه في صحة تامة لا غبار عليها ، ثم يهرع الى البروفسو « ت » فيؤكد له ان لا أثر فيه للسرطان ، لكنه مصاب بالسلّ .

ومن المرجّح ان هذا الاختلاف في الآراء من عوامل انسجام الطبيعة : فلو وضعت في غرفتك ثلاثة موازين حرارة ، وفحصتها في

لحظة واحدة، لرأيت انها لا تدل كلها على درجة واحدة. « فالله وحده يعرف الحقيقة ».

وبعد هذه التأملات، حدث ما لم يكن في الحسبان: فكوستال المعتز بنفسه، المتوهم انه قادر على كل شيء، المعتد بقوة ارادته حتى الغرور، احس انه بحاجة الى ان تؤخذ قضيته بعين الاعتبار، والى يد تمد اليه لمساعدته، فارتضى الذل الذي لم يخطر قط في باله، وارتمى بكليته بين يدي ذلك الموظف، فقال له:

– اسمع، يا سيدي، افضّل ان اقول لك الحقيقة، فالرجل الذي ينوي الزواج ليس بطل رواية، ولا مخلوقاً خيالياً... انا طالب الزواج.

فانتزع الموظف نظارتيه عن عينيه وجعل يحدق الى كوستال بقوة وامعان، فاستطرد الكاتب قائلاً:

– لا ريب في ان طريقة الرسالة لم تعجبك لخلوها من الظرف والشهامة، لكني اصارحك بان الفتاة التي انوي الزواج بها كنز من الفضائل والمزايا الرفيعة، فلا تتردد في الموافقة على كتابة هذه الرسالة حباً بي، فالناس مدهشون بغرابة اطوارهم! وعيلة الفتاة من اكرم العيال واشرفها، فقد كان الجد مدعياً عاماً، وكان الأب احد مؤسسي الالعاب الاولمبية، ويحمل وسام جوقة الشرف من رتبة قومندور...

فانحنى الموظف قليلاً بكل احترام كأنه يقول لمخاطبه: « لك التهنئة. ارى ان كل شيء سيجري على ما يرام، في جو من الهناء والانسجام ».

ولم يستطع كوستال، كوستال القديم، كوستال الفاسق المستهتر، إلا ان يبتسم ساخراً في سرّه، على الرغم من الضيق الذي كان يشد عليه الخناق، لانه خلع على السيد دنديو وسام جوقة الشرف[1].

---

١ – كان السيد دنديو شديد التمسك بمبدإ يعتبره مقدساً هو رفض وسام جوقة الشرف. راجع الحلقة «اراثة بالنساء». – للمؤلف.

وتابع كوستال حديثه قائلاً :

— ارجو ان تأخذ بعين الاعتبار أن لا رغبة لي مطلقاً في الزواج ، ولا اريد من هذه المغامرة إلا ارضاء الفتاة التي حدثتك عنها .

ولم يحاول تبرير مجازفته بشيء من الاسباب المخففة ، لأن سخافة الزواج في غنى عن الشرح والتفسير ، ولا مبرر لها مطلقاً . فاجاب الموظف مشدّداً على كل كلمة يتلفظ بها ، ومتعمداً الصراحة في ما يقول :

— انتبه ! اقول لك : « إن .. تـ .. بـه ! » لاني اعتبر نفسي مخلاً بالواجب إن لم ادعُك الى الحذر الشديد من زواج يُعقد في مثل هذه الاحوال .

— إيه ! انك تلبّه متبصراً حريصاً ... ولست بحاجة الى من يقنعني بأن الزواج رديء ودنس . فهذا ما اقوله دائماً للفتاة ، وما يجعل الرسالة التي نحن بصددها كبيرة الاهمية بالنسبة اليّ . ولا بد من اطلاعك على ان الفتاة مستعدة للتعهد علانية بقبول الطلاق — مهما تكن ذرائعه سخيفة — اذا تبين لها ان الحياة الزوجية لا تطاق .

— طبعاً ، جميع الفتيات يقطعن مثل هذا العهد قبل الزواج ، اما بعده ؟... أفتجهل فنون النساء في محافظتهن على ما يكتسبن بعد جهد طويل ؟

اجاب كوستال :

— ليست النساء شريرات الى هذا الحد .

وساءه ان يُقدم سواه على هجو المرأة كأن هذا الموضوع وقف عليه وحده .

واستطرد الموظف قائلاً :

— ألم تسمع بالمثل القديم القائل : « في الزواج الغلبة لمن يخدع اولاً » ؟ لا اعرف زواجاً واحداً لم يكن فيه احد الزوجين مخدوعاً . فادهى الشرور محتمل في هذا الموضوع . إلا ان المتزوجين يتسترون بمظاهر

التفاهم والوفاق .

فقال كوستال في نفسه : « يا له من وقح صفيق الوجه ! أتراني جئته لاسمع منه هذه الاقوال ، وهذا المثل المريع ، ام لأجد منه تشجيعاً على الزواج ؟ »

والقى نظرة على بنصر الموظف ، فرأى فيه خاتم زواج كالخاتم الذي في بنصر الاستاذ ديبوشيه ، فقال : « آه ! انهم جميعاً متزوجون ، ويتحدثون عن خبرة . ويكفي ان تنظر إليهم لتدرك انهم من الصنف المسخّر بطبيعته للزواج » .

وخاطب الموظف قائلاً :

— اذاً ، فلا فائدة من التدابير الاحتياطية ، ولا بد من الإبحار بلا زورق نجاة .

— ليس لاي حيطة جدوى اكيدة في هذا الشأن . وللتثبت من صحة ما اقول اطلعك على نص القانون المدني المتعلق بالزواج ...

— لا ! كل شيء ولا هذا . أخشى ان افقد صوابي اذا مددتُ أنفي الى القانون المدني ، لأني منذ الآن على طريق الجنون ، وهذا يكفي .

— ولا يغربنّ عن بالك ان الذين يعنون في اتخاذ الاحتياطات هم الذين تنطلي عليهم الخدعة قبل سواهم . على من يريد الزواج ان يعصب عينيه ، وان يغطس دون ان يلتفت الى الوراء .

— أتسمح بان ادوّن ما اعطيتني من المعلومات ؟

— بكل تأكيد ، اليك بورقة وقلم .

فكتب كوستال : « سافل نجس من رأسه الى قدميه . فرق شعره واضح مستقيم . عيناه تترجحان بين الاستبداد الدنيء والخوف . فمه بوّاس لحّاس . لحم عنقه مترهّل على طوقه القاسي » . وقرر ان يجعل هذه الصفات في احد اشخاص رواياته . ثم قال للموظف بلطف غير مصطنع :

— اعذرني، فقد اخذت الكثير من وقتك .

— لا بأس عليك ولا حرج . اكتب ما تريد على مهل .

فلفته كوستال بنظرة اخيرة وكتب :

« انف نجس . شكل مشؤوم لئيم . فم ُمعدّ للسرطان بعد ثلاث سنوات . وعمازتان في الذقن ... اواه ، يا عزيزتي ! »

ثم قال للموظف :

— شكراً ، فانت سيد اللطف والمعروف . أتراني عاملاً بنصائحك ؟ لا ادري . لكني اؤكد لك ان هذه الفترة التي امضيناها معاً لم تذهب سدىً بالنسبة اليّ .

واستأذن بالانصراف مردداً في سره : « على من يريد الزواج ان يعصب عينيه ، وان يغطس دون ان يلتفت الى وراء . هذا ما سميته الزواج البغتة » .

وما الفائدة من مراجعة رجال القانون ما دام كوستال لا يلجأ اليهم إلا بعد تصميمه على القيام بما يريد ؟

عبثاً جمّع الاسباب والذرائع ضد الزواج ، وعبثاً حاول ان يجد في وجه سولانج ، وفي جسمها او في اسلوبها بتعاطي الحب ، ما يثنيه عن هذه المغامرة ، فقد احس ان لا شيء يبعده عنها ، وانه تجاوز في تورطه جميع هذه الامور .

أجل ، بدا له انه تجاوز حتى مرحلة التصميم على الزواج ، وقد وصل الى هذه الحال بالانسياق اللاشعوري البطيء ، كما يجري كل شيء في الحياة ، كما تنشب الحرب ، فيهبُّ المرء مذعوراً ، لكنه لا يجد مفراً من القتال .

وفي ٣ ايلول كتب في مفكرته : « لا استطيع ان افهم لماذا اقترنُ بها » . وكتب في ٤ ايلول : « بقدر ما اسير على هذه الطريق اكتشف اسباباً جديدة تحتّم عليّ العدول عن الزواج . ومع ذلك فاني ازداد يقيناً باني

مُقدم على الاقتران بها » .

وفي اليوم التالي ، دعته السيدة دندي الى تناول الشاي عندها تمهيداً للحدث السعيد .



لما دخل كوستال قاعة الاستقبال في منزل دنديو ، فوجىء برائحة دخان التبغ تملأ الجو ، فتذكّر قول سولانج له ان امها تمعن في التدخين كلما عانت ازمة نفسية حادّة .

وما كاد يرى السيدة دنديو حتى بادرها قائلاً :

— يبدو لي ان الاوضاع مؤاتية لك . واذا افترضنا جدلاً ان « الشيء » سيتم ، فيجب ان نتوقعه في تشرين الاول المقبل .

ولم يكن يتلفظ قط بكلمة « زواج » في احاديثه مع السيدة دنديو ، لنفوره الشديد من سماجة هذه اللفظة وسخافتها المثيرة . وكان في استنكافه هذا شبيهاً بابناء القبائل المتوحشة الذين يخشون التلفظ باسماء آلهتهم ، ولا يذكرون هذه الآلهة إلّا بالاستعارات والجمل الطويلة المطاطة .

وعاد الى حديثه عن الزواج فقال :

— ربما تمّ هذا « الشيء » في « بيرّوس غيريك » حيث كنت املك حجرة صغيرة . ألا نستطيع الاستعاضة عن الشاهدين بشاهد واحد ؟

ولم يكن قد فكّر بعد بشخص يعهد اليه بهذه المهمة ، لاشمئزازه من ان يراه رجل محترم في موقف عريس يثير الضحك برقاعته ، فقال للسيدة دنديو :

— اما انتِ فلا بأس ان تصحبينا اذا شئت ...

واعتبر نفسه سخياً بهذه الدعوة الى اقصى حدود السخاء ، فسجّل مكرمته ديناً على اسرة دنديو في الحساب الجاري الذي فتحه لها في ذهنه ، ثم استطرد قائلاً :

– أتظنين ان شخصاً ما من سكان « بيرّوس غيريك » يكفي ليكون شاهداً؟ يوم ذهبت الى شيخ الصلح لأسجّل وفاة ابي ، جئت بشاهد من احدى الحانات ، ودفعت له اجرته فرنكاً ...

وكان وجه السيدة دندبو منوّراً كغرفة كانت مظلمة فاضيء فيها مصباح كهربائي . ذلك انها كانت تخشى ان يقول لها كوستال : « سيدتي العزيزة ، يجب ان نصرف النظر عن هذه القضية ! »

وما كادت تسمع منه انه عازم على الزواج حتى طفقت تعدو في رحاب المستقبل ، فقالت :

– « بيرّوس غيريك » بلدة ظريفة للغاية ... وبعد العقد ، تستطيع الذهاب الى مكان بعيد عن العيون تخبّيء فيه غرامك .

ما إن سمع كوستال عبارة : « تخبّيء غرامك » ، حتى ارتعش من رأسه الى قدميه . فلو كان مغرماً حقاً ، لكانت هذه العبارة كافية لتنفيسه من الحب كما يُنفّس البالون بوخزة دبّوس .

وتابعت السيدة دندبو حديثها قائلة :

– وفي نهاية الشهر ، تعودان من رحلتكما ، وتستقران في باريس .

ماذا ؟ هل اصبحت ام سولانج سيدة الأمر والنهي منذ الآن ؟

واستطردت تقول :

– استطيع ، في فترة غيابكما ، ان اجد لكما مسكناً ...

وكان كوستال يبحث عبثاً ، منذ تسع سنوات ، عن منزل يعجبه ، ويرضي ميوله واهواءه ، فادهشه هذا الادعاء العجيب ، وهالته الهوّة السحيقة الفاصلة بين هذه المرأة والجنس البشري .

وتابعت السيدة دندبو حديثها :

– وبما ان زواجكما سيكون من النوع الذي يحتفظ فيه كلٌ من الزوجين بما يملك ، فان سولانج ستقدم اثاث البيت .

فسألها بقلق ظاهر :

– أيكون هذا الأثاث مما تملكون الآن ، ام جديداً تشترونه من السوق ؟

وتبادر الى دهنه انه قد يخطر في بال سولانج ان تزين البيت بكل آثار « بومبي » ، وهذا ما لا يرضى به مطلقاً . فوجد في هذا التباين بين ذوقه وذوق الفتاة سبباً اول لسوء التفاهم . غير ان هذا السبب لا يكفي – ويا للاسف ! – لطلب الطلاق .

واجابت السيدة دنديو :

– سيكون كل شيء جديداً .

ولم تكن قد نسيت بعد ما قاله كوستال منذ حين مستهجناً ميل الفرنسيين الى شحن بيوتهم باشياء قبيحة يحسبونها تحفاً أثرية لافتقارهم الى الذوق السليم ، فاستطردت تقول :

– ومهما يكن من الامر فانك ستشترك وسولانج في انتقاء هذا الأثاث . يجب ان يكون البيت منسجماً مع ذوق الرجل .

قال : وسأذهب الى حفلة العقد بثياب عادية .

وكان قد نسي هذه الناحية الجزئية من تفاصيل زواجه ، لأنه كان ، كجميع الذين هم على شاكلته ، يرى التوافه بدقة ، وتفوته الرؤية الاجمالية ، افلا يدركها إلا محفوفة بالغموض .

فاجابت السيدة دنديو ضاحكة :

– اعتقد ان القانون لا يمنعك من الزواج اذا ارتديت قميصاً طرية الطوق ...

وكان وجهها يتدفق سروراً ، فقال :

– اخبرتك سولانج ، ولا ريب ، بما اتفقنا عليه ، وهو ان اتمتع بعطلة زوجية سنوية مدتها ثلاثة اشهر ، فاسافر الى مكان بعيد للراحة والاستجمام .

– أجل ، اخبرتني بذلك فاستغربت هذا الشرط في بادىء الأمر ، لكني

ما لبثت ان فكرت بان هناك نساء كثيرات يعشن بعيدات عن ازواجهن مدة طويلة ، كزوجات ضباط البحرية ، مثلاً ...

– ويجب ان تعلمي ان لي مزاجاً خاصاً يدفعني الى الاتصال بجميع النساء الجميلات اللواتي التقيهن ...

– اني رحبة التفكير ، واسعة التسامح ، ادرك تماماً ان الرجل يحتاج احياناً الى الترفيه عـن نفسه ... خصوصاً اذا كان مسافراً ... لكن بشرط ان لا تعرف صغيرتنا الحبيبة شيئاً .

قال كوستال في نفسه : « اراها تبرر الخيانة الزوجية والكذب ، بل تشجع على ارتكابها ... »

ويعلم الله كم كان يحب الامهات المتساهلات ! غير ان السيـدة دنديو اثارت في نفسه القرف في تلك اللحظة ، فتابع حديثه قائلاً :

– وثمة نقطة كبيرة الاهمية في نظري ألا وهي تعهد سولانج بقبول الطلاق عندما ترى انه اصبح ضرورياً ولا مفر منه . وقد وعدتني وعداً جازماً بانها لن تعارض في الطلاق .

– قالت لي خمسين مرة : « أتظنين اني أفرض عليه نفسي اذا علمت ان وجودي الى جانبه يسبب له الشقاء ؟ » لا ، لن تفعل ذلك ! فهي ابيّة النفس ، أنوف ، فتغادر البيت الزوجي بكل بساطـة ، وتأتي اليّ لتقيم معي . وهذا وحده يبرر الطلاق فوراً .

فسألها بحرارة :

– أتعتقدين ان هذا التصرف يبرر الطلاق فوراً ؟

وكان لعبارة : « الطلاق فوراً » ، فعـل السحر في نفسه ، فاحس بفيض من السرور كأن سولانج غادرت البيت الزوجي تواً حاملة معها آثار « بومبي » .

فاجابت السيدة دنديو :

– طبعاً ، فمغادرة البيت الزوجي سبب كافٍ للطلاق . ألم تطـّلع على

نص القانون المدني ؟

– حاول احدهم ان يطلعني عليه منذ حين ، فاستنكفت خوفاً من الوقوع في كارثة دهياء .

– الحق يقال اني لا استطيع ان اتصورك مكباً على القانون المدني ، تتخبط في حلّ رموزه ...

وضحكت ملء شدقيها ، وتجلى في عينيها العطف الصادق ، اذ راحت تقول في نفسها : « هذا الرجل الذائع الشهرة يوهم الناس بانه صلب العود ، صعب المراس ، وما هو ، لدى الاختبار ، سوى طفل ساذج » .

لم تجزم قائلة : « سأقوده كما اشاء » ، لكن هذه الفكرة راودتها بشيء من الغموض . وفي غمرة الغبطة التي ملأت نفسها سكبت له فنجاناً آخر من الشاي .

اما هو فكان يعرض ما مرّ به قائلاً في سره : « لم يقل لي ديبوشيه ، ولا موظف الكاتب العدل ، ان ثمة عملاً يبرر الطلاق الفوري ، فما اغرب طيش هذين الرجلين ! ... لم يخطر في بال احدهما اني استشيره في امر له اهمية حيوية بالنسبة اليّ ... »

وتذكر كلمة السيدة دنديو عن إباء ابلتها وانفتها ، فابتسم ساخراً لاقتناعه بان سولانج لا تملك ذرة من الانفة والاباء او مما يمكن تشبيهه بها . غير ان النساء يفاخرن باباءهن ، أحقيقياً كان ام خيالياً ، بينما الرجال يحاولون اخفاءه دائماً . فالمرأة تحب ان يحسدها الناس ، والرجل يخشى الحسد .

وساورت كوستال رغبة في الحصول على مزيد من الضمانات تصونه من الارتباط الابدي ، فقال :

– أتعدين ، انت ايضاً ، وعداً قاطعاً بانك لن تضغطي على سولانج لحملها على رفض الطلاق ؟

– اعدك بذلك وعداً قاطعاً .

– كان سعدي [1] شديد الهيام بروجته ، ومع ذلك هجرها ليكرّس حياته لعمله ، وكتب الى ابيها رسالة بليغة ، فصفح عنه . وساكتب اليك رسالة مماثلة لرسالة سعدي .

اجابت السيدة دنديو :

– لسكان جزيرة كورسكا تصرفات خاصة يتفردون بها ...

فقد حسبت سعدي كورسكياً ، لعلمها بان سادي كارنو [2] كورسكي الأصل . والمعروف ان في حكومة الجمهورية الفرنسية عدداً من كبار الموظفين الكورسكيين.

قال كوستال :

– كنت قد اعددت اشياء كثيرة ومهمة لاقولها لك ، غير اني نسيتها الآن ... آه ! بلى ، تذكرت بعضها ... مثلاً : اذا منع الزوج حماته من دخول بيته ، أفيعتبر عمله مبرراً للطلاق الفوري ؟

– اهنئك ، يا عزيزي ، على تفكيرك هذا !

– ألا يجب على المرء ان يستدرك اسوأ الاحتمالات ؟

فاجابت بلا استياء ، كمن وصل الى شفير الهاوية :

– لم اسمع قط بزواج عقد في مثل هذه الشروط .

فرد بجفاء واضح :

---

١ – الشيخ مصلح الدين سعدي ، شاعر ايراني ، ولد عام ١١٩٣ وتوفي عام ١٢٩١ على وجه التقريب . تعلم في نظامية بغداد ، وكان من مريدي عبد القادر الكيلاني صاحب الطريقة القادرية في التصوف . قيل انه امضى ٣٠ سنة في الدرس ، و٣٠ سنة في السفر ونظم الشعر ، و٣٠ سنة في التصوف ، و١٢ سنة في اطعام المسافرين ، وسقيهم ، وارشادهم . من مؤلفاته : « بستان » و « غولستان » و « الديوان » . وقد نقلت الى لغات عديدة .

٢ – مهندس وسياسي فرنسي ، انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٨٨٧ ، واغتيل عام ١٨٩٤ في مدينة ليون على يد الارهابي كازيريو .

– انت التي ترغب في هذا الزواج ، لا انا .

– يا سيدي العزيز ، اذا كان هذا الزواج صليباً ثقيلاً يوقر كاهليك ، فالمسألة فيها نظر .

اجاب ، وهو يحدق الى الارض :

– لا ، لا ! لكني ادلّ على مسؤولياتك .

وساد الصمت برهةً ، فانقبض وجه السيدة دنديو وتجهم . ثم استأنف كوستال حديثه قائلاً :

– كنا قد اتفقنا ايضاً على ان لا أضطر الى مرافقتها دائماً اذا ارادت الخروج ليلاً لتمضية السهرة في مكانٍ ما .

– اذا كنت لا تريد مرافقتها ، في احدى الليالي ، فارافقها انا ، او بعض الاصدقاء .

– ولا اريد جهاز راديو في البيت .

– انها تكره الراديو كرهاً شديداً .

– ولن نستقبل الضيوف إلا قليلاً ، فعلاقاتي الحالية وحدها تتعبني الى اقصى حد .

فاجابت بكل تواضع واذعان :

– لن نفرض عليك علاقاتنا ، ولن نحاول التدخل في علاقاتك .

– ولن اذهب الى المآدب التي تقام في المدينة ، لأني لا اطيق التحدث الى امرأة ما ، قد تكون بين المدعوين ، فتجلس الى جانبي ، وانا لا اعرف حتى اسمها ، وتروح تحدثني عن الله وهي مزينة بعقد من الألماس ، بينما ذهنيتها ذهنية خادمة حمقاء ... وقد تستغرق هذه المحنة اربع ساعات . واذا اضفت اليها الوقت اللازم لارتدي ثيابي كانت جملة ما أضعت من الوقت خمس ساعات ، وهذه فترة من الحياة استطيع تمضيتها في مطالعة مؤلفات كبار الادباء (لاني لا اطالع إلا مؤلفات كبار الادباء ، فهي وحدها ضرورية) او في التفكير ، او التنزه في غابة برلونيا ، او

النوم ، وهذه كلها اعمال بريئة ، بينا التحدث الى السخفاء ليس على شيء من البراءة .

– ولكن ، ألا يجب ان نضيّع من حياتنا بعض الوقت للتسلية ؟

وكان هـذا الجواب من السيدة دديو كأجوبـة جميع الذين يضيعون اوقاتهم سدىً ، وهم تسعة اعشار ونصف العشر من البشرية جمعاء . ولا عجب اذا كانت هـذه السيدة تحنق على الذين لا يضيعون وقتهم ، لانها تشعر فطرياً بتفوقهم عليها . ولا ريب في انها اعتبرت ذكر صاحبة العقد الألماني غمزاً من قناتها ، لانها قـامت بمثل هذا الدور مرات عديدة ... فالصغار يحسبون نفوسهم دائماً هدفاً لما يقال حولهم من قوارص الكلام .

اجابها كوستال :

– يمر المرء بفترات من العمر تكون فيهـا اضاعـة الوقت نوعـاً من الراحة ، وحق من العمل ، وهذا ما لا تجده مطلقاً في مأدبة تقام في المدينـــة .

وغيّر موضوع الحديث فجأة فسألها :

– ما رأيك في الذهاب الى نابولي نعقد فيها زواجنا ؟

وكانت لهجته مرحة وحماسية معاً ، كأن هذه الفكرة قد ذللت جميع الصعوبات التي تعترض سبيله .

فاجابت بشيء من الوجل :

– من الوجهـة القانونية ، لا شيء يحول دون تحقيق هذه الرغبـة . لكني اعتقد ان لعقد الزواج هناك شروطاً ، منها ان يكون احد طالبي الزواج قد سكن المدينة مدةً معينة . وهذا الشرط يـؤخر الموعد ... ثم ، ألا ترى ان نابولي بعيدة ؟!

– أتأتين معنا؟!

– لا ادري ... فقد فـاجأتني بهذا المشروع . واذا كنت تصر على الذهاب الى نابولي فليس من الضروري ان تهتم بي . فـالمهم ان تكون

سولانج سعيدة .

– وددت لو يكون الزواج ممكناً في بلاد فارس ، اذاً لكان في وسعنا ان نتزوج في اصفهان[1] .

اجابت السيدة دندبو بعياء :

– هذه الاشياء كلها تحتاج الى درس .

وشربت جرعات كبيرة من الشاي ، ثم قالت بقوة كأنها القت فحماً في نار آلتها الحاكية :

– اعتقد ان لديك كاتباً بالعدل .

– اجل ، لدي كثيرون .

– كاتبنا هو الاستاذ فيليال المقيم في شارع ميروميليل . انه صديق لزوجي ، فلا بأس اذا اتصل به الكاتب العدل الذي يقع اختيارك عليه .

– لمـــاذا؟

– ليتفق معه على صيغة العقد .

– لا شيء يدعو الى الاستعجال .

– لا تنسَ ، يا سيدي العزيز ، ان سولانج بحاجة الى شيء من الراحة في الريف . اني لا احدثك عن نفسي ، بل عنها هي . فقد تأخرت كثيراً حتى الآن ، ولا ريب انهـا تستطيع ان تتأخر ايضاً بعض الوقت ... لكن ، ألا ترى انه من الموافق ان يتم كل شيء في اقرب وقت ؟

– لا نستطيع ان نتمّم شيئاً ما لم نتخذ قراراً .

– ألم نتخذ قراراً بعد؟ ما برحنا منذ نصف ساعة ندقق في اصغر التفاصيل .

---

[1] – مدينة في ايران كانت عاصمة الصفويين . دمح تيمورلنك سكانها وبنى فيها هرماً من سبعين الف جمجمة . اتخذها الشاه عباس الاول عاصمة له في القرن السابع عشر ، وبنى فيها مسجداً . اشتهرت بصناعة الحرير والطنافس .

– عفواً ، يا سيدتي العزيزة ، يجب ان نفهم معنى كلامنا بكل دقة . قلت لـك في بدء هذا الحديث : « اذا » تمّ الشيء ، و « لنفترض » ان الشيء قد تم . وهذا واضح لا يحتاج الى تفسير .

– اذاً ، ألستَ مصمّماً ؟

– اني مصمم مبدئيـاً ؛ امــا عملياً فـلا استطيع ان اعطيك وعداً قاطعاً .

فتراخت السيدة دنديو ، وانهار جسدها كجثة بقرة ذبيح ، ثم قالت :

– اسمع ، يا سيدي العزيز ، اني مقتنعة بحسن نيتك . لكنك تفرض علينا ، انا وسولانج ، تجربة ... تجربة قاسية . ونحن على هذه الحال منذ ستة اسابيع ...

واستطردت بعد سكوت قصير :

– أتعبتني هذه القضية حتى الارهاق !

وفي هذه اللحظة بدت ملامح المرأة العادية – المرأة التي تفني حياتها في المطبخ – وراء مظاهر السيدة البورجوازية الكبيرة .

فاجاب كوستال متأثراً ، وهو يضع فنجان الشاي على الطاولة :

– أعلم ، يا سيدتي ، اني افرض عليك تجربة مرهقة جداً . اما اذا كانت سولانج تتعذب ، فلا بد من الاعتراف بانها هي التي ارادت لنفسها هذا العذاب . واذا سلّمنا بان في هذه القضية ضحية بريئة فهي انا ، انا الذي لم يطلب شيئاً من احد ، بينما انتم تفرضون عليه هذه المعضلة . فثمة اسباب عديدة « مع » هذا الزواج ، تقابلها اسباب « ضده » ، فكيف لا ارتبك ، وكيف لا اتردد ؟ طائش هو كالزرزور من لا يرتبك ولا يتردد في مثل هذا المأزق .

– لن تصمم ابداً .

– اني مصمم .

– أجادٌ انت في ما تقول ؟

– اني اتكلم جدياً .

– واذاً ؟

– اكرر قولي اني مصمم على الاقتران بسولانج . امـــا انتقالي من التصميم الى التنفيذ فيتطلب مني جهداً جديداً فاتوسل اليك ان ترفقي بي الآن ، لاني تعبت وخارت قواي .

– وبعد ، أفتعتبر نفسك خطيباً لسولانج ؟

– لا ، بكل تأكيد لا ! على رسلك ، فالخطبة هي المرحلة الثانية . ثم اني لا افهم شيئاً من هذه الشعائر التقليدية ، فما معنى ان يكون الرجل خطيباً ؟

– لكي تخطب الفتاة ، يجب ان تعدها وعداً قاطعاً بالزواج ، وان تقدمها لها خاتماً ...

– اتفقنا مع سولانج على ان لا يكون للخاتم شأن في قضيتنا . فالخواتم توضع في ارجل الطيور ، ولا اريد استعمال الخاتم قبل الزواج . غير اني مستعد ان اقدم خاتماً عندمـــا اطلـّق سولانج ، فيكون له بعض المعنى ، ويدل على اننا ما نزال صديقين .

وكانت السيدة دنديو تنظر الى ضيفهـــا بذهول ، ثم رنـّت الجرس ، فقال كوستال في نفسه : « أتراها عزمت على صرفي من بيتها ؟ » إلا انها امرت الخادمـــة باغلاق باب المطبخ ، وكانت تتسرب منه رائحة ملفوف مطبوخ تثير الشهيـــة ، فراح كوستال يقول في سره : « آه ! لم يُفقد بعد كل أمل بالحياة ! »

واستأنفت السيدة دنديو حديثها قائلة :

– ما عساني اقول لك ؟ افترض انه لا بد من الانتظار ، لانك لا تستطيع ان تحدّد موعداً حتى على وجه التقريب ...

– كل شيء مقبول إلا تحديـــد المواعيد بارقـــام التواريخ . فالمواعيد المحدّدة ، والساعات المعيّنة ، هي الغبار الذي يتكاثف على الآلة فيعطلها .

وبهذا الغبار يعطّل الانسان حياته ايضاً. فسيأتي صباح، او يأتي مساء، ادعوك فيه هاتفياً لاقول لك: «هيا بنا، يا سيدتي العزيزة، فقد صح عزمي على الزواج!»

قالت السيدة دنديو متضرعةً:

ـ امنح هذه الصغيرة حظاً فتتزوج برجلٍ اعجبها...

وكانت ام سولانج بادية الاضطراب منذ لحظة، تجيل نظرها يمنةً ويسرة، وتشير بيديها اشارات عصبية، نزقة، وتحرك فكها الأسفل كحصان هرم يحرّك شفته. وبعد صمت ثقيل قالت:

ـ نعلم علم اليقين انك تستطيع الزواج الذي تريد، وكما تريد، لكن امنح هذه الصغيرة حظاً! واذا رأيت، بعد سنتين، انها تزعجك في عملك، تكون قد ظفرتْ بسنتين من السعادة في قربك.

فاجابها بحرارة وقوة:

ـ لا اريد ان اعطيها سنتين من السعادة وحسب، بل حياة كاملة...

فسألته، وعلى وجهها ظل ابتسامة هزيلة صفراء:

ـ أ «مبدئياً» ام «عملياً» تريد ان تعطيها هذه السعادة؟

ـ مبدئياً؛ اما عملياً فلا بد من هذه الطبخة من ان تعتلج بعض الوقت لتنضج.

ونهض قائلاً:

ـ لا تقلقي، فقضيتك سائرة في طريقها السوي.

فرافقته الى الردهة، وعلى وجهها ابتسامة فيها جميع معاني الألم، بينما أسرع هو الخطى يريد الخروج كأنه يخشى ان تحجر السيدة دنديو عليه. مشى مسرعاً الى باب المطبخ، اذ حسبه باب البيت. وما إن فتحه حتى هاجمته رائحة الملفوف المطبوخ، وقد قويت اكثر مما كانت منذ لحظة، فخيّل اليه انه اصطدم بها.

ولما اصبحت السيدة دنديو وحدها، عادت الى قاعة الاستقبال،

وارتمت على مقعدها خـائرة القوى . وكان وجهها ، طوال الساعة السابقة ، على شيء من التجهّم الذي يمكن اعتباره وقـاراً في الاوساط المتأنقة ، فاذا بـه يتوتّـر ، ويشتد عبوساً ، ويقسو في توتره ، وقد جحظت فيه العينان ، وشردت منها النظرات . وراحت تدلـك حديها باتجاه الاذنين لتزيل الاخاديد المنحدرة من الأنف .

اما كوستال فهرول على السلـّم يقفز الدرجـات اربعاً اربعاً كتلميذ خرج من الدرس قبل الاوان بخمس دقـائق ، وجعل يركض ، ويركض كأن المعلـّم يطارده ليقبض عليه . ولما أيقن انه في نجوة من المطاردة ، انبسطت اساريره في بسمـة تعبر عن الهزل والمجون ، وجعل يقول في سره : « لم أكن سوى ممثل عادي في اثناء الحديث ، اما بعد هجومي على باب المطبخ فقد اصبحت شارلو [1] » .

وكان كوستال خصب الخيل ، ففي بعض مراحل حياته حسب نفسه يوليوس قيصر ، ودون كيشوت ، ويسوع المسيح ، وجيل دي ريتس [2] ، الخ... وقـد يبـدو هـذا التخيـّل سخيفـاً ، إلا انـه في الواقـع ليس كذلك ، لأن كلا من هؤلاء الرجال العظماء حسب نفسه شخصاً آخر غير شخصه الحقيقي ، واستمد قوته من هذا الوهم : فيوليوس قيصر حسب نفسه الاسكندر ، ودون كيشوت حسب نفسه فـارساً بطلاً يقـاتل في سبيل الخير والمثل العليا ، وجيل دي ريتس حسب نفسه طيباريوس قيصر ، ويسوع المسيح حسب نفسه الله .

وساور كوستال خجل شديد لمـا احس بانـه اصبح « صهراً » ، او

---

١ ـ شارلي شابلن ممثل ومنتج سينمائي هزلي ، إلا ان مهازله عميقة المرمى ، حافلة بالمآسي ، ولد عام ١٨٨٩ في احدى ضواحي لندن ، وامضى القسم الاكبر من حياته في الولايات المتحدة .

٢ ـ مارشال فرنسي اشتهر بـالضراوة والاقـدام على ارتكاب افظع الجرائم . استمد الكاتب شارل بيرّو من حياته موضوع روايته الشهيرة : « ذو اللحية الزرقاء » .

على الطريق التي يصبح في نهايتها صهراً ، فجعل يبذل جهوده للتخلص من هذه الورطة بتضخيم ما فيها من السخافة والبلاهة اللتين تثيران الضحك . ومن الواضح انه كان يتابع بهذا التضخيم عمله الفني والادبي في الحياة .

وعلى الرغم من انـه كان طبيعياً في حديثه مع السيدة دبديو ، لم يستطع إلا الاعتراف بانه مثّل مشهد رواية هزيلة من النوع التقليدي . وتبادر الى ذهنه ان هذا التمثيل « ينقذه » من الوقوع في مأساة الزواج .

وراح يسير في الشارع مقلـداً بمشيته شارلو ، وفي نفسه مزيج مـن الحزع والابتهاج .

التقى كوستال سولانج في اليوم التالي ، الساعة الثالثة بعـد الظهر ، على باب معرض لوحات من افضل نماذج فن التصوير الحديث . ولم يشعر احد منهما بشيء من التأثر او الاعجاب امام تلك اللوحات، لأنهما لم يكونا يحبان إلا الاشياء الطبيعية . وبعد تجوال استغرق ربع الساعة ، صارح كل منهما الآخر بان هذه اللوحات لا تهمه ، فخرجا من المعرض ، وسارا في شوارع احد الاحياء من دون ان تكون لهما خطة معينة . وكان هذا الحي، الواقع في قلب باريس، هادئاً كعادته في اوائل ايلول من كل سنة ، فبادر كوستال الى طرق الموضوع الذي يهمه ، فسأل سولانج :

— هل نقلتْ اليك امك الحديث الذي جرى بيني وبينها أمس ؟

— نعم .

- ان قضيتك سائرة سيرها الحسن على طريقهـا السوي . وانا مقتنع بان « هذا الشيء » سيتمّ . دعيني اهتم به وحدي . لكن مـا رأيك ، يا ابنتي المسكينة ، في هذا التردد وهذه المماطلة ؟

فادارت اليه وجهها واجابت بمنتهى البساطة :

— اني انتظر ...

يا لها من صغيرة مسكينة ! كم كانت خاضعـة مذعنـة ! كم كانت صبورة ، صبورة كـ ... (ولم يكن كوستال يستطيع التعبير عن فكره إلا اذا عمـد الى التشبيه ، فاكمل جملتـه قائلاً في سره : « ... صبور كفرس طيّعة » .)

وتوقف امام واجهة متجر للاثاث وتزيين البيوت ، وقـال لسولانج :

– هذه السجادة جميلة ، إلا ان عرضها غير ملائم ... أتحبين هذا النوع من الاضاءة ؟

وكانت تلك المرة الاولى التي يحدثها فيها عن ترتيب داخل البيت . ثم دخلا الى المتجر ، وتحدثا طويلاً الى التاجر ، فكان كوستال يتذوق عذوبة نفسية عميقة لأنه استحسن المستقبل الذي شرع يعدّه لنفسه ولسولانج، لا لأنه يمعن في تمهّده بالزواج قائلاً في نفسه : « لم اعد استطيع الرجوع الى وراء » .

اخرج من حافظة نقوده ورقة وفتحها امام التاجر ، فاذا هي تصميم لاثاث بيت ، وقد كُتب على احدى غرفه : غرفة سولا ... ثم قال لسولانج :

– جعلت غرفتك وغرفتي في طرفي البيت لابتعد عنك حين اشبع منك حتى التخمة .

فلم تجب ، لكنه شعر بيدها تبحث عن يده .

وذهبا الى احد المقاهي ، فاحس طيلة ساعة كاملة انه ينعم بجو ذلك الأحد الذي عاش فيه يوماً في المطبخ الى جانب سولانج، وادرك انها فتاة جدّ ورصانة . لكن ما اطول المسافة التي إجتازها بعد تلك الخلوة الممتعة !

تحدثا باسهاب عن مستقبلها ، وعن بيتها الذي يجب ان يكون « اشقر كرخام باروس[1] » ، وعن الخدم الذين « لا يجوز ان يكونوا متوقدي الذكاء » ، وعن المائدة التي « يجب ان تكون الاطعمة عليها متوافرة ، لكن غير دسمة ، وغير شهية » ، لأنه لاحظ انها نهمة ، تجد في الأكل متعة كبيرة ، وهو لا يحب ان تسترسل في الشراهة .

---

١ – جزيرة يونانية صغيرة ، تقع جنوبي ديلوس ، عدد سكانها حوالى ثمانية آلاف نسمة ، اشتهرت بما فيها من مقالع الرخام .

وكان الحديث بينهما سهلاً ، ودياً ، حافلاً بالالفة والانسجام ، وفي منتهى البساطة . فقد عاملها معاملة أشعرتها اكثر من اي معاملة اخرى بانها زوجته . وكانت لهجته في محادثتها لهجة رب عائلة يغار على بيته ويكاد يذوب رقةً وعذوبة . ومرّه منها انها كانت تتجاوب معه ، وتسبقه الى التعبير عن رغباته كأنها تحس ذوقه وتعمل على ارضائه ، فجعل يقول في نفسه بطمأنينة وارتياح : « لا ، لن تضايقني ، وربما استطاعت مساعدتى في عملي بابعاد اصدقائى عني » .

وبلغ سروره حدّاً جعله يفكر بتقديم موعد الاحتفال بالـ « شيء » . وكانت سولانج تميل عليه فجاة ، بين فينةٍ واخرى ، وترفع اليه نظرها مبتسمة ، لانها أقصر منه ، فيلمع في عينيها حب صافٍ مشع ، فكأنها تريد شكره على منحها حبه الذي لم يكن حباً حقيقياً ، بل تعلقاً صادقاً بها . قال لها :

– كل ما في الامر اني وجدتك على طريقي فاخذتك . واذا حصل بيننا هـذا « الشيء » اكون قد اخذتك صدفةً فتتمّ فينا سنّة الحياة ، اذ ان اكثر الزيجات وليدة الصدفة. اما انا فاردت ان اكون في حالة الزواج الطبيعية . لذلك سأتزوج مختاراً في احوال غير معقولة وبعيدة عن المنطق . ولم اشأ ان اعطي هذه العملية حظاً كبيراً في النجاح، لأرى ما نستطيع الحصول عليه بالمودّة المتبادلة والارادة الصادقـة . ويجب ان تنتبهي الى اني كنت وما ازال اقول : « اذا تمّ هذا الشيء » ، اي اني لم اعـدك بشيء بعد . وقد تعرّضين نفسك لخيبات فظيعة اذا توهمت اننا خطيبان . فعندما يأزف الوقت المناسب لاعتبرك خطيبتي ، واعتبر نفسي خطيبك ، فاني افاتحك بهذا الامر .

وسألها : مـا تنوي عمله ؟ أترغب في المجيء معه الى منزله ، وفي ما يترتب على هذا المجيء من الاعمال المألوفة ، ام تفضل الذهاب الى مكان ما ؟ فاجابت بان امها شاهدت فيلماً سينمائياً جرت فصوله في بـــلدة

« شاتلايون » التي كانت مصيفاً لاسرة دنديو يوم كانت سولانج طفلة ، وان البيت الذي كانت الاسرة تقيم فيه ظهر في بعض مشاهد الفيلم ، وانها تود ان ترى ما رأته امها لتستعيد بعض الذكريات . فادرك كوستال انها لم تكن شديدة الرغبة في الاستسلام لمداعباته في خلوة حميمة .

ان القلم ليأبى ان يشير ، ولو من بعيد ، الى صفاقة البلاهة ، وحقارة التفاهة ، والغباء المطبق ، والسفالة المقرفة التي ملأت هذا الفيلم الفرنسي الضاحك الباكي ! وكان بين النظارة السخيف المتفوّق ، والساذج النابغة ، والفاسد المنحط ، والمتخلف الصرف ، والبريء الذي يوازي مسائة من نوعه [1] ، والى جانب كل منهم عِشرُ عذراء موزع على الجميع ، اذا صح الحساب .

وكان اصحابنا هؤلاء في القاعة منذ نصف الساعة ، فلاحظ كوستال ان سولانج لم تقرف ، ولم تشمئز ...

ما رآها تضحك ، لكنه لاحظ انها كانت تهضم ذلك القبح بسهولة . وكم مرة دخل كوستال قاعة السينما مع امرأة اصطادها صدفةً ، وكان موفقاً في العثور عليها ، فاضطر الى التخلّي عنها ، والى مغادرة القاعة ، لانه لا يملك الطاقة الجسدية الكافية لاحتمال السخافة .

ولما انتقلت حوادث الفيلم من « شاتلايون » الى الشاطيء اللازوردي ، قال لها : « ليتنا ننصرف ، فما رأيك ؟ » فاجابت : « افضّل البقاء حتى نرى نهاية الفيلم » . واذاً ، فهي تحب هذه التفاهة !

وظل كوستال مصلوباً على مقعده ، مضطراً الى تجرّع ذلك الفيلم الفرنسي حتى الثمالة . ثم راح يقول في نفسه : « إيه ! هذا ما اكرهتني على مشاركتها فيه ! فاذا رأيتَ رجالاً يشاهدون افلاماً او تمثيليات من

---

١ - كتب المؤلف هذه « الصفات » بحرف كبير كأنها اسماء اعلام ، امعاناً منه في القدح والتحقير .

سقط المتاع ، فقل ان النساء قدنهم اليهـا . لا احب المناسبات التي تجر الرجل الى الانغماس في البلاهة ، ولهذا السبب لا احب النساء . لو اوقعني برونيه في مثل هذه الورطة لعذرته قائلاً : هذه طبيعة من كان في مثل سنّه . فالاولاد متفوقون دائماً على النساء ؛ انهم لا يثيرون الغيظ ، ولا يستطيعون اثارة الاستياء ، فاذا اغتاظ احدٌ منهم كان متجنياً عليهم . ومهما اخطأوا فيجب ان نقول : هذه طبيعة من كان في مثل سنهم .

وما يقال في الاولاد يجوز قوله في ابناء الشعب . وما نغتفره لهؤلاء لا نستطيع قبوله من البورجوازيين .

وبعد السينما ، تعشيا في المطعم . وكانت نقمة كوستال اقوى مـن ارادته ، فما استطاع ان يوجه الى سولانج كلمة . وسأل نفسه عن سبب هذا النفور ، لأنه منذ قليل كان يتدفق في حديثه مع الفتاة تدفـق الينبوع ، فتبادر الى ذهنه ان السينما اخمدت حماسته ، ثم ادرك انـه لم يبق لديه ما يقوله .

بذل قصارى جهده ليجد موضوعاً يساعده على الكلام فما وفّق الى شيء ، وظل عقله مغلقاً ، فقال في سره : « لم نبلغ بعد مرحلة الخطبة ، وها نحن لا نجد موضوعاً نتحدث فيه . هذا زواج السمكة الخرساء والارنب الشارد الفكر » .

ولم تستغرب سولانج سكوته ، فالسكوت ، بالنسبة اليها ، كان حالة طبيعية ومحببة ...

وكان قد اختار مطعماً متواضعاً ليعاقب سولانج على نهمها وحبهـا للاطعمة الشهية ، فاذا بجميع الزبن من عامة الشعب ، يتمتعون بعافيـة مخيفة ، فهل من الضروري ان يكون المرء مسلولاً ليبدو على شيء مـن الظرف والاناقة ؟

ما كاد كوستال يدخل ذلك المطعم حتى احس انه على اتم الاستعداد للقتل ، فقد انتقل فوراً الى اقصى حـد يمكن ان توصـله اليـه نقمته ،

لأنه كان يفتقر الى الحاجز القائم لدى الاوروبيين بين الغضب والمبادرة الى القيام بعمل ما .

وراح ينظر تباعاً الى جميع اولئك الناس متسائلاً : « لو التيقت كلاً منهم وجهاً الى وجه ، وتعاركنا بالايدي ، فمن منا ينتصر ؟ » إلا انه كان يبدو هادئاً وشبه اخبل الى جانب طاولته الصغيرة ، على الرغم من استعداده التام لتناول السكين والطعن بها لدى حدوث اقل احتكاك او مشادة .

وكان في جوارهما جماعة مؤلفة من ثمانية اشخاص : الأب ، والأم ، والبنت ، والصهر ، والغلام ، والصغيرة ، والطفل ... (لقد اخطأت في الحساب ... كانوا سبعة لا ثمانية) . فالاب رجل واقعي . وقد ادرك كوستال فوراً ، بقوة حدس خاطف ، ان هذا الرجل من سكان احدى المستعمرات ، جاء يمضي ايام عطلته في العاصمة . كان ابيض الشعر ، قاسي الشاربين ، قصيرهما ، في ملامحه ما ينم عن النشاط ، متين البنية ، لم يتعرف المشط يوماً الى رأسه ، لأن الرجل الواقعي لا يتمشط ليثبت انه بعيد عن التأنق ، ولا يهتم بالشؤون الدنيوية الباطلة . كان يشبه بندا [1] ، وهذا شيء عجيب ، لكنه حقيقي . فلو كان شعر بندا قاسياً مشعثاً ، لا حريرياً وحسن التنسيق ، لكان رأسه شبيهاً برأس رجل واقعي من سكان احدى المستعمرات .

اما الام فشكلها كان يدل على انها تستطيع ان تضع [2] طفلاً تحت الطاولة بكل سهولة اذا شعرت فخذيها ، لتثبت انها امرأة واقعية من سكان المستعمرات . وكانت البنت واطئة القفا ، تشبه عنزة سحباء ، والصغيرة مثلها . وكان الولد حسن الوجه ، من ينظر اليه يدرك فوراً ان اسمه

---

١ - جوليان بندا (١٨٦٧ - ١٩٥٦) كاتب فرنسي محافظ ، تمسك بالتقاليد القديمة ، وقاوم نزعات التجديد الحديثة بقوة . اشهر مؤلفاته : « فرنسا البيزنطية » .

٢ - استعمل المؤلف فعل Vêler الذي لا يستعمل إلا لوضع الابقار .

البير . اما الطفل فكان سميناً ، ملساناً ، لا يتوقف عن الثرثرة . وكان هؤلاء السبعة (او الثمانية) في صراع عنيف ، يحاول كلٌ منهم التفوق على الآخرين بمظهر الِحداد الذي تبدو فيه أظفاره [1] . وربما كان هذا المظهر حداداً على اوهامهم المتعلقة بنجاح الاستعمار الفرنسي .

ولكننا لم نتحدث عن الصهر ، مع ان اهتمام كوستال كان متجهاً اليه بقوة وامعان ، فقد اصبح جميع الاصهار ، في نظره ، عائلةً واحدة كبيرة ، واصبحت كلمة « صهر » علماً يدل على نموذج خاص من البشر . اما الصهر الذي كان مع تلك الجماعة فقد لزم الصمت كأنه ابكم ، واقتصر نشاطه على الابتسام لما يقوله حموه ، وتقوله حماته ، وزوجته ، والصغير ، والصغيرة . وقد تغضّن وجهه قبل الأوان ، مع انه كان لا يزال شاباً . إلا ان هذا التغضن كان مبعثه موافقته الدائمة على كل ما يقال حوله .

ومن حين الى آخر ، كان يستدير صوب كوستال كأنه يتوقع منه ان يوافق على ما يقوله حموه ، او تقوله حماته ، الخ ... ولم يكن احد من الجماعة يهتم به ، او يوجّه اليه الكلام ، او ينظر اليه ، فهو ، ولا ريب ، الصهر المثالي .

وكان كلما فتح فمه ليقول كلمة ، اخفض الآخرون انظارهم عوضاً عن ان ينظروا اليه ، حتى لو كانوا لا يخاطبون احداً سواه . ولم يكن يرعاه بشيء من اللطف والعطف إلا الصغير ، فكلما خاطبه الصهر اجابه ببضع كلمات .

انها مأساة الصهر ، ويالها من مأساة !

ولكن ، لماذا كان هذا الرجل صهراً ؟

فقد مرّ به يوم كان فيه منتصراً في ثيابه الرسمية ، ومن حوله بنات الشرف في اثوابهن الملوّنة . ثم ان سقراط ، وغوته ، وهوغو كانوا

---

١ ــ اشارة الى الوسخ المتراكم تحت اظفارهم .

ايضاً اصهـــاراً .

فما إن تبادرت هذه الفكرة الى ذهن كوستال حتى بـدأ يشك بحصافة الانسانية .

وتكلم الطفل ، فقال :

– ميا ميا ميام !

فاجابته امه :

– نعم ، يا حبيبي ! ديديا دودوا دادا .

وسأل الرجل الواقعي المقيم في احدى المستعمرات :

– دودوا ديدي ؟

فاجاب الطفل بالايجاب :

– إي ، دودوا ديدي .

قالت العنزة السحماء :

– يجب ان نأخذه الى مكانٍ ما .

فاجـاب الصهر ليثبت وجوده :

– يجب ان نأخذه ، نأخذه .

ورأى الطفل ان حيلته انطلت على الجميع ، فصاح :

– موورو وع .

فأجابته امه :

– نعم يا كنزي الغالي ، بيبيا بوبو .

ووضعت يدها على قفاه ، وهذه حركة فطرية تبدر من جميع الامهات .

واراد الرجل الواقعي ان يبرهن عن سعة معارفه في مختلف الشؤون ، وعن انه اب حقيقي ، فقال :

– اظن ان هذا الصغير يريد ان يتقيأ .

فصاحت الام :

– ان يتقيأ ؟ انك واهمٌ . انه اغتاظ لأن بوليت امسكت به ، وكان

يريد ان امسك اما به .

وامتصت خد الطفل (اي انها قبلته) ، ثم هزته كما تهز الشجرة لتُسقط منها الثمار ، ثم امتصته من جديد بضراوة ، واخيراً صفعته. وكادت تبدو جميلة كحال كل شيء يصبح نموذجاً . وكانت نموذجاً تجسدت فيه هستيرية الامومة المهتاجة حباً . واخيراً حملته الى المرحاض . ولما تخلصت العائلة من الام والطفل ، بدأت تستعيد وقارها وهدوءها رويداً رويـــداً .

مهلاً ، ايها الطفل المحبوب والكبير الاهمية اليوم ، فبعد اثنتي عشرة سنة ستصبح غريباً صغيراً على مائدة العائلة . لن يهتم بـك احد ، لانك تكون قد تجاوزت مرحلة الغباء .

وخرج كوستال وسولانج من المطعم ، فتوجها الى شارع هنري مرتان جرياً على الاقدام . وكان شديد الاستياء منها ، حتى انه اشترى لها اضمومة من الورد ، فاصرّت على حمل العلبة التي تحتوي هذه الاضمومة ، فاعجبه استعدادها الشرقي للاكتفاء بالمرتبة الثانية بعد الرجل . غير انه راح يتساءل أيكون عملها جزءاً من سياسة التمهيد للزواج ؟

قال لها :

– لن اقدم لك هذه الورود إلا مرفقةً بنبذة لطيفة وردت في غلستان[1] هي هذه : « لا تعلّل النفس بوفاء العندليب ، لانه في كل لحظة يغرد على وردة جديدة » .

ولما وصلا الى منزله ، وقفا برهة متكئين على النافذة ، لأنه لم يشأ ان يبدو قليل الصبر في طلب المتعة . وكانت الغيوم تتدافع فوق غابة بولونيا في سماء بدأ يخيّم عليها الظلام ، وتلبدت السحب وانخفضت

---

١ – كتاب فارسي لسعدي الشيرازي ، معناه : « حديقة الورود » ، وهو على ثمانية ابواب ، يحتوي ابياتاً فارسية ، واشعاراً عربية ، وامثالاً غربية ، ولطائف عجيبة .

حتى امست شبيهة بذيول من الدخان خلفتها قاطرة سكة الحديد .

ومدّ كوستال يـده الى سولانج ، ففك ازرار ثوبهـا الجانبيـة ، ثم انسابت اصابعه على جلدها حتى بلغت احد نهديها فقبضت عليه . غير ان خوفه من المستقبل قضى على المتعة التي كان بوسعه اغتنامها من هـذه الملامسة لو كانت علاقتها متحررة من كل قيد .

قال لها :

– أتريدين ان تخلعي ثيابك ؟

كأنها لا تستطيع ادراك رغبته الخفية بلا سؤال .

ثم سألها :

– ألا تريدين ان تخلعي جرابيك؟

كأنهـا لم تعلم بعـد انـه يجب ان يضع اخمص قدمـه العـارية على قدمها ، كما يضع المصلوب قدميه على السند المخصص لهما في الصليب .

واضطرت ان تذهب الى المرحاض ، فتذكر كوستال فرساً عربيـة كان يملكها ، وكانت على جانب كبير من الأنفة ورهافة الشعور ، فـلا تبول ولا تسلح اذا كان يمتطيها .

اننا نضع في احاسيسنا الغرامية ما تضعه فيها نفسنا على مدى أبعد من مداها . وحين تكون هـذه الاحاسيس مسيطرةً تستطيع الاكتفـاء بذاتها ، نكون قد حققنا بها عملاً عظيماً .

لم تكن الآنسة دندير من النوع الذي يعطي الرجل متعـة تكتفي بذاتها . فهل شعرت ، فضلاً عن ذلك ، بابتعاد كوستال عنها ؟ يكفيك ان تقرأ كلمة : « فرنسية » ، مكتوبة على علبة الثقاب ، لتعـلم ان عيدان هذه العلبة لا تشتعل . ويصح هذا القول على الفتيات الفرنسيات ، وقد صح على سولانج ذلك المساء .

في السرير ، امسكت بكوستال ولم تضمه اليها ، فكانت كأنها تقوم بواجب لا مفرّ منه ؛ اما هو فجعل يلامس الاماكن الرطبة من جلدها .

ولم تفقته ذرة واحدة من اسباب السأم التي يحتويها هـذا الجسد الخالي من الرائحة ، وتانك الساقان المسكينتان . لم يجد في هذه الفتاة شيئاً يحمّسه ، او يثير شهيته . كان وجهها يبدو واضحاً من بعيـد ؛ اما في القرب ، وفي غمرة الوصال ، فكان مائعـاً ، مبهماً ، عديم التـأثير كلياً .

وكان كوستال يحب حتى الجنون وجوه النساء التي تزخر بالحيـاة حين يستولي على صاحباتها . وكثيراً مـا رأى وجوه عابرات سبيل ، فاحب ان تكون صاحباتها له مرة واحدة ، مدة عشر دقائق ، لا لشيء ، إلا ليعلم كيف تكون في اللحظة العظمى . وكم كان يشتهي ان يقوم بعملياته الغرامية وعلى جبينه مصبـاح كهربائي كالذي يستعمله اطبـاء الاسنـان ، ليصور به وجوه خليلاته في حمّى الوصال ، اذاً لتسنى له ان يقتني مجموعة من الصور ، لو رآها اشد اعضاء الاكاديمية جلالاً ووقاراً لحثّ خطاه في السير الى شارع كونتي .

وكان جسم سولانج كله ، حتى الابطين ، خالياً من الرائحة كقطعـة ورق ، فلم تكن لها رائحة غير رائحة فمها الضعيفة ، ورائحة شعرها التافهة ، ورائحة شيء آخر مائلة الى العذوبة .

ولماذا تذكر كوستال في تلك الفترة رائحة شعر ابنه ؟ لأنه كان يجهل ان لشعر الصبيان الصغار رائحة اعطر واقوى من رائحـة شعر النساء ، مع ان هذه قاعدة طبيعية في الحياة .

وعانقها ، فظلت على حالها ، ولم تضمه اليها . وما كان ليدري انها حركت ذراعها لولا تكتكة ساعتهـا المسموعة كصوت حيوان صغير وقح تسلل الى مضجعها واندس بينها .

وكان جسد كوستال ميتاً . وتلك كانت المرة الاولى التي بلغ فيهـا هـذه الحال مـع سولانج . ولم يكن ينقصه إلا هذه المصيبة ليكتمل شقاؤه !

وبينا كان غارقاً في تأملاته ، خيّل اليه ان حاله تلك وليدة الجو المكفهرّ العاصف الذي ذكره بجوّ مماثل كئيب كان يعانيه احياناً في المغرب على مدى النظر ، كما ذكره بتلك الحسناء المراكشية التي كان يلتقيها كل سنة ، ويسميها « تيريموتو »[1] لانها كانت ، اذ تأخذ الرجل ، تقرصه ، وتهزه ، فتُجري في جسده النخاع من المخيخ البعيد ، فاذا هي زلزال كاسح يحاول اقتلاع كل شيء . وما كادت صورتها ترتسم في خيال كوستال حتى قال في نفسه : « ان هذه الفتاة تحمل في جسدها فردوس النعيم » . ولدى هذه الذكرى ، استيقظت فيه حياته ، واشرأبّت كأفعى سمعت صفير الحاوي ، فالسابت تسري في دمه ، وتخفق مع قلبه . ففتح المرأة كما يفتح خرشوفاً ليكشف عن قلبه ، وعرفها . إلا ان هذه العملية جرت بمنتهى الفتور ، حتى انه لم يعرف بحدوثها إلا حين سمع سولانج تصيح ، وقد فرغ صبرها :

– انك توجعني !

– ماذا !؟ ان الوجع جزء من متعتك ! ألم تفهمي بعد هذه الحقيقة !؟

اجابت باصرار ونزق :

– لا اريد ان توجعني .

فالقى عليها نظرة قاسية .

وما إن نهضت حتى قفزت من السرير ، وكانت قفزتها اول بادرة نشاط اظهرتها في ذلك المساء ؛ وهرعت الى المغسلة ، وكل ما فيها يدل على انها كانت تنتظر هذه النهاية بفارغ الصبر !

ونهض كوستال بدوره ، فوقع نظره على صورة وجهه في المرآة ، فاذا بملامحه متوترة ، وبعينيه متغضنتين كأنهما عينا هرّ حانق. كان وجهه وجه الذكر الخائب الذي اثارت خيبته فيه الغيظ ، وروح الشر ، والشراسة ،

---

١ – كلمة اسبانية معناها : الزلزال . – المؤلف .

فبدا دميماً ، وسخيفاً على الأخص .

ارتمى على السرير من جديد ... حيث كانت له ذكريات نساء اخريات ، بلغت متعته معهن ذروتها ، اذ كان يلتصق باجسادهن التصاق حشرة لا تبدي حراكاً ، وقد اسكرهـا العبير في كم زهرة فوّاحة الأريج . فلو ُقرع بابه في تلك الهنيهة الحالمة لما تحرك من مكانه . وهكذا يمكن سحق الحشرة في زهرتها وهي نشوى لا تحاول الفرار ...

تذكر وجوهاً عديدة ... ثم قـال في سرّه : « جلّ مـا اطلبه الى المرأة ان امنحها المتعة ، وما تبقّى يجري تلقائياً على ما اعتقد » . لكن يبدو ان كل مـا في النساء مصطنع ومغرض ، فـالمرأة تسعى تارةً الى العطف والمحبة ، وطوراً الى الزواج ، وحيناً الى كسب المال . ومن المحتمل ان لا نجد امرأة واحدة بين مائة امرأة تشعر بشيء بين ذراعي الرجل ، ان لم تكن قد « استعدت » لهذا اللقاء . لم ُتخلق المرأة للرجل خلقياً ومعنوياً ، ولا هي له جسدياً . فحين يتمتع هو ، لا تشعر هي باقل متعة . ولا بد له ، حتى في هذا المجال ، من ان يعلّمها . لقد كانت الطبيعة بخيلة عليها ، لما علمتها شيئاً .

حين قال له ديبوشيه : « مهما دارت المرأة حول الرجل ، وتنصتت على بابه ، فانه يبقى بالنسبة اليها سراً مصوناً » ، كان في وسعه ان يضيف : « خصوصاً في العمل الرئيس ، فهي تحاول ان تفهم ما هو ، ولا تستطيع ان تكوّن عنه في ذهنها صورةً ما ، فتحسده على مواهبه ، متظاهرة بانها تملكه لتثير شهوته ، فلا يأخذها رحمةً لها » .

التظاهر بالحصول على المتعـة مهزلة كئيبة ُتمثّل كل ليلة ، ويستمرّ تمثيلها سنوات . فالمرأة تحاول اخفاء عجزها الطبيعي باللجوء الى « الحب الظاهر » ، الى الهوى العذري ، فتجعل منـه وثناً ، وتبـذل جهدهـا لفرض شعائره على الذكر الذي يمقت هذا الهوى مقتاً غريزياً ، كما يمقت كل ما هو منافٍ للطبيعة . واخيراً ، تحاول المرأة ان توهم النـاس بأن

عجزها فضيلة ، وبان عاقبة الذكر عامة ، فتتظاهر حيناً بالشفقة ، وحيناً بالغضب المتناف ، وتتهم الرجل بالانانية ، او بالغلاظة ، وتروح تشيد بمحاسن « الحب الطاهر » .

فكر كوستال بهذه الامور كلها ، فتذكر تلك الرائحة التافهة التي تكاد تكون مقرفة ، وذلك الجسد الرخو كأنه شلو خال من الاعصاب ... فحمله خياله الى عناقات جديدة به ، يواصل فيها الندّ ندّاً آخر على الصعيد البطولي ، فيتم اللقاء بين قوتين متكافئتين ، بين بطلين في حلبة الصراع ، ولا تسفر المعركة بينهما عن قهر غنمة مستسلمة ... وما أتفه مثل هذه « الانتصارات » على مثل هذا النوع من النساء !

اما اذا صرعت القوةُ قوةً اخرى وجعلتها ليناً وعذوبة ، فرياضة جديرة بالاحترام ، وعمل جدير بالرجل ...

ونهض من السرير ، فاذا به امام المرآة من جديد . ولم يخجل هذه المرة بصورة وجهه الخائب ، بل خجل بذلك « الشيء » الذي اذله ، وببذل غروره ونشاطه الجنسي في هذا النوع من « البطولة » .

ورأى في المرآة صورة صدره القوي العاري ، فارتاح اليها ، وقال في نفسه : « اني افضل بكثير مما انا فيه » .

وكانت امامه ورقة بيضاء على الطاولة ، فكتب عليها هذه العبارة : « الكلام الفظيع يجول في نفسي من جديد ، واني لا ادري لماذا اخترتها » .

وبعد برهة من التفكير كتب : « لكن ، لماذا اقدم على هذا العمل [1] ؟ اجيب نفسي من جديد : افعل هذا لاجلها ، وافعله ايضاً لاعرف كل ما في العالم من النكهات المختلفة ، وافعله اخيراً لافرض على نفسي وضعاً متوسطاً في الحياة . اردت ان لا ابقى على حدة . اردت الوصول ، من خلال سولانج ، الى طبقة منغمسة بالحياة البشرية لاغترف منها ما

---

١ - يعني الاقتران بسولانج . — المؤلف .

استطعت ، حتى لو كانت كلها مرارة . وثقت بها ، وبنفسي ، وجل رجائي ألّا تكون العاقبة وخيمة عليّ ! »

وعادت سولانج من المغسل ، فما استطاع إلا ان ينظر اليها بشيء من السخرية حين فكر بانها لا تتمتع بالحب . ثم وقفا برهة ينظران من النافذة الى الشارع ، فتذكر من جديد صورة تلك السماء العاصفة ، وقال للفتاة :

– اظن انك تعتبريني وغداً لو هجرتك الآن ، فما رأيك ؟

– اعتقد اني لن استطيع ابداً ان اعتبرك وغداً .

فتدفق فيه إكباره لها تدفقاً ممزقاً أليماً ، ثم قال لها :

– قلت لي يوماً انك تخشين المستقبل ؛ اما الآن فانا الذي بات يخشاه .

فاجابت :

– اما انا فكلي ثقة به .

فتدفقت فيه رحمته لها تدفقاً ممزقاً أليماً .

ورافقها في السيارة الى منزلها ، وهو عاجز عن طرد مخاوفه من ذهنه ، فما استطاع ان يقول لها ولو كلمة واحدة .

اما هي فكانت تبادر الى مداعبته كلما احست ان شيئاً ما قد تصدع في علاقتهما ، فتأبطت ذراعه ، ومالت عليه .

كان يود ان يصارحها بان هذا التودد يزيده استياءً ، فقال في نفسه : « انها تتصرف تصرف كلب يمد قائمته الى صاحبه » . ولما وصلا الى باب بيتها ، قال وهو ينظر الى السماء :

– ان قلبي ايضاً متلبد بالغيوم .

فاجابت :

– اما قلبي انا فتتألق فيه النجوم !

فاثارت هذه الكلمة اعجابه وهيّجت عواطفه .

عاد كوستال الى منزله وتناول دواءً منوّماً (وكانت السيدة دنديو القليلة المعرفة باللغة اللاتينية تسمّي هذا الدواء بكل جرأة « دورميفوج » ، اي مـا يطرد النوم ، فتعني كلمتها نقيض قصدها) . اما كوستال فكان يخاطب الدواء قائلاً : اليّ بالنسيان ايهـا العلاج ! وللمرة المائة ، استلقى على سريره ، وشرع يلخص معضلته بقوله : « احب هذه الفتاة الى حدّ ما ، لا أكثر . وقد كنت شريفاً فابلغتها هذه الحقيقة في حينها . فلِمَ لا احبهـا اكثر ؟ لنقـل على سبيـل الافتراض : اني لا احبهـا اكثر لأنها بعيدة عني اجتماعياً وفكرياً ؛ ولنقل ايضاً : لانها دوني على الصعيد الجنسي ؛ او لنعـدل عـن كل افتراض ، ولنقل : اني لا احبهـا اكثر لأن هذا هو الواقع . ومن البديهي أنْ لا مبرر مطلقاً لهذا الزواج . لكني احبها كفايـة لأتألم بآلامهـا ، ولاسيما الآلام التي تسببها لها القطيعة في المرحلة التي سمحتُ لها ببلوغهـا . غير ان الآلام التي تسببها لها القطيعة الآن لا تقاس بما قد تعاني طوال شهور وسنوات اذا تزوجنا ثم هجرتها بعد الزواج . واذاً ، فـلا يجوز ان تكون الآلام المرتقبة سبباً للحؤول دون القطيعة . لا ! اني لا اجد إلا اعتراضاً وجيهاً واحداً على القطيعة ، وهو التالي بالرغم من غرابته : فبعد ما عرضتُ جميع الملابسات رأيت ان هناك احتمالاً ضئيلاً – لكنه اكيد – بنسبة واحد الى مائة يدعو الى الظن باننا قـد نصبح سعيدين بهذا الزواج . والسؤال الوحيد الواجب طرحـه الآن هو : أتجوز المجازفة على اساس هذا الحظ الزهيد ، ام يجب التراجع مهما كلّف الامر ، حـتى لو غـدونا معرّضين للـندم في احـد الايام

السود ؟ لكن ، أتراني رجلاً تمر بـه ايام سود ؟ الخ ... »

استيقظ كوستال من نومه في الساعة الرابعة صباحاً ، فسمع قطرات المطر تنقر على النوافذ ، بعد ان تفجرت الغيوم التي كانت متلبدة في الليل . فما اغرب امطار الصيف ! كان الاقدمون يعتقدون ان مطر الصيف ليلاً مليء بمعاني الفأل والشؤم . وتذكر كوستال مطراً ليليـاً في تموز ، انهمر ليلة ضاجع فيهـا المرأة الاولى في حياته ، وكان في الثامنة عشرة من العمر . وتذكر ايضاً مطراً ليلياً آخر في حزيران ، تساقط على احدى الغابات في ايام الحرب ، وفي اليوم التالي اصيب بجرح خطر . وعرف المطر الصيفي ليلاً في شهر آب ، يوم كان في نابولي ، وفي الصباح اصيب بطعنة خنجر . وامطرت عليه السماء ليلاً في ايلول ، فاصيب ابنه برونيه بالتهاب السحايا وقطع الاطباء منـه الأمل ، إلا ان الحمى هبطت في الصباح ، فنجا الولد من الموت .

كان الرجل القوي ، الرجـل الواعي البصير ، يتقلّب على فراشه مستسلماً للقوى العليا ، مدركاً ان اليوم الآتي سيكون يوماً مشهوداً ، له طابعه الخاص .

واستولى عليه النعاس فنام ، ورأى حلمـاً رهيباً لم يرَ له مثيلاً من قبل : احس ان مخلوقاً يرهقـه بعبئه الثقيل تجسد في كتلة لزجـة غطت جسده ، والتصقت به ، وغلفته . وبذل جهد المستميت ليتخلص منها ... فـلو أغفى ولدٌ ، وعلى صدره هرّ كبير ، لكان من المحتمل ان يحل به كابوس من هذا النوع .

وأحس ، وهو نائم ، ان وعيه لم يفارقه ، وانه متيقظ حتى في اغفائه . واذاً ، فلم يكن مـا رأى حلماً ... أتراه فقد صوابـه وغاص في لجة الجنون ، ام تراه مسكوناً بروح شيطانية ؟

كان هذا الشعور جديداً لديه ، وفي منتهى الفظاعة ، لأنـه لم يخضع لسيطرة احد او شيء مـا مضى من حياتـه ... لم يخضع إلا لذاتـه ،

لأشد ما في ذاته غموضاً .

ولما افاق من نومه ، كانت يقظته زاخرة بالقلق والاضطراب ، وشبيهة بيقظة اخرى لا تبارح ذاكرته ، وقعت له يوم كان في الثامنة عشرة من العمر . ففي ذلك الحين كان يرقد الى جانب خليلته – خليلته الاولى ، وكانت ايطالية في السادسة عشرة من العمر .

كان يعلم انها تريد قتله لانها تكلمت في نومها ففضحت نفسها . فما كاد يستعيد وعيه كمن يصعد من لجة الرقاد الى سطحها ، حتى احس بشيء بارد على نقرته ، وعرف ان هذا الشيء فوهة مسدس ...

وكانت يداه تحت الغطاء ، فاذا حاول اخراجها ضغطت المرأة على الزند وانتهى الأمر .

وكم كانت يقظته رهيبة !

تبادر الى ذهنه انه مخطىء ، وانه من المحتمل ان تكون المرأة نائمة . لم يكن قادراً على رؤية وجهها دون ان يتحرك لأن رأسها كان أعلى من رأسه على المخدّة . فما العمل ؟

فكّر فترةً لا يمكن تحديد مدتها ، ثم تمتم مرات عديدة كأنه يتكلم في نومه : « ليحرسك الله ، يا ماريا ، ليحرسك الله ! » وادار رأسه بهدوء ، فاذا صاحبته نائمة ، او تتظاهر بالنوم ، فانتزع منها المسدس . وظلا معاً اربعة اشهر او خمسة . إلا انه كان ينبّشها كلما جاءت الى منزله :

ويقظته اليوم ، بعد ليلة « الامتلاك » التام ، لم تكن تختلف عن تلك اليقظة المخيفة ، فقد رافقها ما رافق تلك من الاضطراب ، وخفقان القلب ، وضيق الصدر فترةً طويلة . فكيف السبيل الى الفرار من معنى هذا الحلم ؟

كان معنى واضحاً كل الوضوح : فالعبء الذي كاد يخمد انفاسه هو سولانج وما قد تكون الحياة الى جانبها ؛ والقوة التي شعر بانها تمتلكه

هي سولانج التي تشرب روحه ثم تنسلّ الى داخله لتحلّ محلّ هذه الروح .

وتذكر بيتاً من الشعر لدانتي يقول : « ان احلام الصباح أصدق من احلام الليل » . ثم تذكر هطول المطر وما فيه من ادلة الشؤم ، والاحلام المنذرة بالكوارث ، فارتعد كل ما فيه من غرائز الحيوان . فالخوف الذي كان نائماً في اعماقه على غير هدى، منذ ان خامره وسواس الزواج ، استفحل فجأةً واستولى عليه ، واغرقه في لجته . ولم يكن خوفاً ناجماً عن تفكير له عوامله واسبابه ، بل كان خوفاً مبهماً عجيباً يطلق ضياغمه الضارية ويحطم عظام الأبطال .

وتحت وطأة هذا الرعب اتخذ القرار الذي كان عقله وارادته عاجزين عن اتخاذه ، فصمم على مغادرة فرنسا وهجرها بضعة اشهر دون ان يرى سولانج . وراح يقول في نفسه : « لن تنقم عليّ . فقد سألتها يوماً : ألا تظنين اني وغد قذر اذا هجرتك ؟ فاجابت بان ظناً من هذا النوع لن يساورها ابداً » .

هذه حال جميع الناس ، اذا اعطيتهم سلاحاً ضدك ، استعملوه فوراً لإيذائك . ما كان احد ليظن ان فلوبير كاتب صغير لو لم يعترف هو نفسه بكل سذاجة بانه كان يعرق من شدة الجهد ليؤلف جملة .

واذا كان فرار كوستال جبناً وقلة ادب في نظر الناس ، فان الآلهة تصفق له اعجاباً ، لانه بفراره يستعيد عقله المشرّد بذعر غير معقول ولا مبرر له . ثم ان فراره ينقذه من كابوس هذا السحر الذي ادرك الليلةّ مدى هيمنته عليه . ويعلم الله كم يفقد من مواهبه وشخصيته إن لم يبادر الى درء الخطر قبل فوات الأوان .

ومن شأن هذا القرار ان يفرض على شعوره وشعور سولانج تجربة الفراق . وهي تجربة تدخل في نطاق شريعة كبرى من شرائع الحياة ، وإن يكن الناس قليلي الانتباه لها ، وخلاصتها ان المرء قد يجني خيرات

وفيرة لا تقدر بثمن اذا انتقل من مكان الى آخر . فما كان متعذراً يصبح ميسوراً لسبب واحد هو هذا الانتقال[1] . وفرار كوستال « جبن وقلة ادب » ، ولا ريب ، اذا نظرنا اليه من زاوية ضيقة منخفضة ؛ اما اذا نظرنا اليه من فوق ، فيتبين لنا انه العمل الافضل الذي لا بدّ من اللجوء اليه حتى لو ناقضنا قواعد الشرف والرأي العام وكل شيء . وقد ادرك كوستال قوة هذه الحقيقة اذ راح يتمتم : « لا شيء ينقذ المرء إلا الخوف » .

وارسل من يحجز له مكاناً في القطار المسافر الى جنوى الساعة ٢٠ والدقيقة ٤٥ .

ولماذا اختار جنوى ؟ لأن فيها الآنسة كارلوتا بيفيلاكا ، وهي اخت لاتينية صغيرة لا ترفض له طلباً . ففي اسوإ الاحوال لم يكن الكاتب اللامع ليعجز عن اكتشاف مركزٍ امين ينكفيء اليه .

وبعد فراره كتب الى سولانج والى امها . قال لها انه سافر الى لوزان . وصمم على ان لا يخبرهما بانه في جنوى إلا متى أيقن من لهجة رسائلها انها لن تلحقا به . فاذا استثنينا هذه المراوغة ، لا نجد في الرسالتين التاليتين إلا تعبيراً صادقاً عن فكر كوستال وشعوره في تلك

---

١ ـ ينصح الاطباء الرجل المتعب صحياً بـ « تغيير الهواء » ، حتى لو لم يكن هواء المكان الذي يذهب اليه المريض افضل من هواء المكان الذي هو فيه . ويكفيك ان تحرج الاطباء قليلاً ليعترفوا لك بهذه الحقيقة . ومهما شجع المتجول نفسه ، فانه يظل عاجزاً عن التصدّي في الشارع لامرأة لا يعرفها ، مع انها اعجبته واثارت رغبته في الاستيلاء عليها . اما اذا حاد من طريقها قليلاً ، وتركها تتابع سيرها ، ثم عاد الى مطاردتها من طريق آخر ، فمن المحتمل ان يتصدى لها بسهولة لأن مكان لقائها قد تغيّر . وغالباً ما يرفض الثور ان يرد على تحريض الرجل الذي يصارعه ، فاذا سار مضمة امتار ليتطلع الطيلسان الاحمر ، اصبح بوسع المصارع ان يستدرجه الى ما يريد . وينطبق هذا المثل على حصان يأبى القفز من فوق احد الحواجز ، وعلى ضيفهم يرفض الانصياع لرائفه ... — المؤلف .

الفترة من حياته .

ولم يستطع ان يكتب هاتين الرسالتين من دون ان يذرف الدموع . وقد تساءل ، مرات عديدة ، فيما بعد ، كيف عجز سروره بالخروج من تلك الجحيم عن نفي الدموع من عينيه ؟

وبعد ، فلماذا بكى اذاً ما دام لا يحب سولانج ، ويعلم انه لا يحبها ؟

بكى ، واستمر بكاؤه فترةً طويلة ، لأنه فكّر بالآلام التي يسببها لامرأة لا يحبها إلا « الى حدٍّ ما » ، فاستخلص من ذلك انه يبكي بسهولة ، وان عينيه سخيتان بذرف الدموع . وهذا امر لم يكن يجهله ، بل كان يقول ان هذه الميزة فيه هي نقطة التشابه الوحيدة بينه وبين بورجيه [1] .

كان من عادته ان يدوّن في مذكراته جميع الحالات المهمة التي تمر بها حياته الداخلية ، وكانت تلك الحال على جانب من الاهمية ، بدليل انه بكى ، والرجل القوي لا يبكي كل يوم لاجل امرأة . لكنه كان شديد الخجل بخوفه وارتباكه ، فأبى ان يكتب خوفاً من الامعان في تحليل حالة نفسية تزعجه وتثير اشمئزازه .

وفي ٧ ايلول ، دوّن في مذكراته : « مـا اشد آلامي ! شاب شعر فرشاة ثيابي في ليلة واحدة » . وهـذا هو الأثر الوحيد في مذكرات كوستال ليوم ٧ ايلول .

---

١ ـ بول بورجيه (١٨٥٢ ـ ١٩٣٥) كاتب فرنسي ، وضع روايات تحليلية اهمها : « التلميذ » ، و « اللغز القاسي » ، و « اندريه كورنيليس » ، و « المرحلة » . وكان عضواً في الاكاديمية الفرنسية .

من
بيار كوستال
باريس
الى
سولانج دنديو
باريس

عزيزتي سولانج !

في ايام الحرب ، رافقت احدى خادمات والدي زوجها ، بعد انتهاء اجازته ، الى القطار الذي يعيده الى الجبهة . ولما ازفت لحظة الوداع قال لها قبل ان يجتاز الباب الصغير المؤدي الى رصيف المحطة : « انتظريني قليلاً لاشتري علبة سواكير » . ثم ابتعد عنها وصعد الى القطار من مكان آخر ، تاركاً زوجته في انتظاره . لقد هرب من مواجهة تأثرات عاطفته . ولما أعلنت الهدنة ، كان هـذا الرجل قـد احرز اربعة تنويهات باعماله البطولية في سلاح الرجالة . ذلك نمط من شجاعة الذكور .

عندما تقرئين هذه السطور اكون قد غادرت باريس هارباً من الضعف الخائن الذي لا يُجدي . لم اجد بـداً من انتزاع نفسي بمثل هـذا العنف لاخرجها من جحيم شكوكي ومن تقلبات افكاري كل يوم .

يؤسفني مصيرك غاية الأسف . امـا اذا كنتِ تتألمين ، فلستِ وحيدة في هذا الألم . لا اقول لك اكثر من هـذا ، لاني اخشى ان تغلب عليّ العاطفة . فلنتوجه فوراً الى ما نجد فيه تعزية لنا .

انك تتألمين الآن . إلا ان ألمك سينفجر وينتهي دفعةً واحدة . ولو تزوجتُ بك لكان ألمك اشد وطأة ، واطول أمداً ، ولما كان لنا مفرٌ من الطلاق . وما عليك إلا ان تفكري بما كان من المحتمل ان يسبق هذا الطلاق ويحيط به . يعلم الله ما أقدم على عمله عندما احس اني مقيّد مشدود الوثاق . فالقط الانيس يمزق وجهك بمخالبه اذا حاولتِ ابقاءه بين ذراعيكِ بالقوة . اشكريني لاني انقذتك من عذاب أليم . فالحصافة التي يتحلى بها حبي لك هي التي فرضت عليّ هذا الفراق[1] .

ولنا عزاء في ان ما هو مفيد في قولي بالنسبة اليك هو مفيد ايضاً بالنسبة اليّ . ما برحت أتعذب منذ ستة اسابيع . ومهما تكن المسرات التي غنمتها منك كبيرة ، فان الآلام التي جلبتها من نفسي لنفسي بسببك لأكبر بكثير : تحبيني، احبك . وقد سمّ هذا الحب المتبادل الصيفَ الماضي من حياتي . لكني وضعت حداً لهذه الآلام . فاستبشري وافرحي بهذه البادرة .

ولنا عزاء آخر : اذا كنتِ تحبين تتاجي الادبي ، فاعلمي انك قد اعطيته كثيراً حتى الآن . ففي نتاجي وفي حياتي منطقة تسلّلتِ اليها ، وعششتِ فيها ، وستبقى مقراً لك مدى حياتي مهما تقلبت الاحوال . وهذا ربح لك الى الأبد .

واعلمي ان مودتي لك واحترامي اياك ما برحا في ازدياد منذ ان عرفتك . وافهمي اني لو لم اكن اقدر اكثر فاكثر المزايا التي جعلتك جديرة بمودتي واحترامي كلما رأيتك ، لما تبدلت نقمتي على زواجنا . فهذا الاحترام وتلك المودّة جعلاني كثير التردد ، شديد الحيرة . وهما اللذان دفعاني الى بعث الأمل في نفسك ، والى العمل على تقويته . وبسببهما بلغت هذا الحد الذي ابدو فيه كأني اتصرّف معك تصرفاً ضاراً . فاصفحي

١ ـ هذا ضرب من المبالغة . ـ المؤلف .

عني لاني ، بخطيئتي او بلا خطيئتي ، بعثتُ هذا الأمل في نفسك ، وما بعثته إلا لاحطـمه .

واعلمي ان هـذه المودة على اتم الاستعداد لتقوم في حياتـك بالدور الذي تريدين . فانا لست امرءاً يهجرك ، بـل انا رجل يقطع علاقته بك للحصول على مجال يستطيع فيه ان يتنفس . اني لمستعد ان اعطيك من نفسي كل ما تشتهين ، وبالطريقة التي تريدين ، ما عدا الزواج .

لك الخيار بين ان تنسيني او تعيديني اليك لدى عودتي (بعد شهرين) . وساعلم من اختيارك أتفضلين حالة معينة هي الزواج ، ام في قلبك حبٌ لرجل آخر .

اكتبي إليّ الى لوزان .

لا استطيع ان اجد عبارة ختام لهذه الرسالة . اقبلك ، وانت تعلمين كيف . وعناق أخير ... عيناي تدمعان ... لا استطيع متابعة الكتابة .

ك

من

بيار كوستال
باريس

الى

السيدة نديتو
باريس

٧ ايلول ١٩٢٧

سيدتي العزيزة !

عندما تقرئين هذه الرسالة اكون قد وصلت الى سويسرا للاقامة فيها بضعة أشهر.

حطمني الصراع الداخلي الذي اتخبط فيه منذ اكثر من شهر بسبب سولانج الى درجة لا يمكن ان تخطر في بالك. تراجعتُ امام الخوض في حديث جديد معك، لعلمي انه حديث مؤلم وعديم الجدوى؛ وتراجعت ايضاً امام وداع سولانج، لعلمي انه اشدّ ايلاماً. لا استطيع السيطرة على نفسي مثلها، فانا عاطفي، وهي ليست كذلك. ويكفيني ما عرضت لها حتى الآن من مشاهد رجل ممزّق.

تعرفين اسباب انكفائي. فالخطر كبير في ان اصبح مضطراً الى تعذيب فتاة اكنُّ لها المودّة. والاخلاق تفرض علي واجباً بان لا اطلّق زوجةً لم تذنب اليّ بشيء. واذاً، فالزواج بالنسبة اليّ قيد، وقيد يشدني الى فتاة احبها، اعني انه شرّ القيود طراً، ناهيك بالاسباب الاخرى العديدة التي ذكرتها لك.

لا ، يا سيدتي ، متى كان المرء سعيداً جداً في حالة معينة — هي العزوبة — فلا يجوز له ان يبذل اقل الجهد للاقدام على عمل يهدده بمثل هذه العواقب .

لم يسبق لي ان ناقشت موضوع الزواج مع نفسي مناقشة جدّية . ومما يشرّف ابنتك ، ولا ريب ، انها الاولى التي اكرهتني على الدخول في هذه المناقشة . إلا انها كانت السبب والضحية معاً .

لو كنت اشد ثقةً باني على حق في معارضتي للزواج ، لأجبت سولانج برفض حازم لا رجوع بعده ، عوضاً عن ان اعلّل في نفسها الأمل . واود في هذه المناسبة ان ألفتكِ الى اني لم أعِدْ بشيء قط .

واني لشديد الأسف على كوني بعثت الأمل في نفسها وفي نفسك . والويل للذين يبعثون الآمال الباطلة !

ما حيلتي ؟ فاذا كنت قد ترددت ، فلأن لهذا التردد اسباباً وجيهة . وما كان التردد إلا دليلاً على توقد الذكاء . لقد اثخنتها جراحاً ولست مذنباً . ذلك هو المجرى العادي للحياة . ولو كان وضعنا اليوم كما كان منذ اربعة اشهر لما فعلت غير ما افعله الآن . كنت صادقاً لما كنت اقول لها ان هذا الزواج ممكن ، وكان هذا اعتقادي . فلا ذنب عليّ ، ولا استطيع ان ألوم نفسي على شيء .

انت ، يا سيدتي ، وهي كنتما مثال المسايرة والصبر على غرابة اطواري . وقد بذلتما في هذا السبيل من المرونة والذكاء ما يثير شجوني ويضاعف آلامي .

رغبتي الكبرى هي ان احافظ على الصداقة القائمة بيني وبين سولانج . أيتعذر علينا ذلك ؟ اتفق لي ان حدثتك في هذا الامر قبل اليوم .

وتقبلي ، يا سيدتي ، الخ ...

ك

رافقته ، وهو في حافلة القطار ، تلك الرعشة من التأثر التي كادت تنقلب قلقاً ، دون ان تتبدّل ، او تبريها العادة الطويلة . كانت رفيقته الدائمة في جميع اسفاره .

وراح يخاطب نفسه قائلاً : « أأعود يوماً ؟ واذا عدت ، أتكسبني هذه الرحلة السعادة التي اتوخاها منها ؟ أأجد فيها من السعادة اكثر مما وجدت في الرحلة السابقة ؟ »

وكان يتخيل ان هناك فتاة صغيرة تجلس في احدى زوايا الحافلة ، ثم تهبّ لمساعدته اذ تراه مرتبكاً بين حقائبه ، فيخاطبها وتجيبه بصوت خافت .

وضع الرسالتين في دائرة بريد المحطة كيلا تصلا الى سولانج وامها إلا في صباح اليوم التالي ، وقد اصبح هو بعيداً . فما اكثر التدابير الاحتياطية التي كانت تختلط بمشاغله العاطفية الرقيقة !

وفي صباح اليوم التالي ، الساعة الثامنة ، في بلدة مادون ، قال في نفسه : « مرّ ساعي البريد بسولانج وامها منذ قليل ... » فارتجفت ساقاه ، واشتهى في اعماقه ان تصبح سولانج يوماً ما سعيدة ، وان يجد في نفسه من قوة الاحياء ما يساعدها على بلوغ السعادة الكاملة . وساور فكره شيء يمكن اعتباره نوعاً من الصلاة لاجل سولانج ، لو كان على شيء من الايمان . ورسخ في ذهنه انه مدين لها الى الأبد لأنه عنيها .

وهكذا تحقق ، بعد مرور اربعة اشهر ويوم ، الشعور الذي خامره في ٦ نوار فدوّنه في مذكراته قائلاً انه قد يغادر فرنسا يوماً ما كيلا يسمع صوت سولانج .



الجزء الثاني



ما إن وصل الى جنوى حتى شرع ينظم حياته تنظيماً اعتبره مثالياً .

اسأجر مسكناً بالقرب من ساحة « فونتاني موروزي » ، واتفق واحدى النساء على ان تقوم بخدمته المنزلية ، وكان احد المطاعم المجاورة يرسل اليه غداءه كل يوم .

كان ينهض من نومه في الساعة الخامسة صباحاً ، ويشتغل من السادسة الى الظهر، ثم يعود الى الشغل من الثانية عشرة والنصف الى الرابعة بعد الظهر . وفي الرابعة والنصف يخرج للترفيه عن نفسه حتى منتصف الليل، فيقوم في هذه الفترة بأعمال مختلفة تعجبه ، وكلها من النوع المحظور وغير اللائق .

كان ينعم بما يطيب له . فقد وضع لنفسه قانوناً خاصاً ، بمنتهى الدقة في ما يتعلق ببعض امور لا قيمة لها في نظر المبادىء الخلقية التي تتشبث بها العامة ، وبمنتهى اللامبالاة في امور اخرى تعتبرها العامة كبيرة الاهمية .

لم يعرف احداً في جنوى سوى عدد من النساء . فالنساء وحدهن كنّ يجتزن باب مسكنه . وقد قسم حياته قسمين : واحداً للعمل ، والآخر للمتعة . وهذا كل ما كان له قيمة في نظره . ولما كانت ايامه خالية من المشاغل ، وجد متسعاً رحباً للعمل وللمتعة ، وكلاهما كان يتطلب الكثير من الجهد اذا اراد المرء ان يقوم بكلٍ منهما خير قيام .

وكان في تلك الاثناء يكتب رواية ، فاضاف اليها شخصية سولانج . لم يكن موضوع الرواية يشبه في شيء ما كان يجري بينه وبين الآنسة

دنديو ، إلا انــه نقــل شخصية روايته عــن شخصية سولانج بقدر مــا استطاع من الامانة ، ثم خاطب الصورة البيانية التي وضعها قائلاً : « إيه ! يا صاحبتي ، اردتِ ان تشربي روحي ، وهــا انا اشرب الآن مادّتك . فاعلمي ان الكاتب يتدبر امره لتكون الكلمة الاخيرة له دائماً » .

وبعد اربعة ايام تلقى من سولانج وامها رسالتين أرسلتا الى لوزان ، ثم حوّلتا اليه .

جاء في رسالة سولانج :

« تقول انــك محطّم . فاجيبك اني متلاشية . ومهما تكن آلامــك مبرحة ، يا صديقي المسكين ، فهي اخف وطأة من آلامي . ان آلامك عاملة ، نشيطة ، اذا جاز لي هذا التعبير عنها ، فانت الجريح الذي ينتزع الآخرون ضماد جرحه ، وهذا أشد ايلاماً ... والله يعلم انــك تقوم بعملياتك الجراحية بلا تخدير ! »

اما السيدة دنديو فصبّت اهتمامها على تفنيد بعض الذرائع التي تسلح بها كوستال ضد الزواج ، فقالت ان العلاقة العلنية بينه وبــين سولانج قيدٌ اثقل بكثير من قيد الزواج ، وختمت رسالتها بقولهــا : « ثق بان احترامي لك كامل ، لكني اتألم حين ارى صغيرتي سولانج متألمة . اكتب الينا ، وتقبل صداقتنا » .

واعتبر كوستال هاتين الرسالتين من وحي العقل والمنطق ، فقال في نفسه : « ان سولانج وامها تراعيان الاحوال بما تتطلب من المرونة ، ولا تعقّدان الامور ، بل تعملان على تسهيلها . ولو اجزت لنفسي ان اكون صريحــاً لقلت انهما متساهلتان . وهــذا اطراء كبير لهما ، وإن يكن في نظر الناس ضرباً من الانتقاد » .

وكم اصبحت هذه المغامرة فجأة من حوادث الماضي البعيد بالنسبــة اليه ! فقد فاض الارتياح على آلامه فاغرقها . وكم مرة كان مرهقاً ، خائر القوى لافراطه في بذل الجهود الرياضية او الغرامية ، فيقول: اني احتاج

الى يومين لاستعيد نشاطي ! وما هي ساعتان حتى يصبح مرتاحاً ، زاخراً بالحيوية .

وكان يستعيد نشاطه بسرعة ايضاً على الصعيد المعنوي . فبعد ايام قليلة امضاها في جنوى لاهياً ، عابثاً ، لا يعمل إلا ما يطيب له ، اصبح على ما يرام من الطمأنينة والانشراح . لقد ربح الجولة الاولى في صراعه مع الـ « هيبوغريف » ، ربحها بفرار كان حافزه الذكاء . ولا ريب في ان للمعركة جولة ثانية تنتظره ، غير انها ما تزال بعيدة ، ومن الحكمة ان يصرف النظر عنها الآن . وهكذا اصبح انشراحه كاملاً ، لا يعكره إلا تفكيره بان سولانج تتألم .

كان من ابرز ميزاته الطبيعية انه يستطيع تحقيق سعادته كاملةً في الساعة التي هو فيها . لكن كانت لهذه الميزة رفيقة تلازمها دائماً ، وهي رغبته الملحة في اقتسام سعادته مع شخص يحبه . وهذا ما جعله يقول : « يشتمني الناس ، ويتشدقون بخرافات ملفقة عن قسوتي وشراستي ، وفي بعض الاحيان احس اني طيّب بريء كالطفل في مهده » .

ان هذه العبارة من الاقوال المنسوبة الى الامبراطور نيرون ، وقد تعمد كوستال انتحالها ليتسنى له الاعتزاز بطيبته التي يتعامى عنها الناس .

والحقيقة ان سعادته كانت تقلقه حين لا يجد من يشاركه فيها . وكم مرة ابرق الى الآنسة بيرون يأمرها بان ترسل اليه برونيه حالاً ، لأن الفتى كان يشعر بفيض من السعادة في مكان جبلي جميل ، او في غابة خضراء وارفة الظلال !

وهذه المرة ايضاً ، بعد ثمانية ايام من السعادة العارمة ، فكّر باستدعاء ابنه الى جنوى . إلا ان برونيه كان في انكلترا ، عند بعض الاصدقاء ، وكان قد كتب الى ابيه منذ حين يقول له : « اني على ما يرام من السعادة » ، فلا يجوز ازعاج من يكون على « ما يرام من السعادة » . ولهذا السبب عدل كوستال عن استدعاء برونيه ، واكتفى بان ارسل اليه مبلغاً محترماً

من المال لتبقى « سعادته على ما يرام » . وتحت تأثير هـذه الرغبة في اسعاد الآخرين، بعث بهدايا الى اثنتين من الفتيات كان يكنّ لهما عاطفة وطيدة الاركان .

وخلال عشرة ايام تلقى من سولانج اربع رسائل ، فلاحظ انها تقلده ، حتى ان خطها اصبح يشبه خطه .

كانت الرسائل الثلاث الأول كئيبة ، لكن بلا مغالاة ، تتخللها نبذات من المزاح والمرح كلما سنحت الفرصة . إلا انه اهمل الاجابة عن الرسالة الثالثة يوم وصولها ، فكانت الرسالة الرابعة انفجاراً من العتاب الفائر ، وقد جاء فيها :

« ما أصعب فراقنا عليّ ! احس ان قوة غريبة عن ارادتي تجتذبني ، تمتصني . اني في حال من الذهول لا استطيع الخروج منها إلا لأقع فيها من جديد خائرةً متألمة. اذا كنتَ قد شككت بصدق ما اكنُّ لك من العواطف، واذا كنتُ انا لم اقدر هذه العواطف حق قدرها في ما مضى، فلا يجوز لي بعد اليوم ان اتعامى عن قوة حبي وعمق جذوره . اني اقيس هذا العمق وتلك القوة بالآلام المبرحة التي اعانيها » .

من

بيار كوستال
شارع كارلو فيليس
جنوى

الى

سولانج دنديلو
ايترتا

١٩٠ ايلول ١٩٢٧

حبيبتي !

لا اريد ان تكوني شقية . والمسالة بسيطة : تعالي .

تعالي لتمضية خمسة عشر يوماً هنا . أراكِ حائرة" لا تفهمين ما اقول . فكيف افر هارباً منك ثم ادعوك اليّ ؟ ألا ، فاعلمي اني اعتبر الغائبين عني دائماً على حق ، وان غيابك انت ، بنوع خاص ، يفيدني افادة كبرى . ذلك اني ، منذ عشرة ايام ، اشتغل كالجاموس ، او بالحري كنصف جاموس ، لاني اشتغل خلال النصف الاول من النهار . ولديّ من المسكنات نوعان : العمل الذي تعرفين ولا تقدرين إلا قليلاً ، وهو يريحني وينقذني من متاعب عديدة ، ثم الكتابة . في السابع من ايلول كان قد مرّ عليّ اربعة اشهر لم اكتب خلالها سطراً واحداً بسببك ؛ اما الآن فقد افرغت ما كانت تزخر به نفسي ، فوجدت مكاناً لك من جديد . وها انا مستعد لاجعلك سعيدة طوال خمسة عشر يوماً . اقول خمسة عشر يوماً لانه من المحتمل ان اعود الى تعذيبك في اليوم السادس عشر .

سأحجز جناحاً لنا في الفندق ، فسجّلي اسمك فيـه على انك زوجتي .
اعترف بان في هذا العمل ما لا يليق بـ « فتاة حقيقية » مثلك ، لما ما لك من حسن التربية ورفعة التهذيب ، لكن هـذا من الاسباب التي يجب ان تدفعك الى الموافقة على اقتراحي .
اقبلك بحنان .

ك

ملاحظة : انتبهي ! ليس في اقتراحي أقل رغبة في الزواج . جل ما اريد هو منحك « اربعة عشر يوماً من السعادة » ، وهي المدة المذكورة في احد كتب الاحداث . وبما ان مدة اقامتك معي ستكون خمسة عشر يوماً ، فمن حقي ان احتفظ بيوم واحد لاجعلك فيه شقية .
وفي اليوم نفسه ، كتب كوستال في دفتر مذكراته ما يلي :
« الصدَقة تربط صاحبها . اذا كتبتَ الى احدى النساء : « حبيبتي » ، وجب عليك ان تعتبر نفسك مرتبطـاً نحوها بعهد لا تستطيع بعده ان تكتب اليهـا : « عزيزتي سولانج » ، دون ان تسبب لهـا حزناً عميقاً ، ونظرات جامدة من شدة الكآبـة ، ودون ان تجعلهـا تسائل نفسها بلا انقطاع : « لماذا تغيّر ؟ » كما تجتر البقرة علفها .

كتب كوستال هـذه الرسالة رداً على صيحة الاستغاثة التي اطلقتها سولانج . وما كاد يضعها في صندوق البريد حتى ساوره القلق . لم يكن يخشى العودة الى التردد في أمر الزواج ، لأن عزمـه على الرفض كان راسخاً ونهائياً ، لكنه احس ان وجود سولانج الى جانبـه طوال خمسة عشر يوماً عبء ثقيل مرهق ... واذا اراد ان يكرّس نفسه لها ، فلا بد له من الانقطاع عن استقبال الآنسة بيفيلاكوا ...

لم يكن يشعر باقل حاجة الى سولانج في حواسّه ، ولا في قلبـه ، ولا في عقله ، ولا في خياله . إلا انـه استدعاها لتكون سعيدة لدى اطلاعها على رسالته اليهـا . وكان وجه الصعوبـة في الامر تغذية هـذه السعادة وتعهدها بالعناية طوال خمسة عشر يوماً !

لما كتب اليها : « حبيبتي » (وكانت تلك المرة الاولى التي استعمل فيها هذه الكلمة في رسائله اليها) ، راح يسائل نفسه : « لماذا اكتب اليها : حبيبتي ؟ هكذا خطر في بالي ، لا اكثر . ومهما تعمقت في البحث عن سر هذه المبالغة في العطف عليها فلن أجد لها مبرراً » .

بلى ! فالمبرر لعطفه كان ان حبه لها خفّ عما كان عليه من قبل . ولما هبط مستوى العاطفة في قلبه، ارتفع مستوى التلطف بالقول .

وكان يعلل أملاً مبهماً بان تجيبـه انهـا لا تستطيع المجيء . وبلغت به الرغبة في ابقائها بعيدة حدّ التفكير بان يكتب اليها انـه مريض لا يستطيع استقبالها . غير انه لمس ما في هـذه الطريقة من السفالة وقـلة الذوق ، فاحجم . أما كفاه ما سببه لهـا من الخيبات المرة حتى ذلـك

الحين ؟ يجب ان يريحها من تعذيبه لها فترة من الوقت !

وتأخرت سولانج قليلاً بالجواب ، فخيّل اليـه ان حبها له قد خفّ وبرد ، وأحس بفيض من الارتياح يغمر نفسه ، اذ تبادر الى ذهنه انه يستطيع القضاء بسهولة على بقية العلاقة بينه وبينهـا . إلا انـه ما لبث ان تلقى الجواب المنتظر ، وقد جاء فيه :

« رسالتك ، ياصديقي الحبيب ، مـلأتني سروراً . فـاض الفرح على مشاعري حتى كدت اصبح للتعبير عنه ... لا تستطيع ان تدرك مدى محبة امي لي وعطفها عليّ . أمضينا السهرة معـاً امس نبتكر الاكاذيب ونرتبهـا للتمويه على ابناء الاعمام في تفسير اسباب رحلتي الى ايطاليا . ومن حسن الحظ ان جواز سفري كان في حقيبتي ، لا ينقصه شيء ، لاني سافرت به في الخريف الماضي الى سان سيبستيان بصحبة والدي . ساكون عندك في السابع والعشرين من هذا الشهر ، الساعة الثانية والنصف . غير اني اضع لهذه الزيارة شرطاً واحداً هو ان تتابع عملك كتصف جاموس ، اي ان لا تغير شيئاً من نظام حياتك لاجلي ، وان لا اكون سبباً لأقل ازعاج لك » .

واستمرت الرسالة على هذا النمط ، فاذا هي حافلة باللطف والعطف والبوح الصادق العفوي ، واذا بمـا فيهـا من السرور ينتقل الى كوستال حتى صمم على ان يجعل من الايام الخمسة عشر المنتظرة فترة من اجمل فترات العمر . لكنه لما بدأ يهتم باستئجار مكان في احـد الفنادق ، وبجزم ما يحتاج اليه من الثياب والادوات ، زفر متذمراً وراح يقول في نفسه : « كم اضيع مـن وقتي لأجل هذه الصغيرة ! » وأخـذ يحلم باليوم الذي ستسافر فيـه عائدة الى فرنسا ، ثم بحث عنه في روزنامتـه ووضع الى جانبه علامة ، فاذا هو يوم ١٢ تشرين الاول !

وفي ٢٥ ايلول تبين له انه نسي شيئاً مهماً ، فابرق الى سولانج يقول لها : « لا تنسي الارنب المصنوع من القطيفة ، احمليه معك اليّ . مهم جداً .

لك مودتي » .

وفي ٢٦ ابرق اليها من جديد : « لا تنسي ان تحملي معك مذكرات تولستوي والسيدة تولستوي . مهم جداً . لك مودتي » .

وفي ٢٧ ، الساعة الثانية والدقيقة العشرين ، توجه مسرعاً الى المحطة لاستقبال سولانج . فاحس انه لم يشتهِ النساء قط في ما مضى من حياته كما يشتهي الآن جميع اللواتي يلتقيهن في الطريق . ألم يكن ذلك لانه سيصبح سجين سولانج طوال خمسة عشر يوماً ؟

وفجأة ، وقعت عينه على فتاة في حوالى السابعة عشرة من العمر امام حانوت لبيع الصحف ، فقال في نفسه : « يا الهي ! هذه الفتاة تحرقني ! لمن يصدق انها عظمة من عظام ضلوعي ، وعظمة زائدة على العدد اللازم [1] . لا حيلة لي في الامر ، فهذه العظمة تحرقني ! »

وكان يلهث كأنه متعب . وفي ثوانٍ قليلة احمر لونه وبدا كأن قطرات الدم تكاد تنفر من تحت جلد وجهه .

وكانت الفتاة سوداء الشعر ، عيناها لوزيتا الشكل ، طويلة الوجه ، حتى يخيّل الى الناظر اليها ان الخط الممتد من انفها الى جبهتها يهرب

---

١ – جاء في التوراة ان المرأة صنعت من احدى ضلوع الرجل . وقد سمى بوسويه المرأة : « عظمة زائدة على العدد اللازم » . – المؤلف .

اما بوسويه فهو اسقف فرنسي (١٦٢٧–١٧٠٤) ، اشتهر بالوعظ المؤثر والرثاء البليغ . اشهر مراثيه القاها في البرنس دي كونديه ، ومرغريت دي فرانس ملكة انكلترا ودوقة اورليان . اختير مؤدباً لولي العهد فوضع كتابه الشهير « حديث في التاريخ العام » لتثقيف تلميذه . لُقب بـ « صقر مو » لصرامته ، وآزر سياسة لويس الرابع عشر في مكافحة البروتستنت . وكانت له مع زميله فنيلون الملقب بـ « اوزة كامبري » مساجلات حامية بشأن مفهوم الخطيئة والنعمة الالهية ، فتدخل البابا ، واضطر فنيلون الى الاذعان ، فكان انتصار بوسويه عليه كاملاً .

ويتوارى وراءها كخط الصورة الجانبية لوجه « ليونيل ديست »[1] الذي رسمه بيزانيلـّو[2] . فكأنها نموذج من بنات الازتيك[3] ؛ اجل ، فتاة ازتيكية من جنوى . اما صدرها فكان مسطحاً كصدر فتى غير بدين ، وهذا ما كان كوستال يمقته في المرأة ، لأنه نقيض ما كان يحب ، لكن هذا ما جعله يحب تلك الفتاة ، فخاطب نفسه قائلاً : « اني مجنون بحبها ... مجنون بها ... »

والتقى نظره نظرها ، فترنـّح في مشيته كحيوان اصيب في مقتل ، وكاد يتوقف عن السير .

لم يكن له من الوقت إلا ست دقائق ليتصدّى لها ويباشر تودده اليها . فاحس بانه مدفوع الى الرغبة في الفوز بهذه الفتاة وفي الاستيلاء عليها بقوة العاشق المستميت ، بقوة رهيبة من النوع الذي يفجّر المآسي ، طلباً للفرار من سولانج في اللحظة التي اصبح فيها قفصها يهدده بالاطباق عليـه .

وسارت الفتاة الغريبة صوب رصيف المحطـة ، فتجاوزها كوستال ونظر اليها مـن جديد بقوة وامعان ، فادارت اليـه عينيها بصراحة كما فعلت منذ قليل . وفي هذه اللحظة دخل المحطة القطار ... أتراه القطار

---

١ ـ احدى اميرات اسرة ارستقراطية ايطاليـة حكمت فيرراي ومودين وريجـو ، وآزرت الادباء واهـل الفن ، خصوصاً اريوست ، ولو تاس ، ولمعت في عصر الانبعاث .

٢ ـ انطونيو بيزانو ولد حوالى سنة ١٣٩٥ وتوفي حوالى سنة ١٤٥٠ . اشتهر بالتصاوير الجدارية ، وحفر الاوسمـة ، ورسوم الحيوانات ، وصور الاشخاص ونقشها على المداليات .

٣ ـ شعب المكسيك قبل اكتشاف اميركا على يد كريستوف كولومب . ازدهرت مملكته منـذ نزوله في وادي مكسيكو عام ١٣٢٥ حتى وصول الغزاة الاسبان سنة ١٥٢٠ ، وكان على جانب مرموق من الحضارة والثقافة والنظام السياسي ، اما ابجديته فكانت صورية شبيهة بالهيروغليفية .

الذي يحمل سولانج ؟

كانت الساعة قد بلغت الثانية والدقيقة السادسة والعشرين . ومن المحتمل ان تكون ساعته متأخرة . وكان لا يستطيع ان يدع « حبيبته » تنزل من القطار لترى نفسها وحيدة في المحطة ، تبحث عنه بين الناس فلا تجده ... فهذه فظاعة لا تطاق ! لكن كان من الفظاعة ايضاً ان يخسر تلك الفتاة ، اذ كان من المحتمل ان يظفر بها لو التقاها قبل عشر دقائق .

ابتعد عنها ليسأل احد الموظفين عن القطار الذي وصل ، فلما اجابه الموظف : « لا ، يا سيدي ، ليس هذا القطار آتياً من فرنسا » ، عاد يعدو وراء فتاته الساحرة ، فاذا بقطار آخر يطل من بعيد ... فكم بقي من الوقت لتصل الحافلة التي تحمل سولانج وتقف في المحطة ؟ خمس وثلاثون ثانية ؟ أتكفيه هذه المدة ليتصدى لفتاة ازتيكية الملامح ، وليقول لها : « اناشدك باسم الله ان تساعديني على الالتقاء بك مرة اخرى ، اعطني موعداً » ، واضعاً في نظرته القوة الكافية للسيطرة ، والقدر الكافي من التوسّل ، والصدق ، والرغبة الاكيدة ، الخ ... الخ ... لكي تلين ، الخ ... الخ ... ؟

اراد — مدفوعاً بما في نفسه من الفساد والفسوق — ان يقوم بهذا العمل ، وسولانج على مقربة منه ، على مسافة مائتي متر ، او مائة متر ، وهو في متناول نظرها ، فراح يتمتم : « يا الهي ! يا الهي ! ما اشد رغبتي في مضاجعة هذه الفتاة ! يا الهي ، ألهمني ! يا الهي ، اغثني ! ... »

واحس في قرارة نفسه انه يجثو على ركبتيه هامساً : « ساجعلها سعيدة طيلة حياتي » .

وفي هذه اللحظة اخذ القطار يسير بطيئاً الى جانب رصيف المحطة ، ثم توقف . فكاد كوستال يفقد صوابه ، فزفر متألماً : « ويلاه ! لن احصل عليها ابداً ! » ولمع في عينيه شيء شبيه بالدموع ، ثم تبرم بسولانج ونقم عليها نقمة ضارية هوجاء ، واستدار بنزق وابتعد عن الفتاة المجهولة .

فلتغرب عنه كيلا يراها مطلقاً ، لعله يجد في تواريها بعض الهدوء ! لا ، لا يجوز ان يرى هذا الوجه بعد اليوم ، لعله ينساه .

ومن باب احدى الحافلات ، اطلّ وجــه آخر ، كان بالامس ارض الميعاد كوجــه ابنة جنوى اليوم ، ثم اصبح أليفاً وفي متناول اليد ، بل في مجرى الحياة ...

لن تدري الآنسة دنديو كيف خانهــا كوستال في تلك اللحظــة ، وكيف خدعها ولعنها حين التقته وهي زاخرةٌ بالأمل والسرور ، وجاءت تلبي دعوته .

وفي وسط الجمهور المزدحم ، طبع على خدها قبلة قصيرة كقبلة الزوج ، ثم شرع يبحث عن حمّال لنقل الحقائب ، مع ان هذا النوع من الاهتمام كان في غير اوانــه ، لان سولانج كانت تحمل حقيبة واحدة صغيرة كحقائب الطالبات . إلا ان كوستال اراد ان يشغل نفسه بشيء ما لأنه كان مرتبكاً لا يجد موضوعاً يحدث به ضيفته .

ولما دخلا الفندق ، حدثت حولهما حركة مشبوهــة ، وبدا الفتور على بعض الوجوه . فمنذ ايام ، لما جاء الى هذا الفندق وسأل : « أأستطيع ان استأجر غرفة ؟ » احس المدير والخدم ان نيته غير صافية ، فابغضوه .

وانحنت سولانج على السجل لتدوّن اسمها ، فقال كوستال في نفسه : « كم احب ان اراها وهي تكذب ! » وكان يعلم انها ستكتب : « سولانج كوستال » . وقد بدا وجههــا جميلاً هادئاً وهي تقدم على ارتكاب هذه الكذبة . ونظر اليهــا المدير بكل انتباه وهي تكتب اسمهــا ، وتهامس البّواب والخادم وهما ينظران اليها ...

وعلى السلم المؤدي الى الطابق العلوي ، قال لها كوستال :

— انك تكذبين كالملائكة ! كنتُ اخشى ان لا تتمكني من الاقدام على هذا العمل ، فالعجز عن الكذب مرض وبيل .

وبدا عليه الارتياح ، فاجابت :

– استطيع ان اخدع الذين لا ابالي بهم ، لكني اعجز عن مخادعة رجل احبه .

– وانا مثلك ، غير اني استطيع ان اخدع من لا اكنُّ له إلا نصف محبتي .



لم يخطر في بال الآنسة دنديو لحظة واحدة ان كوستال استدعاها الى جنوى ملاطفةً لها او رأفةً بها ، فراحت تقول في نفسها : « لم تنقضِ عشرة ايام حتى اضطر الى استدعائي ، فهل ثمة برهان عن حاجته اليّ اوضح من هذه الدعوة ؟ »

فكيف تستطيع الشك بان الزواج هو النتيجة الحتمية لعلاقتها بكوستال بعد ان رسخت في ذهنها فكرة حاجته اليها ؟

وتطور تفكيرها في هذا الاتجاه حتى غدت تحسب فراره الى ايطاليا نعمة من السماء . ففي ٨ ايلول كان « الهيبوغريف » في اعماق البحر ، مستلقياً على ظهره ، يعالج سكرات الموت . وفي ٢١ ، اصبح متعافياً قوياً ، يسبح بسرور على سطح الماء ، فسمحت السيدة دنديو لابنتها بالسفر الى ايطاليا بعد تردد، وهي تقول في نفسها : « متى ساكنها في الخارج خمسة عشر يوماً تصبح القضية في منتهى الوضوح . ما زلت حتى الآن قادرة على تجاهل طبيعة علاقتها ؛ اما بعد هذه الرحلة فتجاهلها غير ممكن. أفيجرؤ بعدئذٍ على التهرّب ؟ لا اظن، لأن تهربه هذه المرة يكون اهانة سافرة » .

وتم الاتفاق بين السيدة دنديو وابنتها على ان لا يُفتح موضوع الزواج مطلقاً . فكان على سولانج ان تتظاهر بانها تخلّت نهائياً عن حلم الزواج بعد فرار كوستال الى جنوى ، وبعد الرسالتين اللتين كتبها اليها والى امها . واذا كانت قد لبت دعوته ، فلكي تفتح معه « صفحةً جديدة في كتاب السعادة » ، قبل انصرافها الى الاهتمام بطلّاب يدها ، بقدر ما تجد في حزنها على الحلم المتلاشي متسعاً لهذا الاهتمام .

واكتشفت السيدة دنديو مـا هو افضل من هـذه الوسيلة : فكّرت باثارة غيرة كوستال على يد طلّاب زواج يتهافتون على سولانج . واليك بالطريقة التي راودت خيالها :

كانت سولانج ، منذ سنتين ، قد رفضت الاقتران بمهندس يدعى جان تومامي . غير ان السيدة دنديو كانت تحب الغموض وتنجذب اليه انجذاب ابرة البوصـلة الى الشمال ، فلمـا نقلت الى المهندس رفض ابنتهـا أبت ان تكون جازمة ، وقالت له ان « المستقبل لا يخلو من الأمل » ، وان سولانج ما تزال صغيرة السن ، و « ربما تغيّر رأيها يوماً ما ... »

وبعد تلك المحاولة ، ظـل المهندس العنيد يزور السيدة دنـديو مرةً واحدةً في السنة ، ليعلم ما آلت اليـه حـاله مع الفتاة . فظلت القضية محفوفة بالابهام ، وبقي الباب مشقوقاً للمفاوضة . فاوعزت السيدة دنديو الى ابنتها بان تقول لكوستال : بما انها فقدت آخر امـل بالزواج بمـن تحب ، فقد عزمت امها على الاتصال بالسيد تومامي لانها اصبحت مضطرة الى القبول به زوجاً لابنتها .

أجفلت سولانج اذ اسمعتها امها هذا الاقتراح . وبعد ثمانية ايام ، لما قالت لكوستال في جنوى : « لا استطيع ان اخـدع رجلاً احبّـه » ، كانت صادقةً . وبينما كانت امهـا تحـاول اقناعها ، جعلت تحـدّق الى السجادة الممدودة على الارض ، وقد بدا تصلّب ارادتهـا في ملامحهـا ، فراحت تردّد : « لا ، لا اريد ان اكون كاذبة معه » .

فبذلت السيدة دنديو جهداً جديداً قائلة :

– ليس ما اقترحه عليـك كذباً ، يا صغيرتي . فانت تعلمـين ان تومامي يزورني مرةً كل سنة ، وفي شهر تشرين الاول بالضبط . وسيأتي بعد شهر ، فلا تكونين كاذبة اذا قلتِ لكوستال : « سيأتي هذا الشاب قريباً ليقابل امي » .

– لا ارى بأساً في ان اردد له مـا تقولين ، لكني لن اقول له اني

سأرضى بالزواج بتومامي ، لأن هـذا الزواج لن يكون . لم اقترن بـه يوم كنتُ خاليـة القلب ، ولست مستعدة ان اقترن بـه الآن ، فاليوم اقول لك : إما ان اتزوج بكوستال ، او لا اتزوج ابداً .

– في وسعك ان تقولي له : « بما اني مضطرة الى التخلّي عنك ، فمن المستحسن ان تعتبر هـذه الايام الخمسة عشر في جنوى خاتمـة علاقتنا . فامي تعتقد ، بعد كل ما جرى ، ان الحـل الوحيد الموافق لي هو ان اتزوج في اقرب وقت . وهي تريـد ان يتم كل شيء هـذا الشتاء » . فهل في هذا شيء من الكذب ؟ وما يدريك اني سأعمل مـا قلت اذا امعن كوستال في المماطلة ؟

قالت سولانج : سارى ما يكون .

وراحت تجتر اقوال امها في ذهنها ، وقد امتلأ بها رأسها .



كان الجناح الذي استأجره كوستال في فندق جنوى مؤلفاً من غرفتين كبيرتين يفصل بينها حمّامان ومدخل . وفكر كوستال بان يصطحب سولانج للقيام بنزهة بعد ان تكون قد استحمت ، اذ خيّل اليـه انهـا تفضّل التنسّم بهواء ايطاليا على الاستسلام لمداعباته التي يمكن تأجيلها الى المساء . ورسخ في ذهنه انهـا لا تستاء من هـذا التأجيل اذا ذكرت كم كانت فاترة في لقائها الاخير . إلا انه ذُهل لمـا رآها تقبل عليه ، بعد الاستحمام ، بثياب النوم ، لا بثياب الخروج الى المدينة .

كانت عارية تماماً تحت ثوب خفيف يكاد يكون شفافـاً ؛ وفي وسط جسدها ، وراء غلالة شقراء ، بدت بقعة ساحة كحفنة من الطحلب تحت طبقة رقيقة من الماء .

ولا حاجة بنا الى شرح مـا جرى ، فقد تصرّف كوستال بقوة ونهم كأنه اراد ان يقبض دفعة واحدة على جميع الاجيال الآتية .

في احد فنادق « أنفرس » [1] كان تريستان وإيزولت [2] يظلان متعانقين في السرير ، فما الى فم ، طوال قداس احتفالي . اما كوستال وسولانج فبقيا في السرير مدةً تزيد ساعة على المدة التي تستغرقها صلاة الموتى في سوليم [3] . فقد استلقيا في الساعة الثالثة والنصف ، ونهضا في الساعة التاسعة .

انتشلها من بئر الآلام لتحيا الى جانبه ، لا بضع ساعات عابرة ، بل ليل نهار وهو وحده معها وحدها ، وهما متقاربان متحدان في حلقة من الجماعات الغريبة .

كان قد طلب اليها ان تدوّن اسمها في سجل الفندق على انها زوجته ، فكتبت : « سولانج كوستال » ، وكان هذا اسمها الروحي . وها هي الآن « سيدة » في نظر الجميع ، لا تختلف حالها عن حال عروس تقوم برحلتها التقليدية في شهر العسل تحت شعار ازهار البرتقال .

ومنذ ان عرفت كوستال لم يبلغ املها قط ما بلغه في تلك الفترة من الثقة بالحصول على ما تريد ، فقد بلغت اليقين المطلق بالنجاح . وكان حبها ينتظر ان يرى الطريق الطويلة مفتوحةً امامه ليطلق لنفسه العنان ، فاذا

---

١ ـ مدينة بلجيكية اشتهرت بصناعة الألماس ، وهي من اكبر المرافىء الاوروبية ، ومن اهم المدن الصناعية .

٢ ـ بطلا خرافة فرنسية يرقى تاريخها الى العصور الوسطى ، وخلاصتها انهما احتسيا شرابا فنشأ في نفسيهما حب متبادل ابدي ومشؤوم ، فما استطاعت قوة في العالم التفريق بينهما ، لا الاضطهاد الذي انزله بهما ملك كورنواي ، وهو زوج ايزولت ، ولا دسائس امرأة ضارية تحب تريستان اسمها ايزولت البيضاء اليدين . وظل الحبيبان متحدين حتى جمع الموت بينهما الى الابد .

٣ ـ بلدة فرنسية اشتهرت بدير كبير بني فيها خلال القرن الحادي عشر ، ورمّم في القرن التاسع عشر . وهو يعتبر معهداً للتراتيل الدينية ، وفيه تماثيل أثرية ترقى الى القرن السادس عشر ، واشهرها تمثال « وضع المسيح في القبر » .

به ينطلق كمركبة تزلج على سفح تكسوه الثلوج .

لم يرهـا كوستال قط كما رآها في ذلك الصباح ، فقد كانت تذوب رقةً وحناناً ؛ وكان لها وجه امرأة سعيدة يتألق بالغبطة بين امواج شعرها المحلول المبعثر ، كأن هذا الشعر شخص ثالث رقد بينها وبين كوستال الذي ملأ يده بأضمومة كثيفة منه .

اما الشخص الثالث الحقيقي فكان ذلك الارنب المصنوع من القطيفة ، وقـد أُلقي على المخدة مستنداً الى رأس سولانج . وكان أجرب يكسوه الغبـار – وليس من اللائق ان نصفـه بالقذارة – تهدّلت احدى اذنيه على فقمه ، وضاعت احدى عينيه فحلّ محلّها زرّ حذاء .

وكثيراً مـا كان كوستال يقبّل هذا الارنب عوضاً عن ان يقبل سولانج ، او تلتقي الافواه الثلاثة في قبـلة واحدة ، وهذا مـا جعل كوستال يطلب الى الفتاة ان تحمل الارنب معهـا ، لانه كان يعلم كيف يستعمله لاعطاء المطارحات الغرامية نكهة جديدة .

وكان من عادته ، في بعض الاحيان ، ان يضع على وجه صديقاته ، في اثناء الوصال ، أقنعـة تمثل وجوه حيوانات ، فيشعر انـه تفوّق عـليهن اشواطاً ، وخرج من نطاق الجنس الضيق . وما لبث ارنب سولانج ان اصبح في نظره واحداً من تلك الوجوه الحيوانية ، فـاستولى على خياله وطرد منه سولانج . وفي هذه الفترة اتخذت شهوة كوستال طابع العبادة الوثنية ، فاحس انه لم يعد سيد الخرافـة التي اطلقهـا من عقالها ، وانه اصبح اسير ما فيه من النزعة الفريجية [1] ، فارتعدت فرائصه هلعاً ، واتسعت عيناه من شدة الخوف ، فوضع الارنب على احد المقاعد وغطّاه ببيجامته فافرخ روعه .

---

١ ـ ديانة وثنية قديمة كانت تقام فيها شعائر سرية تكريماً للربة سيبيل ، الهة الارض والحيوانات . والمقول ان لهذه الديانة طقوساً كان يتم فيها تواصل الحيوانات والبشر .

وكانت سولانج تبعد رأسها عنه قليلاً كل ثلاث دقائق وتنظر الى عينيه بامعان ، ثم تقبله وتداعب وجهه وتعطيه من القبل اكثر مما يعطيها حتى خيّل اليه انه ملاكم مغلوب على امره . وكان يحس دائماً بيديها الطويلتين عليه ، في اماكن لا تنتظر الملامسة ، كخاصرته ، وكتفيه ، فاذا به يشبه تلك التماثيل القديمة التي بقيت عليها ايدٍ رخامية انفصلت عن تماثيل اخرى مفقودة . وكانت تدس فيه رأسها على طريقة القطط ، وتضعه في ابطه ، ثم تلتصق به فجأةً بقوة واصرار ، وهي ترسل أنيناً خافتاً ، فكأنها كانت تئن من شدة الحنان .

ولما شرع في امتلاكها للمرة الثانية ، خيّل اليه ان وجهها اصبح شاردا ، فقال لها : « ماذا ؟ هل بدأت تشعرين بشيء في هذه اللعبة الماجنة ؟ » فاجابت : « اصبحت اكثر اهتماماً بهذا الامر مما كنت في البدء ».

واذ رأى كوستال انه لا يجوز ان يُطرح عليها اكثر من هذا السؤال في هذا الموضوع ، اعتبر جوابها كافياً ، بل اعتبره مفعماً بالحرارة ، فاحتدمت حماسته من جديد ، وبرهن لها ، للمرة الثالثة ، انه راض عنها ، فكانت تمد لسانها كالكلب وتقدمه له .

ولما نهض من السرير احس بالجوع ، فقال لها :

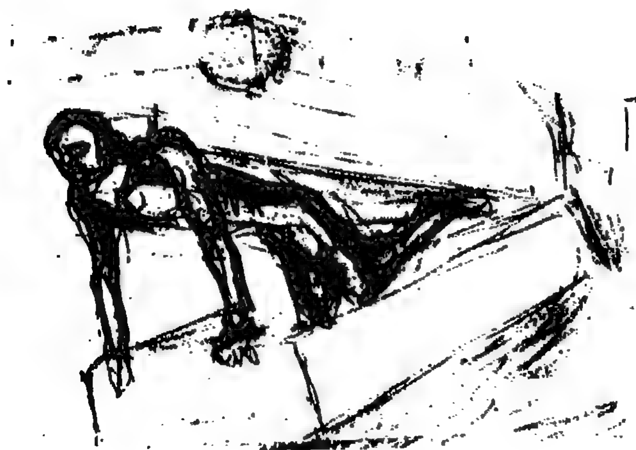
– هيا بنا الآن الى المائدة بسرعة !

فتنهّدت تنهيدة صغيرة كأنها صيحة خافتة ، ثم قالت : « ما اعظم حبي لك ! » كأنها ارادت ان تقول : كم اوّد ان نبقى كما كنا حتى يأتي الليل !

وكانت شفة كوستال تنزف دماً على أثر عضة جادت بها الحسناء ... وكان وجهه متورماً من شدة التقبيل ، وقد احس بانه طائش كمصارع تلقى لكمة شديدة .

واخطأ ، ففتح باب حمام سولانج عوضاً عن ان يفتح باب غرفته ،

فرأى آثار قدمي الفتاة مطبوعة على منشفة مبلولة وملقاة على الارض . وتذكر انه قبّل جميع اجزاء جسدها ، ما عدا قدميها ، فخامره شيء من الاسف والكآبة لأن هذه المتعة فاتته .



كان بين كوستال والحيوانات، في مختلف مراحل حياته، نوع عجيب من التجاوب الغامض يصعب تفسيره كأنه ضرب من السحر. ففي الثانية عشرة من عمره، كان يرى في الحلم دباً يدنو منه، فيبتسم له. وكان الدب يفهم تلك البسمة ويقرأ فيها ما يجول في خاطر كوستال، ومعناه: « لا تظن اني لا اريد بك شراً وحسب، بل ثق باني اريد لك الخير، لأني افهمك فهماً تاماً ». وربما كان في هذا « الفهم التام » ادراك من الولد لحقيقة ما، بالحدس او بطريقة اخرى غير مألوفة. ولم يكن الدب يهاجمه، بل كانا صديقين متعاونين.

ولنلاحظ في هذه المناسبة ان الولد كوستال كان يحتقر « كتاب الادغال »[1]، فمن كان مرهف الاحساس مثله لا يطيق شعوراً يختلف عن شعوره في موضوع عزيز على قلبه. ولا عجب اذا كان كيبلنغ في نظره كاتباً سطحياً أغلقت دونه دنيا الحيوان، فما ادرك منها إلا القشور. غير ان الكاتب البريطاني حاول التوغّل في هذه الدنيا الغامضة، فأوّل طبيعة الحيوانات تأويلاً سطحياً، وقصّر تقصيراً فادحاً في فهم العلاقات العميقة التي قامت بينها وبين موغلي.

---

١ ـ مصنّف شهير يقع في جزئين، وضعه الكاتب البريطاني رديارد كيبلنغ (١٨٦٥ ــ ١٩٣٦) وروى فيه قصة طفل اسمه موغلي فقدته امه في ادغال الهند وهو رضيع، فعاش بين الذئاب كأنه منها، وعاشر الحيوانات مقتبساً عنها مختلف اساليبها في الحياة. وقد اعجب المخرجون السينمائيون بهذه الشخصية فلسجوا على غرارها بطلهم « طرزان »، صديق الحيوانات وسيد الغاب.

ولما تجاوز كوستال مرحلة الفتوة واصبح رجلاً ، ظل معجباً بقدرته على ترويض الدب بابتسامة لطيفة . وكان في الرابعة والثلاثين من العمر ، اذا التقى كلباً شارداً وشرساً في غابـة مقفرة ، لا يفكر مطلقاً بالانحناء ليلمّ حجراً ، او يعمل اشارة الصليب باتجاه الكلب ليهرب نابحاً مذعوراً – لان جميع الحيوانات تكره المسيح كرهاً عميقاً – ، بل كان يقول في نفسه : « اذا مُـرّ ولم ينظر اليّ ، فلن انظر اليـه . واذا نظـر اليّ ، نظرت اليه لا اكثر ، فلا يعضني » . وكان هذا الاعتقاد راسخاً في نفس كوستال على اساس من الايمان العميق حتى بلغ منتهى الغرابة . وكان ، امام الكلب الشرير ، يتذوق لذة مثلثة : ١ً – لذة الغرابة ؛ ٢ً – لذة الثقة بالقدرة الشخصية التي تبعث الكبرياء لا بالكلب الذي يمثل الحب وحسب؛ ٣ً – لذة المجازفة ، لأنه كان يعلم انه يجازف باتكاله على قوة ابتسامته .

وكان على اثر عودته من الحرب قد اتصل بمروّض للحيوانات يدعى السيد « ب » وارتبط معه بصداقة وثيقة العرى ، فتعلم منه أن الترويض باللين واللطف بدأ في المانيا منذ حين واحرز نجاحـاً كبيراً حتى اصبح قاعدة . فقد نشأ بين بعض المروّضين الالمان وحيواناتهم الضـارية ، أمن الذكور كانت ام من الاناث ، نوعٌ مـن العلاقات الودية تكاد تكون غرامية . وبفضل هذا التجاوب العاطفي اصبحت الضياغم تعمل مدفوعةً بالحب ما كانت تعمله في ما مضى بتأثير الخوف .

ودخل كوستال يوماً الى احد اقفاص الحيوانات مع صديقه السيد «ب»، وبعد اربع دورات او خمس من المراقبة ، تعلم شيئاً من اساليب الترويض باشراف المروّض ورعايته المتيقظة . وكان كوستال يعتقد انه لو وجد الوقت الكافي لممارسة الترويض بمثابرة واهتمام لأحرز امكانات كبيرة في هذا المجال . فترويض الضواري ، في نظره ، عمل غايته السيطرة ، يقوم على دعـائم من الشجاعة ، والذكاء ، والتعاطف الصافي ، والتأثر الجنسي الذي يفضح نفسه بمظاهر جسدية واضحة . ومن المحتمل ان تنقلب هذه المجموعة من

العوامل الى عنف وضراوة بين لحظة واخرى ، وهذا ما كان يوافق طباع كوستال وينسجم معها الى اقصى حد .

وكان للكاتب تأثير على الاولاد شبيه بتأثيره على الحيوانات . وكلمة « اولاد » ، التي اضطررنا الى استعمالها في هذه المناسبة لاننا لم نجد افضل منها ، تعني الفتيان والفتيات بين الثانية عشرة والسابعة عشرة من العمر . فقد كان كوستال يشعر بانه يستطيع السيطرة على هؤلاء وحملهم على عمل ما يريد . فبين الفتيان والفتيات فهود صغيرة لا تختلف كثيراً عن فهود السيد «ب» ، وهي تتطلب ، الى مدى بعيد ، معاملةً شبيهة بترويض الضاريات .

وكاد يكفيه احياناً ان يتبادل النظر في الشارع مع ولد في الثانية عشرة من العمر لا يعرفه ، ليقرأ كل ما يجول في نفسه ، وليُفهِمَه انه عرف مكنوناته ، حتى ان الولد كان يحمر خجلاً ويشيح بوجهه عنه . فيضطر كوستال الى ادارة وجهه وتحويل نظره لئلا ينتبه ذوو الولد الى ذلك الحوار الصامت ، ويؤوّلوه على غير حقيقته ، وهم في سخافتهم وغلاظة عقولهم من ابعد الناس عن هذه الحقيقة .

قبل الحرب ، اثار في بعض الفتيان ، عن غير قصد ، عاطفة جذبتهم اليه بقوة تكاد تكون غرامية . وكان من المحتمل ان تستفحل هذه العاطفة في نفوسهم فتؤدي الى اضطرابات وخيمة العواقب ربما دفعت بهم الى الفرار من البيت الوالدي ، او الى السرقة والتمرّد على الاهل ، لو لم يبادر كوستال الى تداركها ؛ فقد بذل جهده ليستعمل تأثيره في وجوه اقل ضرراً مما كان يستطيع .

وبعد تلك التجارب اصبح يجتنب الاولاد ، حتى الذين ينتمون الى اسرته . فكان لا يوجّه اليهم الكلام إلا في ما ندر ، ولا يلقي عليهم إلا نظرة سريعة عابرة اذا التقاهم . إلا انه اطلق العنان لتأثيره في ابنه حتى بلغ الذروة . وعندما كان يفكر به قائلاً : « والسبب واضح ... » لانه كان يوجهه توجيهاً يكاد يكون كاملاً .

وكما اجتنب الاولاد ، أخلى بيته من الحيوانات ، بعد الحرب ، لشعوره بانها تشغل من حياته شطراً كبيراً وتصبح في ذهنه ضرباً من الوسواس .

وفي بعض الاحيان كان كلّ من الولد او الحيوان لا يكاد يشعر بسيطرة كوستال عليه حتى يتتابعه القلق ، ثم الخوف ، ثم الرعب ، فلو رأى كلباً او هراً لم يره من قبل ، ونظر اليه من دون ان يهدده بشيء ، لهرب الحيوان مذعوراً خفيض الاذنين . وكان اذا نظر الى قرد نظرة عابرة ، اطلق القرد صيحة خوف وهرول الى مأواه ، وليس في وجهه شيء من الغضب ، إلا ان نظرته تنم عن شعور غير عادي .

واتفق له ان التقى ، في الطريق ، ثلاث مرات او اربعاً ، ولداً من المستخدمين في المؤسسات التجارية ، ونظر اليه بإمعان ، فتردد الولد بغتة ، وانقطع عن الصفير ، ثم توقف متظاهراً بالنظر الى واجهة احد المتاجر ، ثم قفل راجعاً ، واذ رأى كوستال يلتفت ليرى نهاية هذه المناورة ، اطلق ساقيه للريح . وهكذا الارنب البري ، اذا سمع زعقة الصقر في الجو ، راغت عيناه وفرّ مرتعداً من شدة الاضطراب .

ومن ذكرياته التي لا تُنسى حكاية تلك الفتاة البالغة الثالثة عشرة من العمر ، حفيدة الطاهية المستخدمة عنده ، وقد جاءت من الريف لتزور جدتها ، فالتقته في احدى الغرف ، فاذا هما وحيدان . فما كاد يوجّه اليها الكلام حتى استولى عليها الرعب ، ففتحت باب الخزانة وقد حسبته مخرجاً ، فارتطمت بالحائط وهي ترتعد هلعاً ، حتى خيّل اليه انها ستتسلق الجدار كالمصابين بالهذيان الكحولي الرهيب . ولو لم تجد باباً تفرّ منه الى البهو لحلّت بها ازمة عصبية وخيمة العواقب ، مع انه لم يكن ثمة مبرر لهذا الخوف لان غول شارع هنري مرتان لم يمسها ، ولم يخاطبها إلا بقوله : « أمسرورة انت برؤية جدتك ؟ »

ومن الممتع حقاً ان يعود المرء الى هؤلاء المرتعبين اذا لم يكونوا قد فروا فراراً نهائياً ، وان يعالجهم حتى ينقلبوا من فهود الى اغنام ، فهذا

عمل في غاية الروعة ، وفيه يجب ان يكون المرء كالسحرة الهنود مائة بالمائة . فعملية الاغواء وما تتطلبه من الصبر الطويل جديرة بالاهتمام ، لانها تسبغ على الحياة متعة كبرى عندما يحاول احدهم تسلق الحائط ليهرب منك ، ثم يعود اليك لا يقوى على الاستغناء عنك .

انها ذكريات انسانية جميلة ، من شأنها ان تجعلك مطمئناً هادئاً وانت على فراش الموت .

وكانت قدرة كوستال على السيطرة تقف عند حدود الاحداث والحيوانات . ولم يكن له اقل سلطة على الرجال ولا على النساء المختمرين (ما اجمل هذه الكلمة تقال في الرجال والنساء كما تقال في الجبنة !)

اما في اعماله التجارية فلم يكن له سلطان غير ما يستمده من قوة ارادته ، وبراعته ، وقسوته ، ونفاقه ، وهذه كلها من الوسائل العادية التي يبلغ بها المرء ما يريد ويجتنب ما لا يريد .

وفي اصطياده للنساء كان يتسلح بشهرته وقدرته على الاقناع ، والصبر ، وهذه من الوسائل الطبيعية المألوفة . وقد حلت به في هذين المجالين هزائم عديدة . ولا بد من الاشارة الى ان قدرته كانت تنهار احياناً وتتلاشى كما تهدأ الريح ، حتى بالنسبة الى الاولاد والحيوانات . ويا لها من فترات هادئة كئيبة ، كان يضطر خلالها الى ان يكون رجلاً عادياً ، فيخيّل اليه انه في غربة !

ولا بد من الاعتراف بانه لم يكن يعتبر هذه القدرة مجالاً للغرور ، بل كان يعتقد ان لا فضل له اذا كان الاشخاص الذين يسيطر عليهم ضعفاء الاعصاب ، هزيلي الارادة .

وفي عالم الاحياء الوسيع كان الاحداث والحيوانات المخلوقات الوحيدة التي لم يشأ قط ان يلحق بها ضرراً ، بل اراد لها الخير دائماً . وربما كان هذا العطف ناجماً عن سر تسلطه عليها ، فقد كان يحس بانه يريد لها

الخير . ويعود سبب هذه المحبة ، ولا ريب ، الى ما في هذه المخلوقات من اللطف والرونق ، والى انهـا تتصرف تصرفـاً طبيعياً خاليـاً من التصنع والرياء . فكيف يمكن الاستياء منها وهي خالية من الادعاء ؟

لو راقبنـا رجلاً وامرأة « مختمرين » لرأيناهمـا يدعيان ويمعنـان في الادعاء ، وهما دون ما يجب ان يكونا تسع مرات على عشر ، فلا عجب اذا اثارا عليهما بحق غضب كل من لا يريـد العدول عـن تكوين فكرة عالية قليلاً عن الجنس البشري . غير اننا لا نستطيـع ان نبغض ولا ان نحتقر الولد او الحيوان ، لاننا لا نستطيع القول بانهما دون مـا يجب ان يكونا : انهما يتخلصان من هذا الاعتبار باعجوبة .

وكان كوستال مرهف الشعور بعرفـان الجميـل للاولاد والحيوانات ، لانه عرف ، بفضلهم ، ما هو العطف — العطف الذي كان في نظره ميزة العصر الذهبي الاولى . ورسخ في نفسه عرفـان الجميل لانـه ، الى جانب الاولاد والحيوانات ، كان يستطيع الاسترخـاء والاستراحة مـن القساوة المستعدة للشر الـتي كانت ترافقه دائمـاً في جميع مواقفـه العادية مـع امثاله ، حتى بات يعبر عن افكاره ، في هـذا الصدد ، تعبيراً مغرقـاً في المبالغة .

قال في الاولاد والحيوانات : « انهم يفتدون البشرية » .

وقـال ايضاً انـه لو كان قادراً على عمل شرّ كبير ، كأنْ يقصف مدينة بالقنابل ، لما فعل خوفاً منـه على الاولاد والحيوانات . واذا فعـل مضطراً فبكثير من التألم والأسف .

واصبح القول بان الاولاد والحيوانات يفتدون البشرية من خرافاتـه الحبيبة . واغرب ما في الامر ان ذهنه تمخض بهذه الفكرة يوم كان فتى مراهقاً .

وعلينا ان نتوسع قليلاً في هذا الموضوع ليصبح القارىء مستعداً لرؤية المشهد التالي .

ما كاد كوستال وسولانج يحجزان طاولة في حديقة احد المطاعم المنتشرة في ضواحي جنوى ، ليتناولا طعام الغداء ، حتى خرج من مبنى المطعم رهط من القطط وراح يقفز زاحفاً اليها .

وكان الزحف متبدد الخطة ، فتوقف احد الزاحفين ، في قلب الحركة الجماعية ، ليلمس احدى قوائمه . وكان في المطعم كثيرون من الزبن يتناولون طعامهم ، إلا ان القطط كانت تتحرك كأنها لم تكتشف سوى كوستال وسولانج .

وتحرك قط وردي اللون ، فما تردد ولا مهّد لهجومه ، بل قفز الى ركبتي سولانج ، ثم تسلق صدرها واستقر على كتفها ، ودس رأسه في قبعتها فزحزحها وشوّش وضعها ، ثم رفع ذيله عالياً كيلا تستطيع انزاله ، ليريها قفاه الشبيه ببدر صغير . وبعد هذه العملية الناجحة ، لم يبق عليه إلا ان يضع قفاه المستدير تحت انفها تماماً .

اما القط النرجسي اللون فكان قريدساً قطياً ، ومثالاً في الهزال والنزق ، جمع بين صفات البرغوث والقريدس والعنكبوت . وقف على قائمتيه الخلفيتين وامتخط في كف كوستال المتدلية ، ثم قفز الى الطاولة ليكون قريباً من وجه الكاتب .

ولما حاول كوستال ان يبتعد عنه قليلاً ليسرّح انظاره في الربوع المجاورة ، انتصب القط على حافّة الطاولة ، ومدّ قائمتيه الاماميتين كأنه يريد ارغامه على البقاء حيث هو ، ليبرهن له ان الحب القطي ليس كالحب الروحي ، اي انه لا يستطيع الطيران ، ولو استطاع لطار منذ بداية الحفلة وجاء يداعب وجه من يحب .

وكانت ترافق هذه الحركات جلبة من الهمدرة حتى احس كوستال ان حلقه يكاد يلتهب . وكلما كانت ترتفع ضجة في داخل المطعم ، كان القط يلتفت الى مصدر الضجة وينقطع عن الهمدرة .

قال كوستال في نفسه : « حتى القطط تشعر بشعور الرجال ، فيكفي

ان تسمع ضجة تذكرها بالبيت الزوجي حتى ينقطع خيط سعادتها ! »

ومن المدهش في القط انه يقف على قائمتيه الخلفيتين كالمنزة . وليس من المستغرَب ان يفعل ذلك عندما يناديه صاحبه ، او عندما يداعبه . اما ان يرتفع عشرة امتار كأنه قط مدرّب على الالعاب البهلوانية ، ليرى رجلاً محبوباً غاب عن نظره ، فهذا دليل على شعور مرهف لا يخلو من الهستيريا .

ولما دسّ القط الوردي رأسه في رقبة سولانج ، لاحظ كوستال ان الفتاة ارتعشت قليلاً ، ثم سمعها تقول ان رائحة ذلك القط كرائحة الفانيليا ، وهي رائحة القطط عندما تكون صغيرة ، حسنة الصحة ونظيفة . وقد برهنت في الحديث الذي دار بينها وبين القط الذي على كتفها انها تفهم القطط فهماً كافياً ، اذا تكلمت اجابها القط بالمواء ، واذا صمتت ، ثم عادت الى التكلم ، عاد القط الى الرد عليها بالمواء ، فما هو هذا إن لم يكن كلاماً ؟

قالت سولانج :

ــ هكذا كنت ، وما ازال ، مع الحيوانات ، اختاً كبيرة لهم . في ايام الطفولة ، ما كنت اجد اقلّ فرق بين الحيوانات والبشر . وكنت اقول لأخي : « لا تنقر باصابعك على الاكواريوم لئلا تبكي السمكات التي فيه » . وكنت أزعم ان الحصان لا يحب ان يرى صورة وجهه ، وبرهاني عن ذلك انه يضرب الماء بحافره قبل ان يشرب منه كيلا تنعكس صورته على صفحة الماء الهادىء . وكانت لنا دار في شولون أقمنا فيها بعض الوقت . وحين كانت تهب ريح السّموم[1] ، كنت اصبح عصبية المزاج كأن في جسدي كهرباء ، كالحيوانات التي كانت تتهيّج كأن فيها مساً من

---

١ ــ ريح جنوبية شرقية حارّة ومشبعة بالغبار تهب من صحراء الجزائر على المنطقة العربية من حوض البحر المتوسط .

الجنون . فاشعر بحاجة كبيرة الى الركض ، واحرّ اخي عستون ليركض معي ...

– لمست هذه الناحية الحيوانية فيك من زمان : لمستها في طريقتك بالنطر الى اللهيب عندما تعدّين لنا عجة بالروم ، وفي نبرة صوتك عندما تتحدثين عن قطتيك . وهذه مناسبة اغتنمها لاقول لك اني لا اعرف اسميها حتى الآن ...

– ليس لهما اسم .

– لا اسم لهما ؟ وبمَ تناديهما ؟

– لا اناديهما ، فهما تأتيان اليّ عندما تشاءان .

قال كوستال في نفسه : « يا لها من كلمة بالغة السمو ! انها ضمانة لحريتي في المستقبل اذا اقترنت بهذه الفتاة ، فلم يعد هذا الزواج مستبعداً . واصعب ما يمكن الحصول عليه من الناس ، حتى من الاصدقاء ، هو ان يدعوك حراً طليقاً . سآتي اليها عندما اشاء » .

وكان القط الازرق وحده ، بين رفقائه الثلاثة ، يبحث عن الطعام بحث الجلف العديم الذوق .

لا ريب في ان القطط الاخرى اقبلت على كوستال وسولانج للغاية نفسها ، إلا انها كانت تموّه هذه الغاية تمويهاً جديراً بالاعجاب . وما كان اطول الفترة التي يتدلّل فيها القط الازرق ليعلم هل كان راضياً ام لا بما يقدمه له كوستال من الطعام .

ولما قدم له الكاتب قليلاً من الخردل على طرف اصبعه ، لمعت في عينيه نظرة قاسية فيها معاني الخيبة ، والاستياء ، واللوم ، والكبرياء ، فالسيد الرفيع الشأن حسب نفسه مهاناً ! والسيد الرفيع الشأن احس لذعة الاهانة ! ولما قدم له كوستال ، بعد قليل ، قشرة برتقال ، طفح كيل السيد الرفيع الشأن فانطلق وفرّ هارباً . وها هو الآن حردان ، يجلس على ثلاث خطوات من الطاولة ، وينظر جانبياً باستياء ظاهر

اذا سمع كلمة : بسّ ... كرجل بورجوازي دنا منه متسوّل يستعطي . ومن حين الى آخر كان القط الحردان يتثاءب سأماً .

اما القط البنفسجي الذي قفز الى الطاولة ، فكان يعبُ سولانج بعينيه عبـاً ، ويفتح فقمه احيانـاً بمواء تطري ، لاننا لم نكن نسمع له صوتاً . وكان له شكل ُفقمة ودَيْنَسَمٍ معاً .

قالت سولانج : ما ابلغ سكوت الحيوانات وما أشد وقعه في النفوس اذا قيس بثرثرة الرجال !

فاجابها على الفور :

ــ اجل ، لكن سكوت الرجل اشد تأثيراً من سكوت الحيوان ... اعذريني ، فلكثرة ما سمعت من الثناء على ذكاء الحيوانات ، اصبحت اتعجب احياناً مما ارى في هذه الحيوانات من الحماقة و ... الحيونة .

وفي هذه الاثناء ، كان القط النرجسي قد دسّ رأسه بغتة بين يدي كوستال المفتوحتين قليلاً ، وتركه مدسوساً كولدٍ يبكي بين يدي امه ، او كعشيق بين يدي حبيبته .

ولما جيء بالطعام لم يجرؤ كوستال على مدّ يده اليه لئلا يتحرك فيزعج القط . لكن من حسن الحظ ان القط رفع رأسه ورأى ، من بعيد ، ولداً اعجبه اكثر من كوستال ، فقفز الى الارض بلا مقدمات ، وراح يتمسح بربلتي الولد العاريتين ، فاصبح الكاتب حراً واستطاع ان يتناول غداءه .

اما القط البنفسجي فكان ينتظر دوره كرجل تقي يترقب نوبته لدخول كرسي الاعتراف . ولما خلا له الجو قام بتمثيل دوره تمثيلاً استطاع كوستال ان يصفه بما يلي :

« مينين [1] واقف في وسط شعاع من الشمس كراقصة تحت اضواء

---

١ ــ اسم مستكر شاء المؤلف ان يخلعه على القط .

المسرح ، وكل ما حوله في العتمة .

« مينين يهز قائمته .

« احدى اذني مينين مرتفعة والاخرى منخفضة كأنه فاسق عتيق (لماذا اعتبره فاسقاً ؟)

« مينين يدفعني عنه بقائمته . انه حقاً شخصية بارزة !

« مينين يعض كمّ قميصي بكل ما أوتي من القوة .

« مينين يرفع بقائمته اذنه المنخفضة ، إلا انه يقلّبها ، فما اقل حظه ! انه لا يستطيع اعادتها كما كانت ، وها هو ينظر اليّ نظرة متضايق مستاء .

« مينين يمص طرف مقبض شوكتي ، الخ ... »

واراد كوستال ان يتخلص من القط البنفسجي ، فبسط له جريدة على الارض . وكان لطراوة الجريدة وجفافها وصوت حفيفها تأثير كبير في اعصاب القط ، فهبط اليها ، وراح يجلس على قفاه ويلاعب احد اطراف الجريدة بيديه ، فيفقد توازنه وينقلب على ظهره ، ويصبح في وضع يرى فيه قفاه ، فلا يقوى على مقاومة رغبته في لحس هذا القفا متخلياً عن كل مهمّة اخرى .

ولما فرغ من عملية اللحس جلس على الجريدة من جديد ناسياً طرف لسانه خارج فقمه كقطعة جبون بارزة من سندويش . ولم يكن يدري انه نسي لسانه ظاهراً . ولو كان في هذه الحال امام عشرين شخصاً لما نبهه احد منهم الى ما هو فيه كما يُنَبَّه عادة رجلٌ على ردائه سَلْحُ عصفور ، مع ان ظهور طرف اللسان على تلك الصورة يسيء الى القط ، فيبدو كأنه قليل الذكاء .

وكان القط البنفسجي كلما تحرك عازماً على مغادرة الجريدة ليعود الى الطاولة ، كان كوستال ينظر اليه بشدة ، فيتوقف رافعاً احدى قائمتيه .

قالت سولانج :

– ان طريقتك في معاملة هذا القط لابقائه في مكانه تذكرني بالاسلوب الذي اروّض به قطتنا السوداء . ولا بد من الاعتراف لك باني لا احب هـذه السوداء ، لانهـا كانت مدلـّلة الجميع في البيت ، ومدلـّلة ابي بنوع خاص . ويكفي ان انظر اليها لتتغيّر ملامح وجهها ، ولتخفض اذنيها ، ولتبتعد عني مدركةً اني لا احبها .

وبعد برهـة من الصمت ، استأنفت سولانج حديثهـا فقالت بقوة : « اني لا احبها ! »

وكانت هـذه الكلمة تعبيراً عن نفور شرس عميق . فاحس كوستال كم تستطيع سولانج ان تصبح شديدة الخطر يوماً ما .

قال لها :

– سأريك شيئاً افضل من كل ما رأيتِ .

ثم لامس بيده القط البنفسجي حيث يبدأ الذيل بالبروز من الظهر ، وقبض على مؤخرتـه ، فكاد القط يفقد صوابه . وكان بالحقيقة قطة ، فاصبحت متشنجة ، مرتعشة ، متوترة حتى الجنون ، وفي حال مذهلة من التهيّج والشرود ، وراحت ترسل أنيناً خـافتاً كأنـه الحشرجة ، وتنظر بعينين كأنهما عينا امرأة روسية ، لونهما اخضر صـافٍ ، وقـد تمدّدت اطرافها ، ثم جعلت تتبرّم وتلتف كأنها قطة افعى ، وتمرض جسدها من كل جانب وعلى كل وجه ، متخليةً عن كرامتها (ولم تكن هذه الكرامة تستحق الذكر) ، واخذت تروح وتجيء وتتمسح بكوستال حـتى ملأت رجليه بوبرها ، وكان هذا دليلاً ساطعاً على ما كانت تغنم من متعة شبيهة بمتعـة قاضي التحقيق حين يضع يده على سر الجريمـة . واخيراً شرعت تمشي على قدمي كوستال وعلى حذائه ، وتتوسل اليه بما لديها من مختلف الطرق والوسائل ان يُعزّم عليها ليخرج منها روح الشر .

وكان كوستال قد تأثر بتلك الروح ، فاشتهى ان يفعل امـام القطة البنفسجية ما يفعل امـام اضمومة من الازهـار ، اي ان يرقص ، ويخر

ساجداً فيضرب بجبهته الارض ، ثم يأكل الشيء الذي يثير ورعه واعجابه . وهذه الرغبة هي التي تدفع المؤمنين الى التهام ربهم، والعاشقين الى لثم من يحبون وعضّه ، وما العض إلا العمل التمهيدي للالتهام ، وكثيراً ما يلتهم الشخص شخصاً آخر بالمداعبة والامعان في الملامسة ...

غير انه كبت شهوته واكتفى باطلاق صيحات خرساء ، فاصبح وجهه وجه قط ، وقد اتخذ من القطط ما تتحلى به من ملامح الطفولة ، والنظرات الزاخرة بالبراءة المجتونة ، وجعل يهدر هدرة شبيهة بهدرة القطط ، حتى ان سولانج ، التي كانت منحنية تستمع اليه ، اخذها العجب واستولى عليها الذهول .

وبعد قليل اضطر الى كبح جماح نفسه ، كما فعل لما ألهب شعوره الأرنب المصنوع من القطيفة ، اذ احس انه على وشك ان يصير الى حال يخدّش فيها وجهه ويزدرد قطعاً من الزجاج المكسّر .

ولما عزم على الانصراف ، بعد ان ودّع رهط القطط اللطيف وداعاً مؤثراً ، قال لسولانج :

– في منطقة بروفانس يسمون الفتاة بلهجتهم الريفية : « هريرة » ، ومنذ هذا اليوم ساناديكِ بهذا الاسم ، يا هريرتي الصغيرة .

وعاد من ذلك الغداء حاملاً في نفسه أثرين عميقين : ١ً – حيوانية سولانج التي تقرّبها منه ؛ ٢ً – النظرة الغريبة (الغيور ؟) التي القتها عليه وهو قابض باحدى يديه على قائمتي القط البنفسجي الصغيرتين الدافئتين .

خرج كوستال وسولانج من المطعم الريفي وتوجها الى الميناء . كان لون الماء اخضر مائياً ، ولون السماء ازرق سماوياً ، وكانت البواخر تنزف ماءها الى البحر، وهي مطلية بلون الزّنجفر . اما الارصفة فكانت تفوح منها روائح القنّب والقار والخشب والرُبّ . وعلى القوارب المسطحة المحترقة بالشمس يرقد بعض عمال البحر المكحلي العيون .

وكانت احدى البواخر تتحرّك للابحار، فلما خرجت من الميناء اطلقت زعقة ضعيفة لتشجع نفسها ، ثم أنزلت ماءً من قفاها كأنه تبويل الخائف . كانت ، ولا ريب ، سفينة حديثة العهد في المهنة .

مشيا برهة على الرصيف ، ثم توقفا وجلسا على كومة من الحبال . وكان الجو مزيجاً لذيذاً من النسمات البليلة والشمس الدافئة . ومن حين الى آخر كانت احدى الموجات الكبيرة تنقضّ على قاعدة الرصيف مُحْدِثةً دَوِيّ انفجار ، بينما كان مركب شراعي يتمدد ، اسمه : « الكرامة » . فلنتأمل كيف يُدعى احد المراكب : « كرامة ! » والحبل الذي كان يشده الى البر يتلوّى خلفه كسولاً في الماء كأنه حيّة تسعى . وكانت اشعة الشمس تنعكس على جانب هذا المركب فترسم عليه خطوطاً راقصة مرمرية من اللهيب والازهار . اما ظل المركب الممتد الى جانبه فكان اخضر كالأبسنت .

وكانت اسراب زمج الماء تتراقص في تيارات الرياح وعليها سيماء القلق والاضطراب ، مما يدل على انها كانت تخشى ان يصيبها دوار البحر . وبين جميع حركات الميناء ، بما فيها من ثقل وبطء ، كان احد

الزوارق البخارية يقدم وحده مشهداً من مشاهد السرعة ، تاركاً وراءه على الماء صورة خطّاف نبتوني[1] عريض من الزبد . وفي الجهة الاخرى ، صوب عرض البحر ، كانت الامواج تصطخب وتتصادم كامرأة تتخبط تحت وطأة كابوس .

قالت سولانج : ان مشهد الزوارق المترجّحة على المياه بلا انقطاع وهياكلها الشبيهة بالقلوب تدعو الى التفكير بالقلوب المعذبة . فاجاب كوستال : ان هذه الزوارق المتمايلة جنباً الى جنب تذكره بصف من العيساويين[2] يؤدون الصلاة . ثم القى خطبة شعرية النفّس شبّه فيها هياكل الزوارق ببطون النساء عندما تكون تحت الرجال كالمطايا ، او كافراس تقفز فوق الحواجز ، عندما ترفعها الامواج ، فتتمايل تحت ركابها بكل ما فيها من حياتها الخاصة ، ويساعدها الركاب بما فيهم من القدرة على التواطؤ في الحب . واعترف بانه كان كلما ركب زورقاً على بحر تعصف به الريح احسّ بنوع خاص من الاضطراب . وأبت سولانج ان تنهزم امام هذا الفيض من البلاغة ، فشبّهت تمايل الزوارق اللطيف الهادىء ، الذي يفرّقها حيناً ثم يجمعها ، بحركة مركبات الاطفال تهزها الامهات الجالسات جيئة وذهاباً لهدهدة الاطفال وحملهم على النوم .

قال كوستال ان هذه المساجلة في ابتكار التشابيه والصور حول موضوع معين تشبه اناشيد البقّارين اليونانيين القدامى التي تتوالى كأنها اسئلة واجوبة . واستطرد ان سولانج تستحق اكليلاً من الازهار لاكتشافها صورة مركبات الاطفال ، فقال :

---

١ ـ نسبة الى نبتون اله البحر والملاحة عند الرومان الاقدمين . صوّروه وبيده حربة مثلثة الأسنة تُعرف باسم « الخطّاف » للدلالة على ان من يسيطر على البحر يصبح سيد العالم .

٢ ـ اتباع العيساوية ، وهي طريقة صوفية منتشرة في المغرب .

– احرزتُ انا الاكليل بقدرتي على ترويض القطط ، واحرزتِه انت في مباراة ابتكار الصور ، فتعادلنا . فما هو موضوع المباراة الثالثة التي ينال فيها احدنا الفوز النهائي ؟

اجابت :

– تعال نختبر من منا يستطيع التحديق الى الشمس اكثر من الآخر .

فتأبّى كوستال متشاوفاً وتبرّم ، فالشمس وهو ، او بالحري « هو والشمس » ، خِدْنان ، وهذا ما سيتضح بعد حين .

ورفعت سولانج رأسها ، فاتسعت حدقتاها ، وراحت تحدّق الى الشمس ببساطة .

قال : انك تنظرين الى جانب الشمس ، لا اليها تماماً !

اجابت : كم انت سيّىء الظن !

قال : اني سيّىء الظن كأحد اليونانيين في عصر هوميروس[1]. فلنستأنف المباراة .

ونظر الى الشمس مصوباً عينيه الى تحتها ليسهل عليه احتمال توهّجها ، ثم شتمها واتهمها بالادعاء والغرور ليكسر شوكتها . واخيراً رفع ذقنه بحركة تمثيلية جميلة ، ووقف وقفة ديكتاتور معتز امام آلة التصوير ، وغرس عينيه في قرص النور . . .

اما الحقيقة فهي انه لم يغرس في قرص النور شيئاً ، فما كاد نظره يقع على لهب الشمس حتى ادار وجهه فوراً ، وقد دمعت عيناه وانصرمت جفونه كجاموس العصر الحجري لما حطم

---

١ – شاعر ملحمي يوناني عاش في القرن التاسع قبل الميلاد . يعتبر مؤلف الالياذة والأوذيسة ، وتتنافس سبع مدن يونانية على شرف انتمائه اليها . تصوره التقاليد المتوارثة شيخاً اعمى ينتقل من بلد الى آخر منشداً شعره . وما تزال الآراء متضاربة في حقيقة التاريخ الذي نظمت فيه ملحمتاه .

اورسوس[1] عنقه ، فزمجر حانقاً :

ــ آه ! يا للقوادة !

وجاء دور هريرة ، فالتفتت الى السماء بكل هدوء . وتصلبت قسمات وجهها ، واتسعت حدقتاها حتى كادتا تملآن بياض العينين كله ، فاذا بها تحدق الى قرص الشمس بحزم وامعان .

أحس كوستال بقوة تدفعه الى ان يخر ساجداً ، غير انه أحجم لأنه كان على شيء من الحضارة البعيدة عن شعائر العبادة الوثنية . وكاد يهتف بحرارة قائلاً لسولانج : « عزمت على الزواج بك حالاً » . إلا انه ظل محتفظاً بذرة من الوعي والرشاد على الرغم من احتدام حماسته ، فبذل جهداً كبيراً ليبقى رابط الجأش . اجل ، كان مصمماً على الاقتران بها . أفيجوز ان يكون رجل سواه زوجاً « للتي تحدق الى قرص الشمس » ؟ لا ريب ان في الكتابات الهيروغليفية العريقة في القدم عبارة من هذا النوع تعني : الذي يحدق الى الشمس ، او التي تحدق اليها .

كان قد حسبها بورجوازية عادية ، فاذا بها تكبر وتبلغ قدره ، بل تفوقه . وقد اثبتت هذا التفوق بعمل قاهر لا يُنكر . فتخيلها تمثالاً عملاقاً منحوتاً في الصخر ، جالسة ويداها على ركبتيها ، ولها رأس قطة ؛ وتخيل نفسه تمثالاً آخر الى جانبها ، جالساً ويداه على ركبتيه ، وله رأس أسد ، وقد تعانق ذنباهما خلفهما ، وانحدر عليهما شعاعان من الشمس منحوتان في الصخر[2] .

واسترسل في تخيلاته ، فحلم بانهما قد يأتيان بكاهن قبطي من القاهرة ليبارك زواجهما في خرائب هليوبوليس ، ثم ينتقلان الى الاسكندرية

---

١ ــ اسم الدب في العصور القديمة ولاسيما العصر الحجري .
٢ ــ اشارة واضحة الى ذكريات الكاتب عما شاهد في وادي النيل من آثار الفراعنة .

فيقيم كوستال ، لمناسبة زواجه ، احتفالاً شعبياً عاماً يصارع فيه أسداً .

بالامس القريب اشترط على سولانج انه لا يريد اولاداً ؛ اما اليوم فقد تبدل كل شيء ، واذا به يقرر ان ينجب منها اربعة عشر ولداً ...

اجل ، منذ انتقاله معها الى صعيد خارق يفوق مستوى البشر ، تغيّرت في ذهنه جميع المفاهيم وجميع القيم . ومنذ ان حدّقت سولانج الى الشمس تقهقر نتاجه الادبي الى الدرجة الثانية من الاهمية ، واحتل عرشُ الملك الدرجة الاولى . فقد اراد ان يصبح ملكاً الى جانبه ملكة ، ومن الحماقة المطبقة ان لا يجد شعباً بدائياً يُجلسه مع زوجته على عرش السلطنة . وما دام الاحداث الاوروبيون يتعبدون لسولانج لاجل جمالها وحسب ، فمن المحتمل اكتشاف شعب طفل يعبدها باسره . والقوة التي يستمدها كوستال من زوجته الجالسة على العرش تكفيه لادارة شؤون الملك ، والانتاج الادبي ، والاولاد الاربعة عشر .

قبل لقائها على رصيف الميناء ، كانت سولانج حجر عثرة على طريق اطواره الغريبة ؛ اما الآن فقد اصبح مستعداً لاشراكها في هذه الاطوار لاقتناعه بانها صارت جديرة بها ، وربما اضحت عنصراً من عناصر شاعريته .

لم يكن يجد لها مكاناً في حياته من قبل ؛ اما الآن فقد اتسع لها هذا المكان . واحس من جديد ، كما احس مرات عديدة في ما مضى ، ان ما كان يبعده عن الزواج لم يكن الزواج بحد ذاته ، بل اعتقاده الخاطىء بهزال شخصية سولانج وقلة كفاءتها ؛ أما وقد اثبتت قدرتها على اجتراح الخوارق ، فقد شرع يفكر جدياً بالزواج بها ، وجعل يقول في نفسه : « من الجنون ان ادع هذه الفرصة تفوتني » .

لم يشرب سوى كأس واحدة من الخمر طيلة ذلك النهار . فلما عاد الى الفندق كان ثملاً بسولانج ، او ثملاً بالفكرة التي تكوّنت في ذهنه

عنها ، او كان ثملاً بنفسه ، حتى انه احس بالصداع لشدة تفكيره باكاليل الغار ، فبادر الى وضع محرمة مبلولة على رأسه . وبما ان القارىء يشعر ، هو ايضاً ، بحاجته هنا الى وضع محرمة مبلولة على رأسه ، فلنتوقف قليلاً عن الكلام .

وقفا قرب النافذة ، بعد العشاء .

وعلى الروابي المحيطة بالمدينة ، تمتد المصابيح خطوطاً من الاضواء على جوانب شوارع يحجبها الظلام ، فتبدو المدينة كأنها تاج مرصع باللؤلؤ . وتضم البيوت ملائكة صغاراً يلعبون بفراديسهم الصغيرة ، وقد لاح جانب من الشاطىء يداعبه زبد الامواج السعيدة مداعبة القطط المرحة [1] . وفي بعض الاحيان تشرئب احدى هذه الامواج كحصان يرفع رأسه ليُري خيّاله البقعة البيضاء التي تزين جبهته .

وفوقها جميعاً ، الأعالي يسودها الصمت وتتألق فيها نجوم مختلفة ، بعضها يحمل اسماء آلهة الشبق والفسوق ، وبعضها راقد كالثيران في المرج ، وبعضها الآخر واقف على حدة كثور ينفرد عن القطيع وينتظر ، حتى اذا انحرف احد الفلاحين عن الطريق انقضّ عليه وسحقه .

والى اليسار ، تمتد المجرّة كأنها منطلقة من احدى الروابي دخاناً يتصاعد من نار قربان آخذة بالخمود .

قال كوستال بحرارة :

ـ احب المدن الكبيرة !

---

١ ـ استعمل الكاتب هنا كلمة : Paster ، العامية التي تعني في جنوب فرنسا : مداعبة القطط ، وشرحها بحاشية في هذا المعنى .

وراح يحلم بما في جنوى من المادة البشرية التي يمكن التنعّم بافسادها ودفعهـا الى التهوّر ، فأحس مارتماش كأن تيـاراً كهربائيـاً انتابـه على ثـلاث مراحل موازية لدرجات علاقاتـه بالناس . اما هـذه الدرجات فكانت :

١ً – التنعّم بالعالم .

٢ً – الاحتماء منه .

٣ً – تحقيره والهزء به .

واجابت سولانج :

– امـا انا فأحب كل مدينـة اكون فيهـا معك ؛ وأحب كل مكان في الريف او في البرية او في الصحراء ، اذا كنتُ فيه الى جانبك .

وكانت تسعى بلا انقطاع الى ملامسته ؛ وكانت هذه محاولة منها غير مألوفة . وطوّقت خصره بذراعيها ؛ وهذا ما لم تقدم عليه من قبل . ثم ألقت برأسهـا على صدره . وكانت تتصاعد اليها ، من نافذة مفتوحة في غرفة واقعة تحت غرفتها ، رائحةُ امرأة معطـّرة مغرية . فاندست سولانج به ، وقبلت يده وشفتيه وجبهته ، فضحك ، فسألته ، وعلى وجهها امارات الغيظ والقلق :

– لماذا تضحك ؟

فلم يجب . وانمـا أضحكه ان يراهـا مغرمةً به الى هـذا الحد وهي التي كانت باردة منذ حين . وما لبثت ان ضحكت بدورها اذ مدّ يده تحت ثيابها بطرق متعرجة وشدّ الشعر النابت في احد ردفيها .

وللمرة الاولى في حياتهـا ، ارادت شيئـاً ، وبـذلت في سبيـله كل ما أوتيت من الارادة الحديدية الصامدة ، والقوة الفتية المخزونتين في نفسها منـذ احدى وعشرين سنـة – ارادت ان يكون هـذا الرجل لها مدى الحياة ، واحست انه على وشك القبول بان يكون لها ، بعد كل ما عانت من العذاب الطويل . وبدت لهـا الحياة المشتركة ، التي تحياهـا معه منـذ

اليوم السابق ، عادية ، طبيعية ، حتى خيّل اليها انها لم تعرف قط حياةً سواها في ما مضى من ايامها . فقد اصبح الماضي مغلقاً في ذهنها وشعورها . وبقدر ما كانت تستعيد هدوءها الفكري ، كان حبها يزداد ويتعاظم كسيل ينحدر من الجبال متضخماً . وكانت فكرة الزواج مهد حبها بقدر ما كانت قبراً لحب كوستال .

وألقت عليه بكل ثقل جسدها الريّان ، وبكل ما في هذا الجسد من حرارة الجنس وعبقه ، كشجرة اثقلت غصونها قطرات المطر ، ثم همست تصلي صلاةً مبهمة قالت :

– يا إلهي ، أطِلْ حياة سعادتي ، فلن أسأمها أبداً ...

ثم خاطبت كوستال قائلة :

– انظر الى مصباح هذه المنارة ، ألا تظن ان في داخله اشخاصاً يتلاحقون تلاحقاً مستمراً ولا يلتقون ؟ هذا ما لا يجوز عمله في الحياة ...

وبالفعل ، كان مصباح المنارة يدور ، فتبدو في دورانه اضواء واطياف تتلاحق فلا تلتقي ولا تتغيّر المسافات بينها .

فاجاب كوستال :

– لا تنسي الامواج ، فهي تتلاحق دائماً ولا تلتقي ابداً . ومن المعقول ان تكون هذه الامور موضوعاً للتأمل بالرغم من اني احذر الاستعارات المجازية ذات النزعة الفلسفية . فلتبقَ الاستعارات استعارات ، ولتقلع عن بذل المحاولات لتصبح اسباباً منطقية .

ومضت فترة صمت كانا خلالها يسرّحان النظر في انحاء المدينة الغارقة بالليل ، وفي رحاب السماء المزيّنة بالنجوم ، ثم قال كوستال :

– هذه البيوت المليئة بالشباب النائم تؤلمني . انها تذكّرني بان فيها وفي سواها ما لا املك . ومهما يمتد نظري بعيداً ، وفي ما وراء الابعاد ، على جميع الوجوه في هذا العالم ، ارى امتداداً لشعبي ، واعني بشعبي

جميع الذين اعطيتهم شيئاً حيوياً بوصفي كاتباً ، وهم مستعدون دائماً للاعتراف بفضلي ولمكافأتي عملياً . ليس في هذا الشعور ما يفرحني لاني لا ابالي بمكافآتهم العملية ، فانا اعلم ان ما هم مستعدون لتقديمه الي ليس ما تهفو اليه نفسي . بقدر ما ترين من النجوم في عينيّ الآن ، حامت عليّ نساء مجهولات مني ، كتبن اليّ صفحات وصفحات تعبيراً عما يحفظن لي في صدورهن من عرفان الجميل ، والاعجاب ، والصداقة ، واشياء اخرى لا ادري ما هي . فلو ذهبت ذات مساء الى بعضهن ، وقرعت ابوابهن قائلاً : « انا الرجل الذي امتدت شهرته الى الجانب الآخر من الكرة الارضية . وعلى الرغم من هذه الشهرة ، جئت أتلقى مكافأتي على ما اعطيت . وانتن اللواتي قلن لي يوماً ببساطة الورع : « نود ان نعطيك ما تريد من السرور » ، انتن اللواتي استرسلن في الهيام بي حتى قبّلن يدي ، قدنني الآن الى الغرفة التي يرقد فيها لحم اجسادكن[1] ، ودعنني اتعرف اليه . لن أنزل به ضرراً ، لن اوجعه ، لن اقلبه عدواً لكنّ ، بل سأعمره بخيراتي ، وأجعله يزدهر تحت هذه الخيرات ؛ اجل انه سيزدهر بفضل امطار شتائي ودفء صيفي . فالمرأة مكافأة المحارب ؛ اما ابناء الناس فهم مكافأة الشاعر ؛ والنساء اللواتي يغضضن الطّرف هن قطر الندى ينهلّ على البشرية جمعاء » ، — لو قلت لهن هذا القول ، لما رأيت سوى وجوه مغلقة وافواه تزخر بالشتائم . ان هذه الفكرة تؤلمني ، لكن ما يؤلمني اكثر هو ان هناك امهات قد يكنّ مستعدات لاعطائي لحم اجسادهن ، حباً بي وحباً بنتاجي الادبي ، وهنّ لا يعلمن ان هذا هو الشيء الوحيد الذي اشتهي الحصول عليه منهن ، في حين اني اطرح على الارض ، بنزق واستياء ، بخور مدائحهن ودخان قرابينهن .

اجابت سولانج :

---

١ ـ استعمل المؤلف هذا التعبير التوراتي بمعنى : « فلذات اكبادكن » ، اي بناتكن .

— من الموافق ان تنشر في روايتك المقبلة نداءً مستتراً مكتوباً باسلوب الاعلانات، تقول فيه : «على الامهات اللواتي يرغبن في الاعراب للسيد بيار كوستال عن اعجابهن به، وفي اعطائه براهين ملموسة عن هذا الاعجاب بخلق علاقات بينه وبين بناتهن ... على هؤلاء الامهات ان يتصلن بالسيد المذكور ليتعرّف اليهن. هذا الاقتراح جدي للغاية. ومن المستحسن ان تُرسل صور البنات الى السيد كوستال». وربما خطر في بالك ان تضيف، على سبيل التشجيع، العبارة التالية : «وسيعرب السيد كوستال للامهات عما يكنُّ لهنَّ من معرفة الجميل اعراباً يفوق بروعته اجمل امانيهن».

ولم تستطع سولانج ان تستر بهذا الاسلوب المازح ما انطوت عليه كلماتها من المرارة والألم. فالذين لا يعرفون شيئاً عن العالم (وهم يباهون بهذا الجهل، زاعمين انه نوع من الحرص على السمعة الحسنة) ينظرون دائماً بمرارة وألم الى الذين خبروا شؤون الحياة البشرية.

وقد اعتبرت سولانج انه لم يكن من حسن الذوق ان يكشف لها كوستال عن مدى اطماعه وشهواته، خصوصاً في مساء ذلك اليوم الذي شهد من تقاربهما ما لم يشهده يوم آخر. وكان في وسع كوستال ان يجيب بأن الأب زفس[1]، في الالياذة، لم يكن احسن منه ذوقاً ورقة شعور حين دعا زوجته الشرعية الى مضاجعته، ثم راح يروي لها مغامراته، معدّداً النساء الاخريات اللواتي امتلكهن، لتدرك انه يفضّلها عليهن جميعاً. ولم يعدّد اقل من سبع نساء مسبغاً على كلٍّ منهن الثناء المناسب.

---

١ - ابو الآلهة في الاساطير اليونانية. وهو صنو جوبتير الروماني. قهر اباه ساتورن اله الزمن وتغلب على العمالقة، ثم اعطى البحر لنبتون، والجحيم لبلوتون محتفظاً لنفسه بالارض والسماء. وهو اله النور والزمن والرعد والصاعقة والعواصف. وله مغامرات غرامية تقمص خلالها اجساد حيوانات لبلوغ مآربه.

إلا ان كوستال لم يلجأ الى هذه الحجة ، بل اجاب متظاهراً بالجد :

— انها لفكرة حسنة ، وبتقديها الي خدمتِ قضيتك خدمةً جليلة . اجل ، سأنشر نداءً من هذا النوع في كتابي المقبل . وليفهم من يستطيع الفهم . فقد سئمت ما اعاني من محبة الناس الغبية ، المجدبة . ويخيل اليّ اني اشبه ، في هذه المحنة ، كلباً يقدم له صاحبه باصرار قطعة لحم لا يريدها ، وهو يرى على الطاولة قطعة حلوى يشتهيها ومن شأنها ان تشبع نهمه وتملأه طرباً .

قالت سولانج :

— اذا كانت ذاكرتي غير مخطئة ، فان المينوتور كان يحتاج كل سنة الى سبعة صبيان وسبع بنات ، فهل هذه هي جرايتك ايضاً ؟

— ليس لي جراية محدودة . فالناس يمعنون دائماً في ذم الشهوة الجنسية . يقولون انها تخيّب الآمال ، وتبعث الكآبة ، وتعرقل الاعمال ، وتمنع الرجل من المحافظة على كرم الاخلاق . لكن ما يفوتهم قوله — وهذا مذهل حقاً — هو ان هذه الشهوة لا تنتهي ابداً . يقول البعض ، في غمرة المتعة : « ما اعظم ما حصلت عليه ! اني به لفي حرز حريز » . إلا ان هذا البعض على ضلال مبين . فصديقة الرجل تعطيه لذةً وسعادة ، فيجيبها بالرغبة والعطف والاحترام . غير انه يتابع الصيد ، فتنجح واحدة من كل ثلاث محاولات يقوم بها ، ويغنم من صيده شيئاً جديداً . اما اذا حُرم فجأة هذه الامكانات ، فيصبح ملهوفاً كأنه لم يحصل على شيء ، ويتتابه الجوع ، وتصبح حياته فارغة من البهجة والجمال . انه شبيه ببرميل الدنائيد[1] . ففي ايام الحر الشديد يتملكنا الغيظ لأن العلم لم يجد

١ — يطلق هذا الاسم ، في الاساطير اليونانية ، على بنات دناووس ملك مصر وأرغوس ، وعددهن خمسون بنتاً . يقال انهن قتلن ازواجهن ما عدا واحدة منهن هي هيرملستير، فحكم عليهن ، في قاع الجحيم ، بالعمل ليل نهار لملء برميل لا قعر له .

وسيلة لخزن كمية من هذه الحرارة والاحتفاظ بها الى ايام البرد القارس في فصل الشتاء. والسعادة، كالصيف، لا تُحفظ حرارتها لغير ايامها، ولا فائدة من ذكرياتها لأيام القرّ. ان بعض مشاعرنا يكتب بحروف لا تمحى؛ اما السعادة فتكتب بحروف بيضاء.

ما إن بلغ كوستال هذا الحد من حديثه حتى اشفقت سولانج عليه. وكانت تنعم دائماً بمتعة عميقة كلما وجدت ذريعة للاشفاق عليه. فمنذ دقائق معدودة كانت تحس بانها شيء ضئيل في حياته؛ اما الآن فقد بدأت تعتقد من جديد انها ضرورية له لتحميه من البرد.

قالت:

– يا عزيزي المينوتور، دعني اظن ان حاجتك الدائمة، الملحة، الى لحم طري جديد، انما هي الدليل القاطع على انك لم تجد ما يكفيك في واحدة من جميع النساء اللواتي عرفتهن في ما مضى.

– ربما كانت الحقيقة نقيض ما تقولين... وربما كان الرجل، الذي يكتفي باحدى النساء اكتفاء تاماً، ينعم من اكتفائه متعة عارمة تبعث فيه الرغبة في اعادة الكرة مع امرأة اخرى – مع جميع النساء.

وعادا الى غرفة سولانج.

كان المصباح المعلق فوق السرير مضاء وحده، يرسل نوراً وردي اللون، فبدا هذا النور جديداً لكوستال، لانه لم يستعمل قط مصابيح وردية اللون في منزله بشارع هنري مرتان. واحس بان في الضوء الوردي شيئاً من البكارة والطهر. وكانت تلك هي المرة الاولى التي يجتمع فيها بسولانج في غرفة لم تكن مسرحاً لاحدى مغامراته السابقة مع امرأة اخرى، ما عدا غرفة الفندق التي ذهبا اليها يوماً.

وفاجأته سولانج بقولها:

– قل لي اخيراً لماذا تريد الاقتران بي؟

– لتكوني سعيدة !

وكان جوابه عفوياً مريعاً ، فَسُرَّ به ، وقال في نفسه : « يا له من جواب حكيم ! » وكان يحب الذين يتحدثون بصراحة عن « رغبتهم في بلوغ السعادة » .

واستطردت سولانج قائلة بحرارة :

– اود ان يتم هذا الزواج !

فاجاب :

– وانا اود بحرارة ان تكوني سعيدة !

وكان في جوابه صادقاً ، مخلصاً . إلا ان حذره الشديد جعله يلجأ الى الغموض . مع انه منذ اليوم السابق ، اي منذ نزهتها على رصيف الميناء ، كان قد بدأ يفكر تفكير شخصين متحدين : هي وهو . وكان اتفاقهما تاماً ، وثقته بها وطيدة وكبيرة ، فاذا بكل ما تقول وما تعمل يترك في نفسه انطباعات عذبة من سهولة الحياة ، والالفة الحميمة ، والتجاوب الطبيعي في مختلف الامور . ولا عجب فانهما كانا على ما يرام ، ولم يكن عليهما إلا ان يتركا نفسيهما تتضوعان باريجهما بلا تصنع او ضغط .

وخيّل الى كوستال انه بدأ يعتاد النظر الى المستقبل بالنسبة الى وجوده مع سولانج . وكانت تلك الحماسة الغرامية التي جعلته منذ قليل يشتهي جميع النساء قد خمدت ، فبدأ يعتقد ان الزواج عملية موافقة ، بل بدأ يتوق الى تحقيقه . إلا انه لم يكن قادراً ، من الوجهة العملية الصرف ، ان يفوه بالكلمة الحاسمة التي تقيّده ، فقال لسولانج :

– كانت الخطيبة في آثينا تقدم لأرتيميس[1] ما لديها من الدمى التي كانت تلعب بها ايامَ الحداثة ، اعني ارنبك المصنوع من القطيفة وخصلة

---

١ – الهة الصيد في الاساطير اليونانية وزميلة الربة ديانا الرومانية .

من شعرك . وفي بيوسية [١] ، لما كانت العروس تصل للمرة الاولى الى امام بيت عريسها ، كان المحتفلون بالعرس يحرقون احدى عجلات المركبة التي حملتها للدلالة على انها لن تستطيع ابداً مغادرة البيت الذي جاءت اليه واصبحت فيه زوجة . وفي روما ، كان العريس يستقبل العروس في الخارج ، ثم يحملها بين ذراعيه ويجتاز بها عتبة بيته ...

احابت سولانج :

– اسائل نفسي أتكون قوياً كفاية لتحملني بين ذراعيك ؟...

فادرك ما في هذا السؤال من التحدّي السانج ، وما احبّه . غير انه حمل سولانج بين ذراعيه ، فتعلقت بعنقه ، والصقت شفتيها بشفتيه ؛ وسار بها حتى اجتاز غرفتي الحمّام ؛ ولما بلغ باب غرفته توقف ، ولم يشأ ان يدخل ، ثم انزل سولانج الى الارض . ولما قبّلت طرفي فمه ، جعلت جفونه تطرف بقوة .

واقترح عليها ان ينهيا يومهما بقراءة مشتركة ، ثم قال :

– أتريدين ان نقرأ ، مثلاً ، مذكرات تولستوي ، وان ننتظر احدنا الآخر في نهاية الصفحة اذا سبقه اليها ؟ نستطيع ان نبدأ في الصفحة التي كتب فيها : « منذ خمسين عاماً ما برحت قيمة المرأة تهبط وتتقلّص في اعتباري » ، إلا اذا كنت تفضّلين المقطع الذي يبدأ بالعبارة التالية المنقولة عن غوغول [٢] : « يا الهي ، كان العالم يحتوي كفاية من القذارات المختلفة ، فما هي الحاجة التي جعلتك تضيف اليه المرأة ؟ »

كان من شأن هذا اللطف اللامتناهي ان يؤدي الى النتائج التي يحزرها اللبيب ، وهي فيض من الملامسات والمداعبات والألعاب الصبيانية . إلا

---

١ – منطقة يونانية في العصور القديمة ، وتعرف اليوم باسم « اوبيه » .

٢ – نيقولا غوغول (١٨٠٩ – ١٨٥٢) كاتب روسي . اشهر مؤلفاته : « تراس بولبا » ، و « والارواح الميتة » ، وتمثيلية هزلية هي « رفيزور » .

انه لم يدنُ منها ذلك المساء خوفاً من ان يدمر ذلك اليوم الممتاز بالتورط في اثارة احاسيس ربما جعلتها سولانج تافهة وعكرت بها صفاء إلفتها الممتعة . ومن المحتمل ان يكون ابتعد عنها ليبرهن لها عن انها تكفيه حتى بلا متعة الوصال .

واستلقى وحيداً في سريره ، فراح يتقلب ضاحكاً في سره ، ثم يخاطب نفسه هامساً : « اصبح هجرها الآن اجراماً . ومجرد تركها فريسة الشك يعتبر عملاً سيئاً . اجل ، في هذه النقطة من الحب التي اوصلتها اليها اصبح من واجبي ان اقترن بها » .

واستيقظ ليلاً فسمع قطرات المطر تنقر على النوافذ ، وتذكر انه لما ترك سولانج في غرفتها كانت نافذتها مفتوحة . فخشي ان يؤذيها البرد ، فذهب اليها على رؤوس اصابع رجليه ، وهو يود ان يعلم هل اقفلت باب غرفتها من الداخل ؟

لا ! انه كان مفتوحاً .

دخل بهدوء ، ولم ينظر اليها وهي نائمة . من يدري ؟ ربما كانت لا تريد ان يراها احد وهي عارية ، لانها كانت تحرص دائماً على ان لا تُرى وهي تستحم او ترتدي ثيابها . وليس من المستبعد ان تستاء اذا علمت انه رآها نائمة ... لكنه لاحظ انها كانت نائمة طاويةً ساقيها ، فقرر ان يفهمها ان هذا الوضع في النوم غير صحي لأنه يعرقل الدورة الدموية . ففي فترات الراحة ، يوم كان يتعلم الملاكمة ، كان المدرب يقول له : « مدّ ساقيك ... »

واخيراً اغلق النافذة . وبينا هو عائد لثم احدى قوائم السرير .

مذكرات سكوستال

٢٩ ايلول . ـــ القطط الفاشيّة ، في نشوة الابتهـاج ، تتحدّى الشمس نهاراً ، وتجلس ليلاً على النوافذ لتواجه الظلام ... كان امس يوم الخوارق . بعـد يومين متألقين بالضيـاء ، عدنا الى الرتابة العادية . لم اساكن امرأةً منذ خمس سنوات ! وها انا أتعلم هذه المساكنة من جديد .

زرت بالازّو روسّو ، وبيانكو ، الخ ... ومن حسن الحظ اني اعرف هـذه الأماكن . أفضل للمرء ان لا يزور متحفـاً من ان يزوره مرة واحدة بصحبـة امرأة غير متفوقـة ، اذ لا يجوز طرح الـلآليء لجراء الخنازير ...

اني دائم القلق عليهـا . أتراها تعاني السأم ؟ هـل شعرت باني لطيف معها ؟ هل ازعجها توبيخي للحارس ؟ أتراني أسرفت في بذل المال جزافاً لتعجب بشهامتي ؟ وحين تقول لي : « لا تهتمّ بي » ، أتراها صادقة مخلصة ، ام متصنعة بدافع المجاملة ؟ فالمعروف عن المرأة ان مثلها الأعلى في الحياة هو ان يخدمها الرجل في الشؤون الصغيرة لتخدمه في القضايا الكبيرة .

لمـا عدت الى غرفتي قبل العَشاء بساعة ، وبعـد ملازمتي لهـا ، بلا انقطاع ، منـذ الساعة العاشرة صباحـاً ، احسست بحاجـة جسدية الى الاستلقاء ، وكان قلبي يخفق ، فحسبتني محموماً . احسست بالارهاق ، وباني لم اعد قابضاً على دفة السفينة . ابتعدت عنها منـذ ثلاثة ارباع الساعة ، وما تزال اعصابي تهتز وترتعش ، وقد تغيّر حتى خطي .

تمر بنا الايام في هذه البلاد المكتظة بالنساء الجميلات ، فتكويني الوجوه الفاتنة التي التقيها وانا ملتصق بسولانج . لم ارَ قط مثل هذا العدد الكبير من الحسان ، واخص بالذكر تلك التي احاطت رأسها بضفائرها كما احيط زحل بحلقته الهيولية ...

كم يؤلمني ان اترك الطبيعة تمر بي مرور الكرام ! ليتني حرٌ في هذه البلاد !

اني كئيب كآبة حصان يحس ان رفقاءه ترتع في رحاب المرعى الاخضر ، بينما تدمي الشكيمة فكيّه .

ان شخصاً واحداً يكفي ليحرمك العالم الفسيح، ليسلبك هذا العالم ، ليضع حاجزاً كثيفاً بين العالم وبينك . يعبّ هذا الشخص كل شيء ، فيختفي الكون البهيج ويزول من الوجود .

كتبت ما يلي قبل النوم :

هذه الايام الثلاثة التي كان الاثنان الأولان منها خاليين من كل لطخة ، والى جانبي فتاة مثالية الطباع ، في منتهى الانقياد ، والسلاسة ، والاستسلام ... هذه الايام الثلاثة وحدها كانت كافية لتذويب شخصيتي . فهذا المساء ، بينما كنت ارتدي ثيابي ، رحت ابحث عن شيء فلا اجده ، وكان امام عيني . ويظهر ذوبان شخصيتي حتى في وجهي الذي يبدو كأنه فقد شيئاً من رونقه وألوانه . جفوني ثقيلة لا اقوى على فتحها إلا بجهد كبير ، وانعكاس العوامل الخارجية على شعوري يزداد قوةً وتأثيراً . وفي مثل هذه الحال يتنهّد المتخاذل شاكياً فيقول : « لم أعد املك نفسي ! » أما انا فاريد ان املك نفسي دائماً .

وجدت في هذه الازمة عنواناً لرواية عن الزواج هو : « الرجل الذي اضاع نفسه » .

حسب تولستوي نفسه سعيداً في الفترة الاولى من زواجه ؛ اما الحقيقة فهي انه كان خبلاً ، كمن أصيب بضربة على رأسه .

انا الآن افعى تلقّت ضربة هراوة على رأسها ، فلا تستطيع حراكاً .

٣٠ ايلول . — لزمت غرفتي صباحاً متذرعاً بالاجابة عن بعض الرسائل . وبعد الظهر قمنا بجولة في الاحياء القديمة : سوتوريا ، سان لورنسو ، الخ ... وكانت احاديثنا سهلة ولطيفة . فالحالة على ما يرام . لكنها قالت لي كلمة اصابتني بخيبة مرّة . وخلاصة ما جرى اني رأيتها تثابر على نهجها المعتاد ، ولا تطرح عليّ اسئلة متعلقة بحياتي الخاصة ، فهنأتها ، فشرحت لي سبب تحفظها قائلة : « لا اسألك لاني اخشى ان اكتشف في ماضيك ما يؤلمني . وافضّل المحافظة على تخيلاتي التي توهمني بان سعادتك لم تبدأ إلا معي ... » اذاً ، ما كنت احسبه فيها تحفظاً نبيلاً ومحبباً لم يكن إلا بعضاً انثوياً للحقيقة . فحب الثقة الناجمة عن الجهل هو ميزة نسائية اصلاً . والمرأة تشطب في الرجل الذي تحبه كل ما لا يعجبها فيه ، وكل ما لا ينسجم مع « احلامها » . فالكافر ، في نظرها ، يبحث ليهتدي ، والمتخاذل يجتهد ليشتد ، والمستهتر لا يخلو من القلق ، والوغد يسعى ليصبح رجلاً شريفاً . فهي لا تحب الاشخاص الحقيقيين ، بل الاشباح ، والتماثيل المحفوفة بالاوهام . واعرب ما فيها انها تعرف حقيقة نفسها . ومع ذلك يعجب الناس من كونها شكسة ، دائمة الارتباك . وتعجب هي حين تصاب ، في النهاية ، بخيبة قاسية .

بعد العشاء ، خشيت ان تستوحش اذا تركتها وحدها ، فجئت اقرأ احد كتب رينان[1] في غرفتها . جلستُ على مقعد الى جانب مقعدها ،

---

١ ـ ارنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢) كاتب فرنسي ، هجر حياة الكهنوت وكرّس نفسه لعلم تاريخ اللغات والديانات . تدل شروحه وتفاسيره على ايمانه بالعقل وبعظمة مستقبل العلوم . اشهر مؤلفاته : « مستقبل العلوم » ، و « تاريخ اصول الديانة المسيحية » ، و « تاريخ شعب اسرائيل » ، و « ذكريات ايام الحداثة والشباب » . وقد اوضح في هذا الكتاب كيف فقد ايمانه بالدين المسيحي . كان عضواً في الاكاديمية الفرنسية .

ووضعت يدي اليسرى في مَعْطِف ساقها ، فاذا به رطب كمجرى الساقية الذي لم تنقطع عنه المياه إلا منذ قليل . ولو درى ريتسان ان كتابه ُقرىء في هذا الوضع لامتلأت نفسه طرباً .

وكانت هي تقرأ كتاب « المرأة » لـ « ميشليه » وتلامس شعرها للمحافظة عن تسريحته .

كتبت هذه السطور بعد ان تراجعت قليلاً الى ورائها ، وغدوت لا اراها إلا اذا رفعت نظري اليها . ارتكبت اخطاء عديدة في الاملاء ، وكتبت جملاً تنقصها كلمات لشدة ما اخذت شخصيتها تمتص شخصيتي وتبتلعها . اني مسحور بهذه المساكنة ، منفيّ عن العالم . عبثاً احاول القراءة والكتابة ، فعقلي بعيد عني ، وقد انقلب رأساً على عقب .

ان سولانج « تضحّي » كما يفعل المصابون بالهستيرية عندما يفرغون الاجساد التي يلامسونها من قواها العصبية ، ويملأون بها اجسادهم .

سألتني : « لا غيوم في جوّنا ؟ لا سوء تفاهم بيننا ؟ » فداعبتها برفق . غير انها قرأت ، ولا شك ، حقيقة شعوري في ملامح وجهي .

قالت لي حماقةً هي : « ربما كان حبك مفتقراً الى المقدار الكافي من الغزارة ... » وما الفائدة من ان يحب المرء اشخاصاً عديدين ؟ حفنة من العطف والمودّة تكفي . اربعة اشخاص او خمسة يكفون ليكونوا الاعمدة التي يبني المرء عليها بيته الخشبي . ولتعسعس الوحوش تحته في الغاب ، ولتعوِ ما طاب لها العواء ، فالبيت في امان ما دام مرتفعاً على الاعمدة .

النهج الأمثل هو التعلق الوثيق العرى بابناء القبيلة . اما الباقون فالطريقة الفضلى في معاملتهم هي ان يكون المرء كاولئك الوحوش الذين يتصرفون في المجتمع تصرف الانمر ، ويرتبطون بحلف اخوي مع بعض انواع الحيوانات ، كحواة الافاعي ، ومروضي الفيلة ، الخ ...

وما حاجتنا الى « الحفنة » الكاملة من المودة ؟ اقل منها يكفينا :

مودة واحدة تكفي . متى ملكها الانسان كانت مبرراً لحياته ، اذا كانت الحياة بحاجة الى ما يبررها .

ان شخصاً واحداً يملأ الحياة ، اذا أحببناه اكثر فاكثر يوماً بعد يوم ، اذا استخلصنا منه ، من جسده وروحه ، الحاناً موسيقية تزداد عمقاً بقدر ما يمر عليها الزمان ، مثل كان العازف العبقري الذي يكتمل ويتجوهر ويصبح افضل بقدر ما يطول عرف صاحبه عليه .

لهذا السبب انا امين على عهد الحب ، امين الى اقصى حد وحتى الاغراق ، بخلاف ما يظن الذين لا احبهم ، والذين لا يحكمون عليّ إلا من خلال اانانيتي بالنسبة اليهم .

إلا اني مخلص للذين لا احبهم . آه ! ليس الوفاء صعباً اذا نشأ الحب . اود ان اقول لسولانج هذه الحقائق كلها ، لكن اذا اقتصرتُ على اسلوبي الغامض في التعبير ، حسبتْ نفسها من « الخفنة » . ويا لخيبتها ما أمرها يوم تتفتح عيناها على الحقيقة ! واذا تعمدتُ الوضوح وقلت لها : « لا اعنيك انت عندما اذكر من احب » ، اكون قد طعنتها في الصميم . فمن الافضل ، اذاً ، ان تظل تحسبني عديم العاطفة .

لما دخلت الى غرفتها بعد حين ، رأيتها امام ورق اللعب ، فقلت لها :

– أتسألين هذا الورق لتعلمي أأقترن بك ؟

فاحمرّت ، ثم اجابت :

– لا ! مطلقاً . اني أتسلّى بلعبة اعرفها .

ولنفترض انها كانت صادقة في جوابها ، فان مفاجأتي اياها متلبسة بجرم التسلية بورق اللعب احدثت في نفسي التأثير ذاته الذي كنت اعانيه لو فاجأتها تبحث عن اللذة بالاسترسال للعادة السرية . من المؤسف ان تكون حملت هذا الورق في حقيبتها وجاءت به الى هنا ! فلو هبطنا درجة اخرى الى اسفل لوصلنا الى الكلمات المتقاطعة .

مساكنة المرأة « المحبوبة » تشدّد قوى الرجولة بضرورة استمرار

التعاطي معها ، وبحاجة الرجل الى المحافظة على حسن مظهره ، والى الانتباه لتوفير راحتها وراحة نفسه . فالحب المتدفق يفسح في المجال لعاطفة احرى نبيلة لا تظهر للشخص المحبوب إلا اذا احسن المحب مراقبة نفسه . اما اذا كانت المرأة « محبوبة » (مبدئياً) ، لا حباً حقيقياً ، وكانت تبعث السأم ، فان الجهد الذي يبذله الرجل ليراقب نفسه يرهقه ، خصوصاً اذا لم يكن معتاداً احتمال الضغط في سبيل احد من الناس ايا كان ، او لأجل شيء من الاشياء مهما يكن .

يقال ان الحياة الثنائية فن قائم بذاته . وهذا امر أكيد . انها حالة يحتاج فيها المرء الى معالجة مستمرة لينسى رفيقته وليحمي نفسه منها .

قال بول جيرالدي [1] : « انا ، الى جانبك ، اعود الى انفرادي » .

ما دام الامر كذلك ، فلا بد من طرح سؤال يفرض نفسه بقوة قاهرة : فما الفائدة من الحياة الثنائية في مثل هذه الحال ؟

انها تذبل ، وتحدودب ، وتصبح هائمة ، شاردة النظرات ، اذا لم اعانقها طويلاً واضمها الى صدري . ولا اكاد افعل حتى تتجلى السعادة في وجهها كالحديقة التي أذبلها العطش فانتعشت اذ جرت فيها المياه ، او ككلب بكا سروراً اذ عاد اصحابه بعد غياب طويل كان خلاله وحيداً . انها تذكّرني بنفسها على طريقتها الخاصة التي تكاد تكون خفيةً ، كقطة تطلب المداعبة او ككلب يراود صاحبه على ملاعبته . اني اتذكر ، في هذه المناسبة ، ذلك القط السيامي الذي كان عندي ، وكنت احبه . فقد كانت حاجته الى المداعبة شديدة الى حد بعيد ، حتى انه كان يموء بلا انقطاع ، يموء ثلاثين مرة في الدقيقة مواءً مبحوحاً ممزّقاً ، ولا

---

١ ـ شاعر فرنسي اشتهر برقة الشعور ، ورهافة الاحساس ، وبساطة الاسلوب . اشهر مؤلفاته ديوان شعر عنوانه « انت وانا » . وقد صدر عن منشورات عويدات .

يسكت حتى يجلسه احدٌ على ركبته . ولما كنت لا استطيع استئجار خادم خاص لمداعبة قط ، ولا املك آلة كهربائية اوتوماتية للقيام بهذه المهمة ... فما لبثت ، بعد بضعة ايام من احتمال المواء الذي يدمر الاعصاب ، ان فقدت صبري ، وضربت القط ، من غير تعمُّد ، ضربة قصفت ظهره .

أتكون هذه الحادثة نبوءة بالنسبة الى سولانج ؟

اريد ان تهمدر ، ويجب ان اهتم بها دائماً ، ان ادللها ، ان اقول لها كلمة عذبة من حين الى آخر ، ان أبدي لها عطفي عليها ، لتشعر اني اساندها باستمرار .

ما اجمل ان يكون المرء جهاز اوكسيجين لمساعدة مريض على التنفس والانتعاش ! ولا ريب اني مضطر الى ان اظل سيد اوقاتي لاقوم باعمالي ، والى احاطتها بما تحتاج اليه من العناية لأودي مهمتي اداءً حسناً ، وأشدّد عزائم الآخرين ، وهذا عمل يدل على الرجولة ، إلا انه ينهكني .

جنوى ! مدينة رمزية . يا لها من صغيرة مسكينة تزعجني[1] !

دعوني اعيش على قمة ذاتي . دعوني اسكر بالهوس الذي يسكبه لي هذا التناسق الكامل ، الممتلىء ، بين ما انا والحياة التي احياها . دعوني امشي على الماء ...

لكن ، لا ! انها تحترق اقل مني ، واحتراقها ابطأ من احتراقي . وهي ليست ، ولن تكون ابداً ، من امرة انصاف المجانين ، وانصاف الجنونات التي انتمي اليها ، وهي البيئة التي اتحرك فيها بسهولة وارتياح .

كنت احترق ، فاخمدتني . كنت امشي على الماء ، فتعلّقت بذراعي ،

---

١ – تسنى للكاتب هنا ان يتلاعب بالألفاظ لان كلمة جنوى بالفرنسية تكتب Gênes وكلمة Gêne تعني : ازعاج ، مضايقة ، فقال ان اسم المدينة رمزي لانه يعاني فيها المضايقة والازعاج .

فتفرقتُ .

قال اللورد بايرُن [1] : « أسهل على المرء ، في اغلب الاحيان ، ان يموت لاجل امرأة من ان يعيش معها ! »

وقال اللورد بايرُن لاحدهم يوماً : « يبدو انك اقترنت بامرأة حسناء . إيه !... أفلا ترى ان سهراتك اصبحت طويلة في بعض الاحيان ؟ »

لا احاكم سولانج التي لا ذنب لها مطلقاً . لا احاكم حتى حياتنا المشتركة ، سواء أكانت علاقة غرامية او زواجاً ، بل احاكم الحسنة التي ترغمك على التصرف مع احد الاشخاص كما لو كنت تحبه ، بينما انت لا تحبه ، او بالحري لا تحبه حباً عميقاً حقيقياً .

١ تشرين الاول . — امضيت معها ليلة طيبة . إلا انها كانت كئيبة هذا الصباح . يا للنساء ، كلهن بنيلوب [2] ، يحللن نهاراً ما ينسجن ليلاً . انها تشعر ، ولا ريب ، بان وجودها معي لا يجعلني سعيداً . وكنا نبدو كراهبين مبتدئين في دير ، يحاول كلٌّ منهما خدمة الآخر طمعاً بالثواب . فكنت أبذل جهدي كيلا تكون شقية ، فاشقى ، وتشقى هي ايضاً : وهذه هي نتيجة الاعمال الخيرية الناجمة عن الشفقة . أتراها منّيت بالخيبة لاني لم اقل لها شيئاً ايجابياً خلال اليومين الاخيرين اللذين اصبحنا فيهما

---

١ ـ جورج غوردن بايرُن (١٧٨٨ – ١٨٢٤) شاعر انكليزي اشتهر برهافة الاحساس وسعة الخيال والعنف والحماسة ، تطوع للدفاع عن اليونان في ثورتها على الدولة العثمانية ، وقتُل في ميسولونغي . كان لمؤلفاته تأثير كبير على نشوء الحركة الرومنطية ، واشهرها : « شايلد هارولد » ، و « دون جوان » ، و « مانفريد » .

٢ ـ زوجة عولس احد ابطال حرب طروادة ، وام تيليماك . رفضت جميع الخطّاب الذين طلبوا يدها خلال غياب زوجها الذي استغرق عشرين عاماً . إلا انها وعدت باختيار زوج لها عندما تفرغ من نسج وشاح لها ، وراحت تحل ليلاً ما كانت تنسج نهاراً كيلا ينتهي عملها .

على مقربة من الزواج ؟ أتراها ادركت اني الآن بعيد عن الزواج بعدي عنه يوم ركبتُ القطار وسافرت الى فرنسا ؟

ما أغرب اقوالها ، فقد قالت لي : « تصرُّ امي على ان اتزوج قبل الربيع ، ونحن مصطرون لان نقرر موقفنا من مهندس شاب طلب يدي ... » وقالت ايضاً : « ما كنت اريد ازعاجك ... »

اذاً فليقترن بها ، وليرحني منها . غير ان هذه القضية تهمني بعض الشيء ، لما أكنّ لها من المودّة ، وليس بدافع من كبريائي الجريح . ثم اني اشك بصدقها ، واسائل نفسي أيكون موجوداً هذا المهندس ؟ واعتقد اني اذا علمت بان هذه الحكاية مخترعة لحملي على الزواج ، فلن ارى لها وجهاً بعد اليوم في حياتي . ومن يدري ؟ فمن المحتمل ان تكون اتفقت مع امها على هذا التدبير . اما هذا وانا ذاك ، لكنني لست رجلاً يُدفع الى السير بمثل هذه الطريقة .

في الساعة الخامسة ، كنت استعد للذهاب الى المدينة ، فاعطتني رسالة وطلبت اليّ ان اضعها في البريد ، وكانت رسالة منها الى امها .

أخبرني الدكتور الشاب « ف » انه كان يفتح صندوق البريد خلسة ليقرأ الرسائل الموجهة الى خطيبته . ولما قلت له : « انت رجل قذر » ، اجابني ضاحكاً : « لا بأس ، فالقذارة تجعلني صاحب شخصية » .

اخذت رسالة سولانج ورحت افكر باني لو كنت في حاجة الى ان تكون لي شخصية على طريقة الدكتور « ف » لانفضحت قضيتي دفعة واحدة ، ولشفيتُ ، ونجوت .

لو قرأت في رسالتها قولها لامها : « حدثته عن مهندس مزعوم ... » ، لدعوتها الى مغادرة جنوى فوراً هذا المساء ، ولاصبح المستقبل نظيفاً . ومما يثير الاضطراب في المرء ان يرى نفسه مضطراً الى اختيار القيام بعمل قبيح في بعض الاحيان . فلما غادرت باريس ، كان عملي خالياً من المجد ، إلا انه كان العمل الذي لا بد من القيام به .

كم تضايقني هذه الرسائل التي تكتبها الى امها والتي تتلقاها من امها! وهي – على حد علمي – لا تراسل احداً غير هذه الام. فكم هي وحيدة في الحياة! ان حالتها تثير في نفسي الشفقة...

اظن ان هذه الرسائل تطفح باخباري. ولا ريب في ان سولانج تتلقى من «إيترتا» نصائح، وتوجيهات ديبلوماسية... فما اقبح هاتين المرأتين حين تتداولان في شؤوني! وكم كانت حياتي صافية وطاهرة يوم كنت بعيداً عن هذا الحريم، آخذ منه ما يعجبني ساعةَ اريد من غير ان ادخله ابداً، واستهتر ما طاب لي الاستهتار بالآباء والامهات عوضاً عن ان اكون مضطراً لان احسب لهم حساباً!

وحتى لو كان المهندس مزعوماً، فهل املك حق الشكوى؟ أليس من الطبيعي ان تلجأ سولانج الى الكذب لتستعجل البت في قضيتها، بعد ان اوصلتها الى الحال التي هي فيها؟ ولو اكتشفتُ كذبها واكرهتها على الرحيل، أفلا يكون عملي فظاً كريهاً؟

ما افظع ان لا يشعر المرء، بالنسبة الى شخص ما، إلا بهذه العاطفة الحائرة بين الحب واللامبالاة، اعني الشفقة! انها لعاطفة لا تسمح لصاحبها ان ينعم بالشخص الذي يعطف عليه، كما ان هذا لا ينعم بمن يجود عليه بالعطف، لأنه يحس بوجود الشفقة عليه، ومن منا يحب ان يكون موضوع شفقة؟

في مثل هذه الحال يعاني الشخصان مرّ العذاب، ويرهقان نفسيهما بلا فائدة، لأن الشفقة تنتهي حتماً بانفجار يلقي بكل منهما، متألماً مثخناً بالجراح، في المكان الذي كان يجب ان لا يبرحه.

قاعدة: لا تشفق على من لا تحب. وهذا تقريباً ما كان يقوله لي السيد دنديو.

قاعدة: لا فائدة من ان تكون لطيفاً مع شخصٍ ما اذا كنت لا تحبه الى اقصى حد، لانه يجب عليك ان تحب شخصاً ما الى اقصى

حد ، لتكون راضياً بان تسبب له السرور .

قاعدة : اعمل الخير ، لكن اجرح شعور من تجود عليه بخيرك حتى ينقم عليك ، وهكذا تُرضي ، دفعة واحدة ، ما فيك من نقيصة الرغبة في عمل الخير ، ونقيصة الرغبة في ان تكون ممقوتاً .

٢ تشرين الاول . — غداً تفتح المدارس ابوابها . هنا وفي كل مدينة من مدن اوروبا ، يخرج الاولاد باحذيتهم الجديدة التي اشتراها لهم ذووهم ، حاملين حقائبهم تحت آباطهم . عمل برونيه مشكلة زاعماً انه لا يستطيع الدرس إن لم نشترِ له عصبة للعنق خضراء بلون الضفدع . وأبى إلا ان تختار له السيدة بيلبوكيه ربطة عنق . قال لها : « انت امرأة حقيقية تحذقين الاختيار ... » وهو يحب عصبته الخضراء حباً عظيماً ، حتى اننا نعجز عن اقناعه بانتزاعها من عنقه وهو في البيت . انه يتناول طعامه وهي ملفوفة على رقبته . لم يكتب اليّ منذ الخامس والعشرين من الشهر الماضي .

كان يزعجني ، هو ايضاً ، يوم كنا نعيش معاً . لكنه يختلف عن سولانج . يتطلب تبيان الفرق بين ازعاجه وازعاجها شرحاً طويلاً يملأ صفحات عديدة . ومن المحتمل ان يكفي سطر واحد لتوضيحه . كان يضايقني في عملي ، لاني كنت منهمكاً في حبي له .

كتبتُ ما يلي مساء :

كان هذا اليوم معها طويلاً لا ينتهي . لا شيء مهم . كل ما في الامر ان كلاً منا لم يجد في ذهنه شيئاً يقوله للآخر . أتخيّل نفسي مصمّماً على الاقتران بها ، ومخاطباً نفسي بما يلي : « لا بد من التفكير باننا سنحيا معاً ثلاثين عاماً ، لا يجد خلالها احدنا ما يقوله للآخر . وليست هذه بداية ، بل هذا هو وضعنا ونحن لم نبدأ بعد » .

وقد يجري بيننا الحوار التالي :

انا : اراكِ كئيبة ، فما الذي حل بك؟

هي : تعلم السبب جيداً ، فحالنا هي هي .

انا : أتخشين المستقبل ؟

هي : اجل ، تخيفني فكرة تجريدي مما أملك .

انا : تجريدك ؟ من اي شيء ؟

فتجيب باصرار لتنكأ الجرح بلا رحمة :

ـ منك انت !

ـ اذاً ، انت تظنين انك تملكيني ؟

وعوضاً عن ان تجيب ، تلتصق بي . وهذه البادرة منها تفقدني صوابي من شدة الغيظ . فقد جمّدت كلمتها الدم في عروقي . ولفكرة « امتلاكي » ثلاثة معانٍ : الامتلاك بوضع اليد ؛ والامتلاك بالمعنى الشعبي الدارج ، اي انها خدعتني ونالت مني مأربها ؛ والامتلاك بمعنى الاستيلاء الشيطاني . وهذا ما يذكرني بذلك الكابوس الذي رأيتها فيه مستلقية عليّ كالتعفّن المتراكم ، وبكل ما اراه وألمسه من طريقتها بامتصاص حياتي .

منذ حين ، رأت قطاراً يمر ، فتنهّدت قائلة : « كم يحمل هذا القطار من آمال خائبة ، واحلام لم تتحقق ؟ » فالمرأة لا تفكر بان القطار الذي يمر يحمل ايضاً ، في بعض الاحيان ، احلاماً تحققت . ان النفوس الهزيلة الفقيرة تجد تعزيتها في الكآبة . ففي الغرب ، حيث تسود المرأة ، يقدس الناس الألم والعذاب ؛ وفي الشرق ، حيث يسيطر الرجل ، تسود الحكمة . اما انا ، الى جانب هذه المرأة الصامتة المتكدرة ، فاني اجترُّ مرارتي ، واقول كلمات غير لائقة بي ، وغير لائقة بها . وفي مثل هذه الحال ، اتناول ذراعها ، واضع يدي على يدها . وكلما احسست ان بيننا فارقاً لا نستطيع التغلّب عليه ، اداعبها مداعبة صغيرة ، لأوهمها باني احبها كأني اشعر انها حزرت حقيقة ما يجول في خاطري بشأنها . وقد غدوت استفظع هذه المداعبات الكاذبة التي تسيء الى المودة الحقيقية اذ تقلدها

تقليداً سخيفاً ، بقدر ما تسيء الشفقة الى الحب .

يا الهي ! لا تسمح بان استرسل في كل ما يعتلج في صدري ضدها ، كي استطيع المحافظة على رباطة جأشي طوال الايام الثمانية الباقية من مدة زيارتها !...



تقوم الحياة الثنائية كلها تقريباً على ان ينتظر احد الزوجين زوجه . وعملاً بهذه القاعدة لم تكن سولانج مستعدة للخروج من الفندق ، فسبقها كوستال الى الشارع وجلس في السيارة التي كان قد استأجرها لتحملها الى سان كاسينو . وتعرف قرية سان كاسينو بانها مكان يذهب اليه المتنزهون وطالبو الترويح عن النفس ، اي انها غير جديره بالاهتمام ، لأن الغاية الوحيدة من الترويح عن النفس هي اضاعة الوقت . واخيراً وصلت سولانج ، فقال لها :

– ان البودرة على وجهك ليست على ما يرام .

اجابت : لقد اسرعت في رشها .

فنظر اليها بمكر ، لا لشيء إلا لأن بودرتها لم تكن مرشوشة بعناية ، ولأن هذا الاهمال ألقى على وجهها سحابة غير مستحبة . وقد خيّل اليه انه يراهـا كما ستمسي في الخمسين من العمر : بورجوازية كهلة ، ملطخة بالبودرة ، تثير دمامتها الاشمئزاز .

وانطلقت بهما السيارة على الطريق .

كانت السماء زرقـاء مخضرّة كبطن بعض القرود . ومن حين الى آخر كانت تنفتح فجوة بين الحقول ، فيطلّ منها وجه البحر القاسي وامتداده اللامتناهي الذي يعمي النظر بلونه اللازوردي المتألق في وجه الشمس ، وينبعث منه بَرْد كأنه خارج من جوف بئر .

وكانت سولانج صامتة لا تفوه بكلمة . وفي الحيـاة الثنائية ليس من حق احد الزوجين ان يبدو شارد الفكر او غارقاً في تأملاته ، من غير

ان يشعر بقلق زوجه وبما يستحق من اللوم على شروده .

وفعل كوستال ما كان يفعله حين لا يجد موضوعاً يفاتحها بـه ، اي انـه مدّ ذراعه تحت ذراعهـا وامسك بيدهـا بدافع القيـام بالواجب . فاندست به صامتة ، ولمح في عينيها نظرة توبيخ اخرس ينطوي على سؤال دائم : « لماذا ، لماذا لا تقترن بي ، انت الذي يعلم كم احبه ، وانت الذي يتظاهر بانه يحبني ؟ »

وبعـد قليل بـدأت ملامح وجههـا تعبر عن انزعاجهـا كلما ارتجّت السيارة ، فكانت تمدّ يدها وتمسك بقبضة الباب لتحافظ على توازنها . اما كوستال فـلم يكن متضايقـاً من ذلك الارتجـاج ، ولمـا كان شعر بان السيارة ترتجّ لو كان وحده فيهـا . إلا انـه مـا لبث ان بـدأ يشعر بالارتجاج ويتضايق منـه رويـداً رويـداً . ففي الحيـاة الثنائية تتداخل احاسيس الزوجين ويصبح شعورهما مشتركاً : اذا ضجر احدهمـا أجبر الآخر على ان يضجر ، واذا تألم هذا من وضع غير مريح أكره ذاك على ان يتألم مثله .

وهكذا افسد كوستال بهجة تلك النزهة التي استغرقت ساعة .

واخيراً وصلا الى سان كاسينو .

كانت القرية هادئة في رواء الصباح ، ترفل بلونين : الاحمر والابيض . وقد انطلق بعض الاولاد يلعبون في ساحتها ، وكانوا كبـار الارجل مخبثـاء الانوف ، متلاشين عيـاءً من كثرة اللعب ، يتبارون في تعذيب بعضهم بعضاً . وبدا رجل نائم في الشمس ، يغطيه الذباب كأنه جرح . ثم مرّت كلاب يبدو عليها الاهتمام كأنها تسعى الى اهدافٍ معينة ، الى مواعيد عظيمة الشأن .

وتحركت سيارة سياح كبيرة عاد اليها ركابها بعد ان زاروا الكنيسة . وكانت فيهـا سيدة ناضجة ، ظاهرة الغرور ، على ركبتيها كلب صغير ، فتبادل كوستال مع الكلب نظرة مريعـة في منتهى الدناءة ، فقالت له

سولانج بصوت خال من اللطف :

– أتغمز هذه العجوز المقرفة ؟

فاجاب : لا ، بل غمزت الكلب . آه ، كم كان يبدو متحرراً ومتوقد الذكاء !

وكانا قد ترجلا من السيارة ، فتوجها الى الكنيسة . وكانت الآنسة دنديو تنظر باستمرار الى رأس حذائها ولا ترفع عنه عينيها . وكان هذا دليلاً على انها تقدر زيارة الاماكن الجميلة التي يقصدها السياح .

لقد ثبت في تلك اللحظة انها كانت غارقة في همّ الزواج .

ولما دخلا الكنيسة ، جثت سولانج ، وظلت جاثية فترة طويلة . وما إن عادا الى الخارج حتى سألها كوستال : « هل التمست من اله المسيحيين ان يجعلني ارضى بالزواج بك ؟ » فاجابت بلا خجل مصطنع : « قلت بكل بساطة : يا الهي ، ساعدني على ان اكون سعيدة » .

– أمؤمنة انت ؟

– لا ، لكن في نفسي شيئاً ما ...

وكان كوستال ينتظر جواباً من هذا النوع ، فطرح سؤاله ليتلقى الجواب الذي تلقاه ، ولتزداد سولانج غرقاً في أوحالها .

ما افظع الجحيم التي يقع المرء فيها حين يكون مضطراً للاستمرار في مسايرة امرأة لا يحبها ! ان المسايرة حلوة اذا بذلتها لشخص محبوب ، فاذا اضعت فيها بعض الوقت تستطيع ان تقول في نفسك : « كنت بحاجة الى هذه الفترة من الراحة » .

قبل الحرب ، كان كوستال يقتني كلباً كبيراً من النوع المعروف باسم الرعاة الألمان . وفي اغلب الاحيان ، كان هذا الكلب يرى صاحبه خارجاً من البيت ، فيلحق به من غير ان يتلقى دعوة او اشارة منه ، ثم يعرب بلا تحفظ عن رغبته في ان يبادر صاحبه الى اللعب معه . فكان كوستال يركّضه وراء الحجارة التي يرميها له . وكانت هذه اللعبة تستمر مسافة

مائتي متر . وفي بعض الاحيان كان كوستال يعتبر كلبه اسداً ويزأر عوضاً عنه ، فيروّضه ويسيطر عليه .

وبعد اجتياز مسافة مائتي متر ، كان كوستال يتضايق من هذه اللعبة ، لانه لم يخرج من بيته إلا ليقرأ ، بل ليشتغل ، فيخاطب كلبه بحزم قائلاً له : « يا لك من قرد عتيق ! هذه آخر رمية ارميها لك » . إلا انه كان لا يكاد يرى انظار الكلب المتوسّلة ، وما تعبر عنه من الكآبة التي لا تقاوَم ، حتى تتجدد « الرمية الاخيرة » مرات عديدة ، فتذهب النزهة سدىً .

من حسن حظ الآلهة ، والحيوانات ، والاولاد ، والجماعات البدائية ، وكوستال (وهذا التعداد عظيم المغزى وإن يكن بريء المظهر) اننا نستطيع ان نردد بشأنهم جميعاً كلمة هيزيود[1] : « عقل زفس ينتقل بسهولة من فكرة إلى أخرى » . فقد كان يحدث احياناً ما ليس في الحسبان ، اذ تتبدل فجأة حال الكلب ، ويخمد حبه لكوستال ، فيترك اللعب ويعود وحده الى البيت . وهكذا ينجو الكاتب من شيطان الشفقة ، فيفتح كتاباً وينصرفُ الى القراءة .

كان يتذكر هذه الحوادث وهو يسير الى جانب سولانج قائلاً في نفسه : « انها تجد متعة كبيرة في الخروج معي الى مثل هذه النزهات ، وإن يكن مظهرها لا يدل على شيء من السرور . فلكلٍّ ذوقه الخاص » . وتبادر الى ذهنه انها لو غيّرت فكرها فجأة على طريقة الكلب ، وخمد حبها ، وعادت وحدها الى السيارة لتتركه وحيداً عشر دقائق فقط ، لتنفس ملء صدره بارتياح لا مزيد عليه !

وفي طريق العودة الى الفندق ظلت صامتة ، واكفهرّ وجهها وازداد

---

١ ـ شاعر يوناني عاش في القرن الثامن قبل الميلاد . نظم قصائد تثقيفية واخلاقية اشهرها : « الاشغال والايام » .

عبوساً . واستمر صمتهما حتى في جنوى عندما جلسا يتغذيان في المطعم ، يحيط بهما خمسة ازواج او ستة ليس بينهم من يفتح فمه إلا ليمضغ الطعام . فراح كوستال يخاطب نفسه قائلاً : « نحن مثال الزوجين الازليين اللذين يمضيان وقتهما في المالدة والمشاكسة . واذا شئنا ان نكتشف اعماق الحقارة في المخلوق البشري ، فاننا لا نجدها إلا في الزوجين ، مهما يكن الفرد حقيراً في بعض الاحيان » .

وقبل ان يفرغا من تناول الطعام ، حاولت سولانج ان تجاذبه اطراف الحديث ، فأصر هو ، هذه المرة ، على التزام الصمت ، وكاد يطلب العُقْبة قبل اوانها ، ويدفع ثمن الوقعة ، ويعود الى الفندق تاركاً سولانج وحدها ...

غير انهما خرجا من المطعم معاً ، فراح كوستال يضرب ربلتيه بذنبه ، اذ كان يتخيّل نفسه كرونوس[1] جديداً له رأس اسد ، منذ اللحظة التي تحدّيا فيها الشمس . وتبادر الى ذهنه انه اصبح من حقه ، بعد تلك النزهة ، ان يخلو بنفسه بضع ساعات . إلا انه كان لا بد له من رؤية سولانج في اواخر النهار . وكانت اللحظة التي سيعود فيها الى الفتاة شديدة القسوة عليه ، لأنه كان يفكر بان سولانج لا تقوم باقل عمل يشغلها عنه فترغمه على اضاعة وقته هو الآخر ، وهذا ما يُنزل به عذاباً اليماً .

وما إن وصلا الى الفندق حتى هبّت العاصفة ، اذ توجّه كوستال الى سولانج قائلاً :

— والآن ، ارجو ان تخبريني بدقة وصراحة لماذا كنتِ بادية الاستياء هذا الصباح ؟

— لم أكن مستاءة ، بل انت الذي كان متحفظاً ، فما احسستُ انك

---

١ — اله يوناني حراثي ، ابن اورانوس وحيا ، اي السماء والارض ، وابو زفس . وهو صنو الاله الروماني ساتورن .

تألفني او تثق بي ...

– لا استرسل في الالفـة معك لاني اعرفك اكثر من اللزوم ، ولأني لا استرسل في هـذه الألفة إلا مع الذين لا اعرفهم ، وعنـدما يكون استرسالي محفوفاً بالخطر .

– أتثق بأناس لا تعرفهم ولا تثق بي ؟

– لا اثق بأحد .

– ألا تثق بي ؟

– اثق بما انت الآن . واكون كاذباً اذا قلت لك اني اثق بما قـد تصبحين في المستقبل .

فرفعت كتفيها بحركة عصبية ، وقالت :

– كلما لزمتُ الصمت حسبتَني مستاءة . ومن هي « الآنسة سكوت » ؟ أنسيتها ؟ اني اشعر دائماً بارتياح عميق عندما اكون غـير مضطرة الى الجواب عن الاسئلة التي تُطرح عليّ ... وجلّ ما اشتهي ان أفهَم من غير ان اضطر الى التعبير عما يخالج نفسي ... ألا ترى ان جميع الناس يلزمون الصمت احياناً ؟ أما كانت امـك تلزم الصمت في بعض الاحيان لما كنتَ تخرج معها الى النزهة ؟

– اتوسل اليك ألّا تُدخلي امي في مثل هذه الامور ، فاني لم اصطدم قط بادنى صعوبة مع امي . كنت دائماً مسروراً معها ، وكانت دائمـاً مسرورة معي ... ألم تكوني مستاءة هـذا الصباح ؟ لم تتفوهي بعشرين كلمة طوال ثلاث ساعات ، وتقولين انك لم تكوني مستاءة ؟

– لا ، لم اكن مستاءة . كنت افكر بالمستقبل ... وكنت في غاية السعادة لوجودي معك ...

– من يراك في مثل الحال التي كنت فيها لا يستطيع ان يعتقد إلا انك غاضبة معاندة . واذا كنت في فترات سعادتك تتخذين مظهر المرأة المعاندة ، فهذا امر شديد الخطورة . ولديّ اعمال اهم بكثير من ان

أمضي يوماً كاملاً لأسائل نفسي : « ما بها ؟ ما الذي تريده ؟ أتراني أسأت اليها ؟ وكيف كانت هذه الاساءة ؟ أتراها متجهمة لانها سعيدة ؟ » لا يفرحني ان اكون معلقاً بما يمكن ان يمر في رأس امرأة . لنفترض ان بيننا سوء تفاهم انا سببه ، ولنفترض اني لجوج ، سريع الغضب ، صعب المراس ، فهناك حقيقة راهنة لا بد من اخذها بعين الاعتبار وهي اني اعرف عشرات من الرجال والنساء لا يحدث بينهم وبيني اقل اصطدام ولا اقل سوء تفاهم . اما معك انت فقد وقع هذا الاصطدام بعد اسبوع واحد من حياتنا المشتركة . لو بلغنا هذه النتيجة بعد خمس سنوات من الحياة الزوجية ، لهان الأمر ا... لا ، صدقيني ، اذا كنا في مجال تبادل الحب يسيء كلٌ منا الى الآخر ، فهذا دليل على ان حالتنا ليست سليمة . اني احبك ، ومع ذلك اشعر باني استطيع الاساءة اليك ، لكن من سوء حظي اني لا اجد في نفسي الشجاعة الكافية لاخطو الخطوة الحاسمة واصبح شريراً في معاملتك بلا تحفظ .

– اذا كان شقاؤك كله ناجماً عن انك لا تستطيع ان تكون شريراً معي ، فأقدم ولا تتردد ... تحرّر حالاً من هذا الشقاء .

وكانت تذرع الغرفة طولاً وعرضاً ، وتسير بخطى عصبية تائهة بين خطوط من نور الشمس وخطوط من الظلّ كأنها حيوان مفترس يتمشى بين بقع الشمس في قلب الغاب ، ويضرب ربلتيه بذنبه .

اجل ، كان في هذه الفتاة ، التي عاشت في الظل لا يلمع لها ضوء ، شيء من الشراسة والضراوة .

كانت ملامحها قاسية ، وقد احتقن الدم في وجهها ، فاعتكر بياض عينيها واحمرّت وجنتاها ، ولمع انفها في وسط وجهها الكامد اللون بفصل البودرة . فادرك كوستال كم اصبحت امرأة ، وكم جعلها هو امرأة لكثرة ما دعكها واشتغل بها . آه ! لقد كان دعكها متقناً ، كاملاً .

ومنذ وصولها الى جنوى ، ومنذ بدء مداعباتها التمهيدية ، لاحظ ان

صوتهـا لم يبقَ صوت تلميذة مدرسة ، ذلـك الصوت الآتي من كوكب آخر ، الصوت الحالم الحنون كأنه من القمر . وقد تصلبت قسمات وجهها وغدت نظراتها اشد رهافة . اما الزخم الجديد الذي امست تغرس بـه الدبابيس في شعرها ، وتمشط بقوته كتل هـذا الشعر الكثيفة ، فكان مثقلاً بالخطر على حرية العقل وحرية التفكير .

كانت من قبلُ خرشوفاً صغيراً ، ماذا بها امرأةً الآن . يا لهـا مـن حقيقـة مزعجـة ! كانت شبيهة بالبحر يتفحصه المزمع على السفر ، وهو خائف ، في الساعة السابعة صباحاً ، فـيراه هادئاً ساكناً . وفي الساعـة العاشرة ، بعد ان تكون السفينة قد اقلعت ، تعصف الرياح وتتلاطم الامواج .

ما كان اقسى ملامح المرأة في وجه سولانج ! لقد ملأت نفسه خوفاً : خوفاً مما بدأت تصير ، خوفاً مما تستطيع ان تلحق به من المتاعب اذا دفعه الجنون الى الاحتباس معها في قفص واحد .

ولما كانت ترقد فيه دائماً نزعة ضارية لا تنتظر إلا الفرصة السانحـة لتستيقظ ، فقد جاء الخوف ، هذه المرة ، يهزها ويوقظها . وهـذه عملية مألوفة لا تتبدل في الوحوش ولا في الرجـال : فالخوف يولّد الضراوة الساعية الى القضاء على ما يخيف ، والضراوة تعمل بدورها فتولّد الخوف ، ولاسيما الخوف من الانتقام .

وكانت سولانج تذرع الغرفـة طولاً وعرضاً ، وهي مفعمة بالنشاط ، وقد خلع عليها الاضطراب جمالاً جديداً أخاذاً ، فبدت كأنها فهدة في قفص ، بينـما كوستال جالس في ركن من الغرفة ، منطوياً على نفسه ، منحنياً الى امام كأنه يتحفز للوثوب ، وقد احدودب ظهره قليلاً فبـدا كأنه ظهر وحش انتفش شعره غضباً وخوفاً ، وتغضّنت جفونه ، وارتسم الشر على شفتيه حتى امسى شبيهاً بالضبع .

واستأنفت سولانج الحديث قائلة :

— اذا كنت تعتقد ان تجربتنا قد انتهت ، وانك لا تستطيع العيش

معي ، فلم يبقَ عليّ إلا ان ارحل . لم افرض عليك نفسي، بل انت الذي دعـاني ...

– اني انتظر هذا القول منذ زمن بعيد . اجل ، انا دعوتك ، لكن لـماذا دعوتك ؟ لاني شعرت بانـك شقيـة . لم اكن في حاجـة اليك ، وكنت على يقين بان حضورك سيشوّش حيـاتي ويعرقل عملي . غـير اني دعوتك استجابـة مني لاشفاقي عليك . فشيطان الشفقـة يبلبل دائمـاً حياتي ...

فانطرحت الآنسة دنـديو على احد المقـاعد واجهشت في البكـاء . وردّ كوستال رأسه وكتفيـه الى وراء كملاكم صرع خصمه بضربـة حاسمة ، وهو يقول في نفسه : « قضي الأمر ، فهـا هي تعرف الآن ما هو البكاء[1] ! »

واستطرد كوستال قائلاً :

– ان حالتي هي هي دائماً : اصارع الشفقة حيناً ، ثم ألين واتراجع . إلا ان الشفقة سلاح ذو حدّين ، لا ينقلب عليّ وحدي ، بـل على مَن اشفقت عليـه ايضاً . فالشفقة تخطىء هدفها دائمـاً ، وهـذا امر يحتم لا مناص منه . وعندئذٍ أتـألم ، اعني اني اصبح شريراً ، لأن الألم عنـدي ليس سلبيـاً ، جامداً ، بـل هو متحرك ينقلب فوراً الى هجوم . والقسم الاكبر من اعمالي القاسية لم يكن إلا ردات فعل للشفقة . هذا هو العامل الاكبر في توجيه تصرفاتي مع النساء والرجال على السواء . واني اذكـّرك بتلك المرأة الـتي رأيتهـا عنـدي في شارع بور رويال[2] ... وثمـة نساء

---

١ – ان سولانج لا تبكي مطلقاً ، ولم تبكِ قط في ما مضى . سألها الطبيب يوماً : « ألا تستطيعين البكاء عندما ينظر احد اليك ، ام انك لا تستطيعين البكاء مطلقاً ؟ » فاجابت : « لا استطيع البكاء مطلقاً » . (راجع « رأفة بالنساء » . – المؤلف .

٢ – اندريه هاكبو . – المؤلف .

عديدات غيرها في مثل حالها ... فالشفقة او الرحمة هما ابدأ ينبوع اعمالي. وكلما أزلت الشفقة خللاً في حياتي ، جاءت القسوة تعيد النظام الى مجراه الطبيعي . ومهما يكن من الأمر ، فاني لا ادري لماذا التحدث عن « الشفقة »، والقضية اوسع واهم من هذا الشعور البسيط ، لانها تتناول « مفهوم الخير » برمته وتطرحه على بساط البحث . والخير ، في نظري ، هو ان يعيش المرء بقوة ولا يبالي بالآخرين . اخاطب نفسي قائلاً لها : ان حرارتك تدفىء الآخرين ، وتبعث فيهم الحركة والنشاط . لكني أدرك فوراً أن ليس هذا ما احب . فالنزوع الى عمل الخير تجربة مريحة تنتابني ، فاقع فيها مهما قاومت ، ومهما بذلت من المحاولات ! هذا عيب ونقيصة . وعمل الخير يطرحني ارضاً . أتدرين ان الصواريخ ، التي كانت تنطلق حتى تبلغ ذروة انطلاقها ثم تسقط وتتلاشى ، قد زالت من الوجود ؟ فالصواريخ اليوم تسقط احياناً على الجماهير ، فيصاب كثيرون بجروح . ولولا الانطلاق والسقوط ، لما كان التلاشي المقيت ، ولما جُرح احد . تتبادر الى ذهني حكاية القط المجنون الذي اتسمت عيناه حماسة ، فقفز الى اعلى الشجرة ، ولم يعد قادراً على النزول ، فراح يبكي ، فلم يكن ثمة بد من تسلّق الشجرة لانزاله . وانا شبيه بهذا القط ، فعندما اعمل الخير ، او عندما اقوم بما تسمّيه العامة « واجباً » ، اكون قد استسلمت لحماسي وقفزت الى اعلى الشجرة ، فاذا انا عالق في الشرك ، اندب سوء حظي . ان الكآبة التي تستولي عليّ في مثل هذه الحال هي كالكآبة التي تلي العمل الجنسي . غير ان الكآبة الناجمة عن العمل الجنسي جسدية تمر سراعاً ، وقلما اشعر بها ، لاني اجد في الوصال متعة كبرى يرافقني الشعور بها الى ما بعد العمل . وعلى كل حال ليس هذا بالأمر المهم . والذين يتذرعون بهذه الكآبة ليعززوا حملتهم على الشهوة والعمل الجنسي ليسوا إلّا حمقى واغبياء . اما الحزن العميق الذي يلي عمل الخير فانه يستمر طويلاً ، لأن له ، على ما اعتقد ، اسباباً وجذوراً

عميقة . وربما كان احد هذه الاسباب علمي بان هـذا الخير الذي عملته عـديم الفائدة ، اعني انـه مفيد في الظاهر ، وغير مفيد بالحقيقة . وفي مثل هذه الحال أدرك اني مخدوع ، فأتألم . وربما كان احد هذه الاسباب شعوري بان عمل الخير الذي يسبب لسواي السرور والارتياح ، لا يسبب لي إلا الخيبة وتبكيت الضمير ، فادرك عندئذٍ اني اختلف عن الآخرين... ولا يسرني هذا الاختلاف عن الآخرين ، لأنه ليس من النوع الذي يجعلني متفوقاً عليهم .

اجابت سولانج وهي تشهق وتذرف الدموع :

– قلت لي ، يوم التقينـا في المطبخ : « اني اتمتـع بالشر ... لكنني اعتقد اني اتمتع بالخير اكثر ... »

فقهقه ضاحكاً ، ثم قال :

– قلت لك هذا لانه مناقض للحقيقة ؛ قلته لأغمز من قنـاة الله . وهذا تعبير دارج ارسله على علاته ، لاني لا اؤمن بوجود الله .

وساد بينهما الصمت هنيهة ، ثم استطرد كوستال قائلاً :

– حياتي حافلة بالمغامرات . لنفترض اني خضت مائتي معركة وخسرت مائة منها ، فسبب خسارة خمسين من هذه المعارك المائة هو الجبن ، لاني كنت اخـرج من الصف وألوذ بالفرار لا ألوي على شيء . ولم يكن الجبن هو الحافز الوحيد لهـذا الفرار ، فثـمة حافز آخر هو احتقاري لآراء الناس . احب الفرار لأن الناس يعتبرونه عاراً . وقد احسن احدهم واصاب لباب الحقيقة حـين تحدث عني قائـلاً : « ان كوستال لا يتخذ قراراً حاسماً إلا عندما يكون الامر متعلقاً بالفرار » . امـا المعارك الخمسون الباقية فقد كان سبب خسارتها دقيقة من التردد . أجل ، ترددت دقيقة واحدة فتفوّق عليّ العدو . ان دقيقة من التردد تكفي لخسارة معركة . وهذه المعارك الخمسون التي خسرتها بسبب التردد ، كان سبب التردد فيهـا : الشفقـة . كنت اشفق وانا قادر على ان اكيل ضربتي ،

فاحجم عن الضرب . وكانت النتيجة اني تلقيتُ الضربة .

– وهل ضربتك انا ضربات عديدة ؟

– اجل ، من غير ان تعلمي .

وكانت سولانج تنتحب ويداها على وجهها ، فيرتعش جسدها وينتفض . ثم مدت يدها الى ثوبها وراحت تدعكه بنزق حتى تفتّق ، وكوستال يسائل نفسه : « أيجوز ان اسكت وان أدعها وشأنها ؟ » يا للشفقة ! انها لا تفارقه ابداً . إلا انه كان يحب نقمته عليها ، خصوصاً في ذلك اليوم ، لانها لم تكن انيقة ، ولان البودرة التي طلت بها وجهها لم تكن على ما يرام .

تحدث أخيل[1] في الالياذة ، عن الغضب فقال : « انه عذب كالعسل » . ومن لم يهزه الغضب والبغض من رأسه الى اخمص قدميه ما هو إلا تافه مسكين . ليس للمرء فضل اذا كان طيّباً ما دام لا يستطيع ان يكون شريراً ! ثم ان كوستال لم يحاول مرةً في حياته ان يبدي اهتماماً بمن يبكي لأنه يبكي ، حتى لو كان الباكي ابنه . فقد كان يمقت الدموع . فيوم كان ابنه حدثاً ما زال به حتى جعله يعد بان لا يبكي . وفي بعض الاحيان كان برونيه يدس وجهه في ثياب الآنسة دي بيرون قائلاً لها : « خبّئيني ، لاني اريد ان ابكي ، ولا اريد ان يراني ابي باكياً » . وذات يوم ، وكان في الثالثة عشرة من العمر ، اخذ من ابيه ورقة نقديّة قيمتها خمسون فرنكاً ليشتري حبراً لقلمه ، وكان عليه ان يعيد ما يبقى من هذا المبلغ . فعاد ، بعد قليل ، متجهم الوجه وقال لابيه : « ان خادم

---

١ – اشهر الابطال اليونانيين في ملحمة الالياذة . اشترك في حصار طروادة وقتل هكتور ، إلا انه اصيب بسهم سامّ في عقب رجله فمات . ويُضرب المثل بعقب رجله لاعتباره المقتل الوحيد في جسده . والمقول ان امه غطّسته ، يوم كان طفلاً ، في نهر جهنمي لتكسب جسمه مناعة ، وكانت قابضة باصابعها على عقب رجله ، فاعوزت المناعة هذا العقب .

الحانوتي سرّق مني خمسة عشر فرنكاً ، ولما طالبته بها اجاب بانه دفعها لي . آه ، لو كان هناك احد رجال الشرطة !... »

ولم يكن كوستال قد لاحظ في ابنه ميلاً الى السرقة ، إلا ان ضياع الفرنكات الخمسة عشر بـدا له مشبوهاً وخلق في نفسه الشك ، فقـال لبرونيه :

— هــذه مشكلة ، لاني لا اعـلم من هو الكاذب ؟ انت ام خادم الحانوتي .

ومرت عشر ثوانٍ لم يقل كوستال خلالهـا سوى كلمات مبتـذلة عن استيائه من ضياع الفرنكات الخمسة عشر . وبعد هذه الثواني العشر، احمرّ وجه برونيه ، وانتفخ فمه ، فبدا كالضفدعة ، ثم راح يبكي .

سأله ابوه :

— لماذا تبكي ؟

— لانك قلت اني اخذت الفرنكات الباقية من ورقة الخمسين فرنكاً .

فايقن كوستال عندئذٍ ان ابنه صادق ، لكنه لم يقبّله ، ولم يحاول تسليته ، ولم يقل له شيئاً ، بل تركه يبكي ، ولم يتلفظ إلا بجمل مبتذلة وغامضة لا تعني شيئاً .

ولما جفّت عيون الولد قال له :

— اعلم اني اصدق كل ما تقوله لي .

ومرّت عشر ثوانٍ اخرى ، فاتخـذ برونيـه شكل الضفدعة مرةً اخرى وعاد الى البكاء . فقال له ابوه :

— لم يعد لك حق بالبكاء ، فلماذا تبكي ؟

لم يُجب الولد بشيء ، بل تنهّد من اعماق صدره ودنا من ابيـه — وكانا جالسين على مقعد طويل — والقى خدّه على خد كوستال . فادرك هــذا ان ابنه بكى لسببين ، اولاً : لان خادم الحانوتي سرق منــه الفرنكات ، ثانياً : لان اباه شك به . وممـا يدل على رهافة احساسه ،

ان دموعه نفرت من عينيه مرةً اخرى لما ايقن ان اباه صدّقه .

ولما احس كوستال بخد ابنه على خده ، وهو طري كجسم سمكة بيضاء ، قاوم عاطفته الابوية ، فما قبّله ولا داعبه ، بل اكتفى بملامسة يده ، ثم انتقل الحديث بهما الى موضوعات اخرى .

وكانت غاية كوستال من تصلبه في مثل هذه المواقف ترويض الناس وافهامهم ان دموعهم لا تؤثر فيه ولا تغيّر نظرته اليهم . غير انّ دموع برونيه لم تكن عديمة الجدوى ، لانها برهنت عن صدقه . لكن هذا موضوع آخر .

واستأنف كوستال حواره مع سولانج قائلاً :

— بدأت اشفق عليك يوم ادركت اني لا احبك كفايةً ، اي منذ بداية تعارفنا . آه ، لو كنت احبك ! لو استطعت اخراجك من جحيم الشفقة لادخالك الى نعيم الحب ، اذاً لاصبح كل شيء في منتهى السهولة ومنتهى الروعة . اني اعلم مـا هو الحب ... ولو احببتك لكنت الآن زوجتي منذ ثلاثة اشهر . لكني لا احبك ، اعني اني لا احبك كلياً . وثمة هوّة بعيدة القرار بـين الحب الكلّي والحب غير الكلي . فالحب غـير الكلي ليس حباً ، لأن حياتي فيه تظل بعيدة ، في مكان آخر ، في مكان لا تكونين انت فيه . لقد كنتِ في حياتي حادثة سوء تفاهم ...

انتفضت الآنسة دنديو ، ووقفت مرتجفـة ككرة البلياردو الرومي عندما تختلج لدى سقوطها في الثقب ، ثم هرولت الى الباب تريد الخروج . فاعترض سبيلها ، وقبض على ذراعيها ، وارغمها على الجلوس ، وجثا على ركبة واحدة ، وجعل يهدهدها ، وهي تبكي وقد دست وجهها في صدره ، فاغمض عينيه بكآبة ظاهرة .

وكان كئيباً لعلمه بان تلك الهدهدة لا تغيّر شيئاً من موقفه . كان يمقت جميع انواع المداعبات والملامسات التي يحاول الناس ان يحجبوا بها وضعاً أليماً لا علاج له . فراح يصارع الاقوال المأثورة التي يرددها بعضهم

في مثل هذه الاحوال ، كقولهم : « اضربك بيد واشفيك بالاخرى...» ؛ راح يصارع التفكير بتصرفات الازواج والزوجات العاديين الذين يعتقدون ان حوادث الخصام تنتهي دائماً في الفراش .

لم يقل لسولانج شيئاً ، لأنه كان شريفاً ، فلم يشأ ان يعلل أملها بالاوهام . ولو اراد ان يخاطبها ، فما عساه يقول لها ليعزيها ؟

انها لا تتعزى إلا اذا سحب اقواله الاخيرة وكذّب نفسه ، وهذا ما لم يكن مستعداً للاقدام عليه حتى لو توسلت اليه . « ان النزوع الى الصراحة نوعٌ من الشغف يبرّر جميع الجرائم [1] » .

وانقطعت سولانج اخيراً عن البكاء ، فباست وجه كوستال ، وباست راحة كفه ، وباست حتى معصمه المكسو بالشعر . فتعجب من البوستين الاخيرتين اللتين لم تقدم عليهما من قبل ، واعتبرهما ضرباً من الشذوذ لا يلائم ذوقه ، خصوصاً عندما فكر بالتصاق شفتيها بشعر معصمه .

من الواضح ان النساء َلسْنَ لجميع المخلوقات ما دمن يجدن متعتهن في ملامسة رجل مختمر . وربما كانت هـــذه النزعة فيهن من طبيعة جلسهن .

واسترسلت في الحركات بينما كان ينتظر منها كلمات . واخيراً بدأت تتكلم ، فقالت :

— اني ابـذل جميع جهودي لاجعلك سعيداً . وانت تعلم اني كنت في بيت اهلي أحيا حياة فتاة صغيرة بعيدة عن التجارب . لم اخرج قط من ظل ابي وامي ، ولم يكن لي اصدقاء ، فكيف تريدني ان لا اكون شكسة ، قليلة المرونة في علاقـاتي برجل مثلك ؟ يجب ان اعتـادك . وهذه مسألة تحتاج الى تدرّب وممارسة . تقول انه من الخطورة بمكان

---

١ ـ جان كلمو . ـ المؤلف .

ان يقع بيننا الاصطدام قبل الزواج ، لا بعد مرور خمس سنوات عليه ، مع ان الخطورة اشد في اصطدام يقع بعد خمس سنوات من الحياة الزوجية . فسيأتي يوم تصبح فيه العادة ...

فقاطعها قائلاً :

– لكني عازم على ان احيا حياةً لن تصبح ابداً عادة .

– إعترفْ باننا لسنا الآن في وضع طبيعي ، ما دمت تظن انك مضطر الى الاهتمام بي طيلة النهار . فلو كنا في حالة طبيعية لما كنا نلتقي إلا بضع ساعات في اليوم . ولو كان الأمر بيدي في هذه اللحظة ، لكنتَ مطلق الحرية على اوسع نطاق . أتظن اني ، منذ خمسة عشر عاماً ، لم اتعلم كيف اجد عملاً أتسلى به وحدي ؟

وكان في هذه الاثناء يتابع مداعبتها ، فجعل يملّس جبهتها ليمحو منها التجاعيد ، فقالت :

– هل تجعّدت جبهتي ؟

فاجابها مازحاً :

– أما قلت لك في رسائلي اني احتفظ بحقي في ان اجعلك شقية يوماً واحداً من كل خمسة عشر يوماً ؟

واشار الى البقع التي احدثتها الدموع على كمّيه ، ثم سألها أتكفي موادّ التنظيف العادية لازالة آثار الدموع ، ام هي تفضل بقاء هذه الآثار بمثابة تذكار ؟ وفي مثل هذه الحال تتخذ ثيابه المبقعة اسماً جديداً فتدعى مثلاً : « ينبوع ايطاليا » ، او « المرة الاولى التي فيها بكيت » .

وبعد هذا المزاح ، قال لها :

– قلت لك منذ قليل اني لا اثق باحد ، أفلا تذكرين ذلك ؟

– نعم اذكر .

– لكن هذا غير صحيح . قلت ما قلت لأكذب . اني اريد ان اثق كالمسيحيين الذين يزعمون انه يجب على المرء ان يقول : « اريد ان

اؤمن » .

— اما انا فاني اثق .

— وكنتِ هنا ، في هذه الغرفة ، تمشين كوحش صغير [1] ...

فابتسمت له ، وبان عديم الذوق اذ رأى انها تتعزى بسهولة وسرعة ... ثم قالت :

— انك تتلاعب دائماً بالألفاظ فيكون تلاعبك كريهاً ؛ أما هذه المرة فقد توفقت وكنت لطيفاً ... أتخاف عصفوراً ؟

— اجل ، اخافه ! فلو ظل هذا العصفور ينقر رأسي ثانية بعد ثانية في مكان واحد ، مدة اثنتي عشرة ساعة ، لقتلني .

ولم يستطع ان يمضي معها الى آخر المطاف ، اي ان يعانقها بحرارة ، وان يضمها اليه ، لانه انفجر غاضباً فور وصوله ، ولم يجد متسعاً من الوقت لابدال قميصه (وكانت من النوع المعروف باسم « لاكوست » ، يلبسها من دون سترة) . وكان ذلك اليوم رطباً ، فعرق ، وسال عرقه من تحت ابطيه ، فخشي ان تشم سولانج رائحة هذا العرق ، إنْ هو عانقها وضمها اليه . وكانت نتيجة هذه الخشية ان كان صلحهما فاتراً ، مصطنعاً . فتألمت سولانج وهي التي كانت تود لو تندس فيه ، وتشعر بذراعيه تشدانها اليه !

إلا انها كانت متضايقة من احمرار عينيها واحتقان الدم في وجهها بالرغم من البودرة التي رشتها بسرعة على خديها .

وكان كلاهما متردداً في الاعتراف بانه في حاجة الى خلوة صغيرة

---

١ ـ تمنى الكاتب هنا ان يتلاعب بصيغة الالفاظ ، لان التصغير باللغة الفرنسية يتم باضافة : Tte ، الى الاسم ، فاستعمل كلمة : Fauve ، اي وحش ، وصغرها باضافة : Tte ، اليها ، فاصبحت Fauvette ، ومعناها نوع من العصافير يعرف بالعربية باسم دُخَّلة .

يهندم فيها نفسه ويرتب اموره ، اذا كان يريد ان يمثل دوره مع الآخر تمثيلاً لائقاً يجعل المشهد جديراً بالتدوين في المذكرات العاطفية .

قال لها :

– جعلتك امرأة مرتين : يوم اخذتك ، ويوم ابكيتك . اما الآن فقد دمغتك بطابعي . ومع ذلك فاني ألتمس منك المغفرة لاني ابكيتك .

فاجابت برصانة وحدّ :

– اني اغفر لك .

فذهب الى غرفته ، واشعل سيكارة . فلحقت به بعد قليل ، وقرعت بابه ، فرمى سيكارته من النافذة ، لانه لم يشأ ان تراه منشرح الصدر !

قالت له :

– رفأت ثوبي الذى تمزق ، ومـا دامت الابرة ما تزال في يدي ، فقد جئت اسأل هل بين ثيابك ما يحتاج الى اصلاح ؟

فادرك انها جاءت تطلب الغفران بتقديم خدمة ما له : خدمة مادية ، طبعا ، لانها كانت عاجزة عن تقديم خدمة معنوية . فتأثر نصف تأثر ، وتضايق نصف مضايقة ، او بالحري تضايق بكل معنى الكلمة ، فاجابها :

– لا ، شكراً . فالخادمة تقوم بهذا العمل ...

يزعم الناس ان الخصام بين العشيق والعشيقة يلحم صدوع الحب . اما الحقيقة فهي انه يحدث صدوعاً لا يمكن لحامها . فاذا بحث المرء في ماضيه وجد انـه لم يصطدم قط بالاشخاص الذين احبهم حبـاً حقيقيـاً عميقاً اذا كان عصبي المزاج . وثمة حب من هذا النوع . وانه لمعجزة تحدث كل يوم .

مرّت الايام الخمسة التي تلت ذلك اليوم العصيب ، فكانت بين بين : نزهات في المدينة او على شاطىء البحر ، ورحلات الى الارياف .

وكانت سولانج ترى ، بوضوح متزايد يوماً بعد يوم ، ان اقامتها في جنوى لن تسفر عن نتيجة ايجابية . فقـــد احست ان كوستال اصبح متضايقاً ، متهرباً ، وكأنه بعيد منها ، غائب عنها . فاستسلمت لمشيئة القدر ، وامسى كل ما فيها يدل على انها تقول في نفسها : « ما الفائدة من بذل الجهود ما دام الأمل مفقوداً ؟ »

وذات يوم ، تنهّدت قائلة ، بعد سكوت طويل :

ـ لم يُكتب لهذه الفترة من حياتنا ان تدوم لانها سعيدة اكثر من اللزوم .

فاجابها بقوة وجفاء :

ـ ما معنى هذه العبارة ؟ انا اقول ، عندما تكون الأحوال على ما يرام : « ُكتب لهذه الفترة من الحياة ان لا تدوم لانها في منتهى السعادة » . لكنها تدوم .

وراح يفكر بأنه كان من واجبها ان تقول له ، وهو يداعبهـا برفق

بعد بكائها المرير : «ما دمتَ لا تحبني، وقد اعترفت لي بذلك، فالله يعلم بأي قوة وتصميم صرفت ذهني عن هذا الزواج». غير انها لم تقل شيئاً من هذا، بل كانت تقبل بكل شيء في سبيل الزواج. كانت ملتصقة بـــه كالعلقة، لا تنفصل عنه إلا اذا انتزعها وطرحها بعيداً، حتى لو تكسرت.

رسخ في عقله انها لا تحبه هو، بل تحب الزواج، او بالحري تحب انتصار عنادها، لا اكثر.

وما إن خطرت هـــذه الفكرة في باله، حتى اراد ان يتثبّت من صحتها، فقال لها :

— أتظنين ان هـــذا الزواج يجب ان يتم بعد ما قلتُ لـك ذلك منذ حين ؟

فخفضت عينيها قبل ان تجيب، ثم بدت كأنها اخت كبرى تلوم اخاً صغيراً على هفوة ارتكبها، او كأنها من فتيـات المجتمع المجرّبات، وفي ملامحها دهشة معناها : «على رسلك، فهذا سؤال لا يجوز طرحه»، ثم قالت :

— طبعاً، يجب ان يتم، والوقت كفيل بترتيب الامور.

كيف لم يخطر في بالهـا ان تقدّم موعد سفرها متذرعة بأن امها كتبت اليها ان تعود، لسببٍ ما، لو كانت تريد حقاً اجتناب هذا الحوار الصريح ؟

لا، لم تفكر بالعودة الى امها، بل بدرت منها اقوال عفوية تدل على انها كانت تود اطالة اقامتها مع كوستال، اذ قالت له يوماً : «يجب ان تكون مدينة البندقية رائعة الجمال في الخريف، أفيصعب الذهاب اليهـا من هنا ؟»

وكان سؤالها واضح المعنى يعبر عن رغبتهـا في ان يأخذهـا كوستال الى البندقية. غير انه تجاهل هذه الرغبة وراح يقول في نفسه :

« اني لا اعطيها إلا نصف حبي ، واعطاء نصف الحب عديم الجدوى . على الرجل ان يعطي كل شيء او لا شيء . اني ازعج نفسي لاجلها ، ومع ذلك تلومني في اعماق نفسها لاني دعوتها الى هنا وتركتها فريسة السأم في مدينة مبتذلة كجنوى لا تحمل نسماتها انغام اغنية « سولي ميو ». أفٍ لها من مدينة ! وهكذا تسمّ هذه الفتاة حياتي ولا تربح شيئاً ، لا تربح حتى الرضى بما هي فيه . وهذا ما اصبح واضحاً كل الوضوح . ولماذا آخذها الى البندقية ؟ ألتفسد عليّ ذكريات عذبة حفظتها عن رحلة قمت بها الى هناك صحبة امرأة كنت احبها حباً كلياً ، وذكريات اخرى نقيّة صافية لرحلة كنت فيها وحيداً ؟ انها شقية هنا ، وترى اني شقي بسببها ، فلماذا لا ترحل اذاً ؟ ألأن نفقاتها تُدفع من جيبي ، ولأن جنوى، على تفاهتها ، افضل بقليل من إيارتا ؟ »

وكان كوستال يحتقر من يقدم على عمل لا يعجبه لسببٍ واحد هو انه يستطيع القيام به مجاناً ، فسأل سولانج مرات عديدة بلهجة فيها كثير من التوبيخ :

– أما تزالين تحبينني برغم ذلك الخصام الذي نشب بيننا ؟

فتجيب بنظرة فيها جميع معاني الطيبة والبراءة ، فيسقط في يده ويقول في نفسه : « آه ! ليتها استطاعت ان تنفصل عني ، وان تتحرر من حبها لي ! »

وكانت العادة قد جعلته خامد الشعور كمن اعتاد جسمه السم ، فلم تعد تؤثر فيه لدغة الافعى . فاصبح لا يأبه لسولانج حتى لو رآها تتمشى في الغرفة عارية تماماً ، وهي الحسناء المغرية الجديرة بان تكون ملكة جمال فرنسا .

كان يفضل امرأة مجهولة ، عادية ، يحبها حباً سريعاً عابراً ، على اجمل جسم في العالم يندس في سريره كل ليلة !

وعلى الرغم من هذا الشعور، كانت تراوده احياناً رغبة في مضاجعتها

فيدور حولها كما يُحوِّم صقر فوق دجاجة .

لا ريب انه كان يبدو سخيفاً في هذا الموقف ، إلا ان سخافته لم تكن تخلو من سخافة كلب يشتهي كلبة ، او قط يشتهي قطة . وهذان الحيوانان المسكينان لا يستحيان بشهوتها ولا يحاولان اخفاءها . ولم تكن سولانج تفهم ما يريد منها إلا بعد لأيٍ وانتظار طويل .

ما اقبح تكرير تلك المداعبات والملامسات العديمة الجدوى ! وما افظع ذلك المزيج اللزج من العواطف التي تضج بالشهوة الجنسية !... انها كانا يثيران القرف والاشمئزاز .

قال رينان : « لا اساس للواجب اطلاقاً[1] » . وسبق رينان الى مثل هذا القول اكثر من مفكر يوناني .

هذا ما ردده كوستال في ذهنه ، ثم خاطب نفسه قائلاً : « وعلى الرغم من هذه الحقيقة ، فقد خامرني احساس قوي ، مساء اليوم الثاني من زيارة سولانج ، بأن زواجي بها اصبح واجباً مفروضاً عليّ . واذاً ، فسأرضي ضميري ، وأقترن بها ، وأرتمي في هوّة عمل الخير واجرّ اليها هذه الفتاة » .

ما انبلك ، يا كوستال !

ولكن ، اذا كان قد قبل حقاً بان « يرتمي في هوّة عمل الخير » ، فلعلمه ، ولا ريب ، بانه يحمل عدداً من المظلّات الواقية ، ولا بد لاحداها من ان تنفتح ، إلا اذا كان الشيطان متآمراً عليه . فبينها واحدة سمّاها : الرسالة المظلة ، وواحدة تتألف من مشروع لم يتخلّ عنه منذ ان خطر في باله ، غير انه كتمه واحتفظ به حتى تأزف ساعته . وعزم على ان يفاتحها بمشروعه ، مع علمه انه لو اراد ان لا تفلت

---

١ ـ « ليس بين النظريات الفلسفية العشر او العشرين التي وُضعت لتحديد الواجب واحدة تستطيع الثبات على محك الامتحان » ، « خطب ومحاضرات » .— المؤلف .

من بين يديه ، لاضطر الى الغدر بها عندما يبادر الى تنفيذ خطته . فقرر ان يتصرف معها تصرفاً نصف شريف ، اي ان يفتح لها الباب لتهرب قبل فوات الاوان ، لاقتناعه التام بانها لن تهرب ، لانها اسيرة عنادها القصير النظر . وهكذا يستطيع اقناع نفسه بانه تصرف معها تصرفاً شريفاً لا لوم فيه عليه ولا تثريب .

وقبل سفرها بيومين ، في ٩ تشرين الاول ، تغديا ماكراً ، وجلسا يشربان القهوة وحيدين في احدى قاعات الفندق ، فقال لها :

– فكّرت بطريقة تسمح لي بالزواج بك وبالمحافظة على حريتي اذا اصبحت حياتنا الزوجية ، يوماً ما ، عبئاً ثقيلاً لا يطاق . ففي هذا اليوم ازيلك من الوجود . أتفهمين ما اعني بقولي : ازيلك من الوجود ؟

– أتقتلني ؟

– نعم .

قالت بسرور عفوي :

– يا لها من فكرة رائعة ! كيف لم تخطر في بالك قبل اليوم ؟

– كثيراً ما تمر بالانسان حالات يصبح القتل فيها ضرورياً كالنقطة في آخر الجملة ، خصوصاً بالنسبة الى رجل يحب التنقيط حتى الجنون كما احبه انا . ان الرجل العاقل يجد دواءً مسكّناً في التفكير بانه يستطيع ان يقتل مباشرة ، او ان يحرّض على القتل ، للخلاص من مأزق وقع فيه . فمن الغباء المطبق ان يحمل الرجل الميزان ليضع في احدى كفتيه هذه الطريقة السهلة الحاسمة ، وفي الكفة الاخرى جبنه . ففي حياة كثيرين من الرجال ترجح كفة الجبن . ومن الغباء المطبق ايضاً ان يكرّس الرجل سنوات عديدة من حياته ، من زهو شبابه ، ليتعلم مهنة يضمن بها مستقبله ، اي موارد عيشه ، ولا يكرّس شهرين لتدبير عملية اغتيال قد تكون السبب المباشر لسعادته .

بعد القتل ، تعود جميع الامور الى مجاريها الطبيعية . اما الجبناء

فيجرحون ، فيرتد الوحش الجريح عليهم . وهذا امر بديهي .
لا يجوز مطلقاً للرجل الحصيف ان يجرح ، بل عليه ان يقتل .
— والمبادىء الخلقية ؟
— ان تسعة اعشار الذين يتنكرون للقتل المباشر ، او القتل بالتحريض ، مستعدون دائماً للقتل مواربة ، وهم يدركون تماماً انهم يقتلون ؛ ولهم في القتل الف طريقة « شريفة » لحذف الاشخاص من الوجود ، عندما يكون هؤلاء مرهفي الشعور ، او عصبيّي المزاج ، او مرضى ، او عجزة . اعرف عجوزاً يكفي ان تقام عليه دعوى ليموت ، بكل تأكيد . وثمة عجوز آخر يكفي ان تلحق به اساءة زهيدة ، اعني ان يُقال من رئاسة مجلس اداري ، ليهلك غماً ، بكل تأكيد . وثمة رجل من النوع « القلق » ، يكفي ان يمس شرفه بلشر فعلة ارتكبها في ما مضى ، لتفارقه الحياة ، بكل تأكيد . ثم هذه امرأة يكفي ان يهجرها صاحبها ليقتلها ، بكل تأكيد .
— ان هوة سحيقة تفصل بين هذا النوع من الذبح وبين الذبح .
— لا هوة هناك ولا من يحزنون . كل ما في الامر فارق شكلي دقيق يعود الى ما في الشعور من رهافة وقابلية .
وانتفضت سولانج فجأة ، واشارت برأسها الى ركن من القاعة ظهر فيه حذاء اصفر مربع الرأس تربيعاً تاماً ، وساقان كأنهما ساقا جرادة ، وجريدة مشرعة فوقها صلعة كأنها نصف بيضة محمورة ... فقد كان هناك رجل يقرأ ، وهو صامت جامد ، حتى ان كوستال ورفيقته لم يشعرا بوجوده .
وكان الكاتب قد تكلم ، بصوت مرتفع نسبياً ، على مشروعه الاجرامي ، على عادة المتحمسين الذين يستهويهم الخيال ، فابدت سولانج تخوفها من ان يكون الرجل قد سمع ، فطمأنها قائلاً :
— استنتج من لون صلعته انه انكليزي ، وانه لم يفهم من حديثنا

كلمة .

— واذا كان يفهم الفرنسية ؟

— لا ، لا ، انه لا يفهم الفرنسية .

قالها كوستال بلهجة الواثق بما يقول ، فهمست سولانج وهي تضحك خفية ، وقد وضعت يدها على يده :

— واذاً ، فأي نوع من الاغتيال قد اخترت لي ؟

فسحب يده مغتاظاً ، وساءه ان لا تأخذ مشروعه مأخذ الجد . ماذا ؟ أيكفي ان يعمل المرء سافراً ليحسبه الناس مقنّعاً ؟ لقد كان كوستال دائماً يمثل هذا الدور .

وخطرت في باله كلمة مفيستو في « فاوست » [1] وهي : « البسطاء لا يشعرون بوجود الشيطان حتى لو كان قابضاً على اعناقهم » . فراح يقول في نفسه : « على كلٍّ ، لا لوم عليَّ ، لاني انذرتها . ويوم تقدم على الذهاب معي في الزورق الذي اعددته لها ، يكون الذنب ذنبها ، ذنب بلاهتها . فمن البلاهة حقاً ان لا يرى المرء ما هو حقيقة راهنة » .

ورداً على سؤالها : « اي نوع من الاغتيال اخترت لي ؟ » اراد برغبة شديدة ان يبادر الى شرح طريقته ، وان يخبرها بانه ينوي الذهاب بها في زورق لطرحها في البحر . لكنه فكر بانه من المحتمل ان تعتبر قوله مزاحاً الآن ، وان تتذكره يوماً ما في اوضاع اخرى فتصدقه

---

١ — فاوست : بطل تمثيلية المانية لغوته باع نفسه من الشيطان مفيستو في مقابل خيرات الارض وملذاتها . لم يبتكر غوته هذه الشخصية ، بل اخذها عن خرافة قديمة ربما كان لها اصل تاريخي . فقد ورد ذكر فاوست في « الكتاب الشعبي » عام ١٥٨٧ ، وفي تمثيلية لمارلو وضعت عام ١٥٩٠ . إلا ان تمثيلية غوته لتاج عبقري حاول فيها المؤلف تصوير مصير الانسان ، فكانت منهلاً للفكر وللاوبرات عديدة .

ولا تجرؤ على الذهاب معه للقيام بنزهة على زورق ... فلزم الصمت .

وربما كان لصمته سبب آخر هو : ان الابطال يشعرون برغبة رهيبة في كتم بعض ما ينوون .

واستأنفت سولانج حديثها قائلة :

– اودّ ان اقول لك شيئاً ، لكني اخشى ان اضايقك .

– فلا تقولي شيئاً اذاً ، لأني لا احب ان اتضايق .

– اريد ان اقول لك هذا الشيء على كل حال : اني اجد في مشروعك الاغتيالي كثيراً من ... التأليف الادبي .

– يا للعجب ! فالناس يعيشون عاطين بالفظاعات ، او بما يعتبر من الفظاعات ، ولا يصدقون ما ترى عيونهم . والصحف ، إن لم تقل تكاليف الحياة ، تنقل اليهم كل يوم تفاصيل الجرائم التي لا تقع تحت حصر ، ومع ذلك ، اذا عمد كاتب الى ارتكاب احدى هذه الفظاعات او ما يعتبر من الفظاعات ، في حياته او في احد مؤلفاته ، قالوا ان عمله « تأليف ادبي » . لا ادري هل قرأتِ كتاباً من القصص وضعتُه ، عنوانه « الشرك » . ففي احدى هذه القصص حكاية غرام بين فتيات ومعلمتهن في احدى المدارس الداخلية . فقد قامت عليّ قيامة النقاد من اجله ، فارتسم الذعر على الوجوه ، وارتفع مواء العفة الجريح ، وانهمرت دموع الأسى على مصيري الاسود ، وصاح الصالحون المتباكون : « من المؤسف ان يكون السيد كوستال قد بحث عن مثل هذا الموضوع الموجع ... »

ماذا ؟ انا « بحثت » عن هذا الموضوع ؟ كأني بالنقاد لا يعلمون انه يكفي المرء ان ينحني قليلاً ليجد الكثير من هذه المواضيع ، فالمدارس الداخلية للبنات تزخر بها ، إلا في بعض الحالات الاستثنائية ... وعلامَ يعتبرون هذا الموضوع « موجعاً » الى هذا الحد ؟ اولاً : لماذا اصبح السحاق موضوعاً موجعاً ؟ ثانياً : أيكون الكاتب مضطراً دائماً الى اختيار موضوعات « سارّة » ؟ أتراه مكرهاً على الاعتقاد انه يجب عليه التأثر

بالسيد جيد[1]، كأنه بحاجة الى تأثير ما ليكتب، او كأنه لا يكفيه ان ينظر الى الحياة، الى أبسط ما في الحياة من الحاجات والتصرفات اليومية ؟

قال احدهم: «اننا لنسأل نفوسنا في اي عالم يجد السيد كوستال بطلاته المؤسفات الغريبات الاطوار؟ ؟»

في اي عالم؟ في عالمك انت، ايها الأبله، انت الذي تمارس ابلهته السحاق في هذه اللحظة التي يضع فيها انتقاده ويبدي دهشته كلاماً اسود على صفحة بيضاء...

وكان كوستال، في هذه الاثناء، يقبض بين اصابعه على سيكارة غير مشعلة، بينما كانت السيكارة التي يدخنها لم تنته بعد. وادركت سولانج سبب هذا الشرود: انه كان ازمة عصبية حادة. فكوستال ما برح يدخن، بلا انقطاع تقريباً، منذ ثمانية ايام. وقد اشعل السيكارة الجديدة من السيكارة الاولى، ثم استطرد قائلاً:

— مهما تأخر كاتب الروايات عن مجاراة وقائع الحياة — إنْ جبناً، وإن رغبةً منه في مسايرة الناس ليدخل الاكاديمية — فلا بد من اتهامه بالذهاب الى ما بعد الحياة، وبالمبالغة، وباختراع «المسوخ»، وبوصف «حالات مَرَضيَّة». فالآنسة دندير تقرأ في الجريدة، كل صباح، عشرة اخبار اغتيال ولا تبالي. اما اذا حدثتها انا عن عزمي على القتل، فانها تعتبر حديثي ضرباً من المزاح غير المعقول، وتفسره بانه نوع من «التأليف الادبي». أكاد اظن...

---

[1] — اندريه جيد (١٨٦٩ — ١٩٥١) كاتب فرنسي، في تآليفه نزعة صريحة الى البحث عن السعادة والحقيقة. احتقر قواعد الاخلاق المألوفة، ورفض العمل بموجبها في مختلف اطوار حياته. اشهر مؤلفاته: «الاغذية الارضية»، و «اقبية الفاتيكان»، و «سمفونية الرعاة»، و «مزيفو العملة»، و «يوميات». نال جائزة نوبل في الادب.

وتوقف فجأة عن الكلام ... لأن السيد ذا الصلعة المحمومرة نهض من مقعده ، ودنا من كوستال وسولانج بضع خطوات من غير ان ينظر اليهما كأنهما غير موجودين ، ثم وضع على الطاولة جريدة « التايمس » واخذ جريدة « الدايلي كرونيكل » ، وعاد الى مقعده ليغرق في القراءة من جديد . ولم يعد يظهر منه سوى صلعته التي اتخذت فوق الجريدة لون رغوة الفريز .

قالت سولانج :

— ان القتلة الذين تروي الجرائد اخبارهم اناس مختلو الشعور ، او اجلاف بلا ضمير ، او اشقياء يعيشون في بيئة مريعة . ولست انت واحداً منهم . ولهذا السبب لا استطيع ان اتصورك مقدماً على القتل .

— الناس كالأكر الجامدة على سطح مستو . فاذا مال هذا السطح قليلاً ، تدحرجت الاكر . فالمجرمون الذين اقدموا على القتل كانوا في اليوم السابق لجريمتهم اناساً هادئين . فاذا نشبت الثورة غداً ، وارتفعت الحواجز في شارع هنري مرتان ، أفتظنين اني لا اقتل؟

— أتدين بعقيدة سياسية راسخة الى هذا الحد ؟

— ليس لي عقيدة سياسية ، وانما انا اتبنى جميع العقائد ؛ وليس لي من بينها واحدة راسخة في ذهني ، فجميعها متحركة ، متقلبة . لكن لا شأن للسياسة في الثورة . فالرجل العاقل لا يرى في الثورة إلا فرصة سانحة للقضاء على الاشخاص الذين لا تعجبه سحنهم ، من غير ان يقع تحت طائلة القانون .

— على كل حال ، فلا مجال للمقارنة بين القتل في حرب اهلية ، والقتل في الحياة العادية .

— أتظنين ذلك ؟ أيكون للمرء حق في ان يقتل رجلا مجهولاً لانه لا يفكر تفكيره في شرعية اعلان الاضراب ، ولا يكون له هذا الحق في القضاء على الشخص الذي لا يقوم حجر عثرة على طريق سعادته

وحسب ، بل يحول دون قيامه بمهمته الرئيسة في الحياة ؟ لا تنسي انك قد تكونين يوماً ما هذا الشخص في حياتي . أتريدين قليلاً من القهوة ؟

– لا ، شكراً ... واذا افتضح امرك ؟

فاجاب بقوة وحزم :

– لن يفتضح امري . اني احاول ، منذ خمس عشرة سنة ، الوقوع في مهلك ، فلا اقع . اني مصفّح بالمناعة .

وكان يعلم انه من الخطر ان يتحدى القدر . غير انه لم يكن يستطيع التخلي عن ثقته بنفسه لحظة واحدة ، فقد كان الغرور فيه حالة طبيعية تكاد تكون جسدية .

قالت سولانج :

– لكن ، اذا ...

– اذا افتضح امري كان الحكم عليّ خفيفاً ، لأن الاطباء سيعلنون اني شخص « غير مستقرّ » بعد فحصي عقلياً وعصبياً ؛ وسيقولون اني مرهف الاحساس الى حد المرض ، لاني اعددت هذه العدة مسبقاً ، واعطيت براهين عديدة وعلنية عن جنوني . وثمة تقارير طبية عن هذا الجنون في ملفات الشرطة القضائية .

– انك تفكر بكل شيء .

– اني افكر تفكيرياً عملياً . وفي بعض الاحيان يتبادر الى ذهني قول متّى الرسول : « لا تُعدّ اجوبتك مسبقاً اذا أُلقي عليك القبض [1] ... » يأتي وزير ذكي ، فيشم رائحة الفرصة السانحة التي اقدمها لخدمة امجاده ، فيتشرف باستصدار العفو عني باسم النبوغ .

وساد الصمت ، ثم استطرد كوستال قائلاً :

– في اللحظة الحاسمة ، اذا لمعت في عقلك ومضة من الذكاء ، وادركت

---

١ – لم نجد في انجيل متى اثراً لهذا القول .

اني عازم حقاً على قتلك ، أفتغفرين لي ؟

وكان لكلمة « تغفرين » اثر عميق في نفسه ، فترقرقت الدموع في عينيه . فقد اعتاد ان يغفر دائماً . إلا انه لم يكن يحب الذين يغفر لهم ، ولم يكن يجد شيئاً من السرور في هذا الغفران . ولم تكن هذه النزعة فيه إلّا نوعاً من التجربة الدافعة الى عمل الخير . وكانت تجربة مخيفة ، كثيراً ما انقضت عليه وشالته كما يشيل الصقر طريدته بمخالبه القوية .

وساءل نفسه بصوت مرتفع : « كيف وصلت الى التفكير بقتلك ؟ » ولم ينتظر منها جواباً لأنه لم يكن يبالي بما قد تقول . فلو اجابت : « نعم ساغفر لك » ، لما اكترث بهذا الغفران اطلاقاً . وربما افقده هذا الجواب صبره . وكان من المحتمل ان يفضل جواباً سلبياً وقاسياً ، فيتسنى له ان يهاجمها ، ان يهزها هزاً ، وان يجرح شعورها .

وجعل يردد : « من الغرابة حقاً ان احبك وان افكر في اغتيالك للخلاص منك ! يخيّل اليّ ان في نفسي تيارين متضادين ، كحركة البحر على الشاطىء ، عندما تكون احدى الموجات متقهقرة ، تأتي موجة وتنساب فوقها في اتجاه مضاد » .

وكان يبدو كأنه يجهد نفسه للتفكير في هذا الامر العجيب ، وفي جهده نوع من السذاجة المدهشة .

قالت له :

— صه ! انتبه !

وكان ذو الصلعة قد نهض من مقعده ، فمشى صوبها من غير ان يلقي عليها نظرة ، ثم وضع جريدة « الدايلي كرونيكل » على الطاولة ، واخذ « الدايلي ميل » وعاد الى مكانه . فأطل من فوق الجريدة نصف جمجمة اطلالة القمة المكسوّة بالثلوج في الفجر البازغ .

وتابعت سولانج حديثها قائلة :

— انك تبذل كثيراً من الحرارة لتبرز فضائل الاغتيال . واني لمعجبة

بك لان لك قواعد خلقية خاصة توافق نزعاتك المختلفة ، وتستطيع في نطاقها ان تعتبر نفسك رجلاً شريفاً . لكني اعتقد انه من الافضل لك ان تحتفظ بهذه القواعد لنفسك ، فلو سمعها بعضهم لما كانت عاقبتها عليك مما يدعو الى الارتياح . ومن حسن الحظ أنّ ليس لك ابناء ...

أحسّ ان وجهه يصفرّ ، فتأثر تأثراً عميقاً . كيف تنهار بلحظة جميع الجهود التي بذلها ليموّه حقيقته ، وليزيف مشاعره ؟ ومن هي التي تدمر هذه الجهود ؟ برغوثة حقيرة لها من القوة ما يكفي لفتحه كما تفتح العلبة .

سألها بصوت متغيّر :

– ولماذا تعتبريني كبير الحظ لأن ليس لي ابناء ؟

– لانهم لو سمعوا من فمك هذه النظريات لما كانوا من اهل الخير...

فشزرها بنظرة زاخرة بالبغض .

ويحها ! ما اهمية حادثة اغتيال في زورق بخاري ؟ لقد اصبح هذا العمل في ذهنه كأنه حدث وانتهى امره . وخطر في باله انه من المحتمل ان تقف يوماً ما ضده ، ومع ابنه ، إن هو أقدم على الاقتران بها .

اجابها :

– لو كان لي ولد لبذلت جهودي بحرارة لاجعله مثلي مهما تكن النتائج .

وكان صوته متهدجاً ، يتقطع كهدير المحرّك اذ يغص بالوقود . وتابع قائلاً :

– اود ان تكون اخلاق ابني كاخلاقي ، مهما تكن النتائج . وهكذا يكون ابناً صالحاً . أتظنين ان هذا الامر معجزة ؟ لا بأس ! فانا اعيش دائماً بانتظار المعجزة . اني انتظر المعجزة كل يوم . انتظرها واحثها على الظهور طوال اسابيع متوالية ، طوال شهور . ومرّ بي زمن كنت انتظرها فيه واحثها طوال سنوات . فالمعجزة تأتي دائماً . وهذا ما اراه

فوراً . وقدرتي على هذه الرؤية موهبة كموهبة من يرى الله متجلياً في عوسجة ملتهبة . وفي بعض الاحيان أسأم هذه المعجزة ، فاهملها وانتظر غيرها . انتظر طوال اسابيع، وطوال شهور. ولا تظني ان انتظاري يجري دائماً على وتيرة واحدة . فمـا برحت امارس الانتظار منذ خمس عشرة سنة ولم اسأمه بعد، ولن اسأمه ابداً ، وسأظل فيه حتى اهلك ، وسأهلك لافظاً المعجزة من شفتيّ كأكلة النيران في الاعيـاد الشعبية عندما ينفخون من افواههم اللهيب . والآن ، فلنتحدث عن اشياء اخرى ، فقد اتعبك هذا الموضوع واتعبني .

وبعد قليل القى نظرة على ساعته ، فاذا بها واقفة ، فظن ان حرارة غضبه هي التي اوقفتها حين قالت له سولانج : « من حسن الحظ أن ليس لك ابناء » ، وان لهب الغيظ اتصل من جسده بالساعة فعطلها . وكان هذا الحادث قد وقع له مرات عديدة من قبل .

كان اليومان اللذان سبقا سفر سولانج خفيفي الوقع على كوستال . وكان أحد اسباب هذه الخفة ان المشكلة بدأت تنحل . اما السبب الآخر فكان ان كوستال تغلّب على خوفه من الزواج يوم قرر نهائياً ان يزيل سولانج من الوجود اذا رأى ان لا مفر له من هذا الحل الحاسم .

ولما كان خوفه من الزواج الحاجز الوحيد القائم بينه وبين سولانج ، فقد احتدم حبه لها من جديد اذ تلاشى في نفسه هذا الخوف .

واليك بمثل عن هذا الاحتدام :

في المطعم ، كان منذ ثمانية ايام يدعها تجلس قبالته الى مائدة الطعام ؛ اما الآن فقد طلب اليها ان تجلس الى جانبه ، كما كانت تفعل من قبل ، لا ليتمكن من مداعبتها وملامستها وحسب ، بل ليشعر بقربها منه قدر المستطاع .

الزواج ؟ لماذا لا يقدم عليه الآن ؟

انه سيحاول ان يجعلها سعيدة مدة سنة ، مدة سنتين ، كما يحاول الناس بذل جهودهم ليغمروا بالعطف والمحبة والدلال من صدر عليه الحكم بالاعدام . وهكذا تكون قد « كسبت سنتين من السعادة » ، على حد قول السيدة دنديو . وفي هذه اللحظة ادرك كوستال ان لهذه العبارة معنى بعيد المدى لم يكن قد فهمه من قبل .

ولم تبقَ سولانج في نظره رمزاً للاستمرار المريع ، بل اصبحت العَرَض السريع الزوال ، وكان محبّباً اليه .

لقد انتعشت فيه حتى حاسة الذوق المادي بالنسبة اليها ، فلم يبقَ

من الممكن ان يتصورها كهلة مترهلة ، بلغت الخمسين من العمر ، لأن الأمر اصبح في يده ، وفي وسعه ان لا يدعها تبلغ هذه السن .

واخيراً ، احس ان أقدامه بدأت تثبت في تلك الورطة التي جرّته اليها ، لأن عزمه على قتلها نبّهه الى ما يحتاج اليه من قوة الارادة ، والبراعة ، ورباطة الجأش ليتمكن من اعداد المراحل التمهيدية لتنفيذ مشروعه ، ثم ليقدم على التنفيذ عندما تأزف الساعة ، وهو واثق كل الثقة بانه يكون في امان ولا تطاله يد العدالة

اعاد اليه هذا التنبّه قسماً من متانة اعصابه وحزمه في الايام العصيبة . كان قد انحرف عن محوره الطبيعي ، فعاد الآن اليه .

ما اسهل الحياة لمن يريد تسهيلها !

وكان هذا المشروع يتضح في ذهنه بقدر ما يحاول ان يعبّر عنه بالكلام . فالخسارة العصبية والفكرية ، التي انزلتها به سولانج ، كانت قد جعلته يعيش في فوضى من الغموض تعج بالحشرات والديدان . وفي تلك الفينة البغيض ، تذكر انه تعاطى يوماً حشيشة الكيف مع بعض الجزائريين ، وان احد هؤلاء كان قد اعتاد ان يردد العبارة التالية : « في رأس مدخّن الحشيش عصفور صغير يكسّر حطباً جافاً » ، كلما بلغ من تحشيشه اقصى حدود البلاهة والخمول الفكري . ولم يعلم كوستال هل كانت هذه العبارة مثلاً دارجاً ام تعبيراً عن شعور خاص كان ينتاب ذلك الحشاش ؟

وفي رأس كوستال ايضاً كان عصفور صغير يكسّر حطباً جافاً . وكثيراً ما تساءل : الى اين ذهبت القوة التي افقدته اياها سولانج في ما مضى ؟ اما الآن فقد اصبحت عيناه تشرقان بابتسامة عميقة المغزى كلما خطر في باله ذلك الماضي المقيت ، كأنه أدرك الى اين كانت تذهب قوته .

في الليلة الاخيرة التي امضياها معاً ، وكانت ليلة عاصفة ، داعبها فيها

ودعكها الى اقصى حد ، ثم عـاد الى غرفته ، فلمعت في ذهنـه فكرة مفاجئة أدهشه منها انها لم تخطر في باله من قبل . طلب من سولانج في ما مضى ان تقطع له « وعداً رسمياً » بان لا تعارض الطلاق اذا اقترن بها ثم اراد ان يطلـقها ، إلا انه لم يطلب منها « وعداً رسمياً » بان لا تضع منه اولاداً .

كان شديد الحرص على اجتناب مشكلات الاولاد ، اما حلمه بانجاب اربعة عشر ولداً فقد تقلصت ظلاله وانتهى امره .

ولأنه نسي ان يتعاهد معها على عـدم وضع البنين نقم على نفسه وارتعد خوفاً ، فما استطاع تحمل الشك نصف ساعـة ريثما يستولي عليه النعاس فيغرق في النوم ، فنهض وتوجه الى غرفة سولانج .

كانت نائمة . فاستلقى الى جانبها ، فوق الغطاء ، ولم يضيء الكهرباء . فسمع صريراً مزعجاً لاضراسه اذ كان يصرف بهـا من غير انتباه ، ثم سمع صفير البواخر في الميناء التي تعصف بها الرياح العاتية ، فكان صفيراً شبيها بصراخ الاستغاثة عندما يجنح المركب الى نواتيء الصخور وقـد تحطمت دفته ، ومريعاً كجمجير الحيوان وصياح الانسان .

لم يكن راغباً في مسّها ، او في نيل شيء منها ، او في ان يراها نائمة ، بينما هناك نساء عديدات كان يود ان ينظر اليهن غارقات في النوم يقطّبن حواجبهن كأنهن كلب يحـلم ، او يفتحن افواههن نصف فتحة ، وقد امتد خيط من اللعاب يصل احدى الشفتين بالاخرى .

ناداها بصوت خافت :

— سولانج !

فلم يسمع جواباً .

تصوّر انها ماتت ، فخيّل اليه ان فجراً جديداً قد أطلّ على حياته . وتذكر الليلة التي سهر فيها على جثة امـه حتى ارهقه التعب ، فاستلقى الى جانبها على فراش الموت ، فوق الغطاء ، كما هو مستلقٍ الآن .

وهاد يناديها :

— سولانج !

فأجابت :

— أهذا انت ؟

— استيقظي .

— ما الخبر ؟ ماذا تريد ؟

— لدي شيء بالغ الخطورة اود ان اقوله لك . أمستيقظة انت ؟

— نعم .

— طلبت اليك ، في ما مضى ، « وعداً رسمياً » ، واريد منك الآن « وعداً رسمياً » آخر . وأصر على كلمة « رسمي » ، لأن الوعد البسيط لا يكفيني ... فأنا ، مثلاً ، عندما اعطي وعداً ، لا استطيع القيام به ... وكيف اقوم به ما دمت قد اعطيته ولم يعد معي ؟ اما اذا كان الوعد « رسمياً » فموضوع آخر .

— بمَ تريد ان اعدك ؟

— اذا اقترنتُ بك ، وحملتِ ، أفتعلمين ما يجب عمله كيلا تصعي ولداً ؟

— نعم .

— إن الاجهاض محفوف دائماً بالخطر ، فاذا تركنا الجنين يولد ، أفتعلمين ما يلزم عمله ، بعد ولادته ، كيلا يعيش ؟

فلمع البرق في الغرفة كأنه فكر من السماء يعمي البصر . فالطبيعة ، ايضاً ، اذا غضبت ، انطلقت منها افكار لامتناهية . وتلا البرق رعد واسع وطويل ، رعد لا بد أن يكون شبيهاً بهدير البحر لما اطبق على جيش فرعون . فراح كوستال يفكر قائلاً في نفسه : « فرعون ! فرعون أكان فرعون ظالماً مستبداً ؟ جعله يهوه [1] قاسياً ، ثم عاقبه على قسوته .

---

١ - يهوه : إله الاسرائيليين

فـَمنْ مِن الاثنين اذاً تصرف تصرفاً شائناً ، يهوه ام فرعون ؟ »
وراحت نفسه تهتف في الليل البهيم : « فرعون ! فرعون ! »
ولما افرخ روعه وعاد الهدوء الى الغرفة قال لسولانج :
– أتذكرين ما طلبت اليك لما ارعدت السماء ؟
– نعم .
– ما هو جوابك ؟
– « نعم » .
– جوابك هو : « نعم » ؟
– نعم .
– أهذا وعد رسمي ؟
– نعم .

فوجم برهة ، ثم جعل يخاطب نفسه قائلاً : يا لها من امرأة ! تظاهرت برهافة الاحساس وطهارة الضمير لما حدثتها عن عزمي على حذفها من الوجود ، وزعمت اني استرسل في الاوهام ، وها هي الآن مستعدة ان تقتل كما يقتل الآخرون . كم كنت ساذجاً لما كنت اقول في نفسي : « الى اي عالم موبوء جررت هذه الفتاة الصغيرة ! » والله انها لغارقة في هذا العالم الموبوء منذ أمد بعيد .

واحس بعطف شديد يجذبه اليها اذ ايقن انه يستطيع التفاهم معها ... ثم قال في نفسه : « احب هذا العالم الفظيع الذي نحيا فيه . فكل منا يوافق الآخر . لست ممن يستطيعون العيش مع الابرياء » .

ووضع يده على ركبتها من فوق الغطاء ، ثم همس :
– لا تكوني على حذر مني .
– لن اكون حذرة منك ابداً .

وكانت تلك هي المرة الاولى التي خاطبها فيهـا بصيغة المفرد[1] منذ

---

١ – اي انه استعمل في مخاطبتها لفظة : Tu ، عوضاً عن : Vous ، واستعمال =

ذلك اليوم البعيد الذي تبادلا فيه قبلتهما الاولى. فقد حاول آنذاك ان يستعمل معها صيغة المفرد، فاوقفته حالاً قائلة: « لا استطيع التحدث بصيغة المفرد». طبعاً، لا تستطيع الانحدار الى هذا الابتذال، لانها فتاة، وامرأة؛ لانها حسنة التهذيب، وتسافر وحدها مع عشيق؛ لانها كاثوليكية، وترضى بالاستغناء عن الكنيسة في زواجها؛ لانها شريفة، ومستعدة ان تقتل. وهذا بالضبط ما يحبه الرجل في المرأة. السيدة « إكس »، مثلاً، لا تقول له شيئاً ولا تحاول اغراءه، لكنها تسرق، وتقتل، فيقع في حبها ويشتهيها. ومنذ عشر دقائق، لم يكن كوستال يشعر إلا بالنفور من ذلك الجسد المستلقي الى جانبه، المشبع بعبق الانوثة وحرارة الجنس؛ اما الآن فقد اصبح يشتهيه ...

وفجأة، انسل تحت الغطاء وجامعها. فضم بين ذراعيه قاتلة الاطفال.

وكان اليوم التالي موعد سفر سولانج. ووقعت حادثة تدل دلالة واضحة على ما كان كوستال قد بلغه من العياء واجهاد النفس. وخلاصة هذه الحادثة ان المطر كان ينهمر باستمرار، فاقاما في الغرفة ينتظران، ثم اخذ كلٌ منهما كتاباً وشرع يقرأ، فاغمض كوستال عينيه بلا انتباه، وهو يظن انه يتابع القراءة ... لانه كان يقرأ في خياله الصفحات التي قرأها في الليلة السابقة ... وفجأة انتفض من اغفاءته، ورأى سولانج واقفة الى جانبه، تلقي عليه نظرة من يرى شيئاً يعجبه ويسلّيه، ثم سألته:

— قل لي، هل تحسنت حالك الآن؟

— ما معنى هذا السؤال؟

= هذه الصيغة، باللغة الفرنسية، يعني التودد ورفع الكلفة بين افراد العائلة، وبين الازواج والاصدقاء الحميمين.

— نمت نوماً هادئاً من شأنه ان يعيد اليك ما فقدت من النشاط .

— هل نمتُ حقاً ؟

— نمتَ خمس وعشرين دقيقة بالضبط .

لم يكن ينام قط نهاراً .

لا ، لم يكن قد حدث له بعد ما حدث له ذلك اليوم . اجل ، لم ينم قط نهاراً حتى حين كان يذهب الى المكتبة الوطنية . فمن تراها حسبته ؟ لم ينم نهاراً إلا في ايام الحرب ... فالى اين وصلت به سولانج الآن ؟... كان في مقتبل العمر ، ممتلئاً صحة وعافية ، دائم اليقظة والانتباه ، نشيطاً عزوماً وحريصاً كل الحرص على وقته لا يضيع منه هنيهة ، ومع ذلك فقد أغفا جالساً على مقعد ، الساعة الرابعة بعد الظهر ، كهرم متهدم خائر القوى .

آلمته لسعة الذل فحوّلها الى سولانج ، وتلاشت فجأة تلك الحرارة الحبيبة التي كانت قد نشأت في نفسه واحتدمت منذ يومين ، كما تتلاشى حرارة غرفة في الشتاء اذ تفتح نوافذها .

اواه ! لو استطاعت ان تدرك هذه الحقيقة لما نظرت اليه تلك النظرة المفعمة بالسرور والانشراح . فالانتصارات الصغيرة باهظة الثمن دائماً .

على انه لم يعلم ان سولانج كانت مرهقة ايضاً ، وانها في اليوم التالي احست بالعياء الناجم عن توتر اعصابها طوال خمسة عشر يوماً ، فما كادت تفرغ من تناول الغداء حتى استلقت على السرير الى جانب امها من غير ان تخلع ثيابها ، ونامت نوماً عميقاً ، طاوية احدى ساقيها ، ومندسة بالسيدة دنديو التي لم تعد تجرؤ على النزول من السرير لئلا توقظها .

لما تحرك القطار الذي حمل سولانج من جنوى الساعة السابعة

مساءً ، عـاد كوستال من المحطة الى الفندق وتعشى . وكانت تلك هي المرة الاولى التي اكل فيها حتى شبع منذ خمسة عشر يوماً ، لانه كان ، وهو الى جانب سولانج ، دائم الاهتمام بما تقول ، وبما تفكر ، ويسائل نفسه أتعاني السأم ، وما هي الطريقة الفضلى لقتل الوقت بعد الظهر ... ولم يكن يأكل كفاية ما دام في هذه الدوامة من التفكير والاهتمام .

وبعد العشاء ، ما كاد يخلع ثيابه ويستلقي على السرير حتى غرق في نوم معتم كثيف كالخمرة المعتقة — الخمرة التي كان يحبها .

نام حتى الساعة الثانيـــة من بعد ظهر اليوم التالي . ومن الساعـة الثالثة حتى المساء ، ظل مستلقياً على السرير ، مغمض العينين ، يحـاول استعادة قواه الموزّعة ، وارجاع روحه اليـه ، تلك الروح التي شربتها المـرأة .

وفي اليوم التـالي ، انتقل صباحاً ، من غير ان يغتسل ، الى المنزل الذي كان قد استأجره . وكان يعاني ضغطاً قوياً من طاقة الخلق فيه ، اذ راحت هـذه الطاقة تتخبط في داخله محاولةً الخروج والانتاج ، لانه كان قد استعاد قوته .

احس انه عاد الى ما كان عليه ، وانه اصبح رجلاً من جديد ، فشرع يضرب ربلتيه بذنبه .

وما إن وصل الى منزله حتى بادر الى الاهتمام باوراقه قبل ان يفتح حقائبه . اخذ ما كان لديه من المسودات والملفات والدفاتر الصغيرة التي كان يدوّن فيها ملاحظاته وافكاره الطارئـة ، وبسطها كلها على الارض وهو يقول : « والآن ، سأبدأ عملي بهمة ونشاط ! »

وكانت غرفة الشغل اصغر غرف المنزل ، لعل ضيقها يساعد على تجمع الافكار ، وعلى اعادتهـا الى الذهن ، ويشعر المقيم فيهـا انـه محصور لا يستطيع إلا العمل . اما فوضاها العارمة فكانت جديرة بالآلهة .

وخلع كوستال سترتـه ، ثم خلع صدرته وقميصه وطرحها جميعاً على

الارض ، وبقي في قميص قطنية خفيفة . وخلع حذاءه محتفظاً بجوربيه ، وشعّث شعره بأصابعه الخمس ، ثم جلس الى الطاولة كما هو ، من غير ان يحلق ذقنه ، او يغتسل .

وتنفس بقوة حتى امتلأ صدره بالهواء ، كذئب حكاية « الخنازير الثلاثة الصغار » . وكان مظهره مظهر جلف ، او بالحري كان جلفاً بكل معنى الكلمة ، فاطلق بصوت مرتفع صيحة الحروب التي اعتاد ان يستهل بها معاركه : « اني أنيـ... جميعاً !... » أليس الابداع الخيالي ضرباً من اغتصاب الطبيعة ؟

ثم أكب على الورقة البيضاء ، وعاد الى عمله بكل ما فيه من نهم . وبذلك رجع الى صلاحه ونزاهته .

وأطلت الجملة الاولى واثقة ً بزخمها ، وقوة انطلاقها ، وتماريجها ، وغايتها ، سعيدة بطولها الذي كانت موعودة به ، وبعقدها اللامعة المتألقة ، وبما فيها من « الذي » ، و « انما » ، و « عن » ، و « على » ، وبهلالاتها ، واعلاطها النحوية المقصودة ، وبفواصلها ، ونقطها ، والقواطع .

وراح يكتب متكلماً بصوت مرتفع وموقّع : « فاصلة ... نقطة وفاصلة ... » ، فهذا التنقيط هو تنفس الكلام المكتوب . والكلام المكتوب الذي لا يتنفس يموت اختناقاً كما يموت المخلوق الحي .

وبدأت الجملة تنساب ، تلتف تارةً ، وطوراً تنبسط وتنتشر ، وترسم منعرجاتها على الورق ، وتعرض ما فيها من خشونة ، ورخاوة ، ورفارف ملوّنة بهدوء قدسي .

ولما انتهى تجوال الـ « لديات » ، والـ « لتيات » ، والـ « ربّمات » والهلالات والاخطاء النحوية ، والفواصل ، والقواطع ، اشرأبت الجملة لتتجلّى فيها الصورة النهائية ، كأفعى ملكة مثقلة بارتياحها الكسول ، انسابت على هواها الى كل جانب وفي كل اتجاه ، وإن تكن

لا تحركها إلا فكرة واحدة ، ثم ارتفعت الى فوق الحجارة ، ونصبت رأسها اللامع المهيب .

كتب تسعة ايام متواليــة تعدّل اثنتي عشرة ساعة في اليوم . وكان يغمس ريشة قلمه في نفسه ، ويكتب بالدم ، والوحل ، والمني ، والنار . كان يفرغ هذه النفس من سولانج ، كما تُغسل الصحفة من زفرة المرق ، او كما تُنظـّف البحيرة الموحلة من الوحول المترسبة فيها .

كان يضخ سولانج من اعماقه ويتقيأها في روايته ، وهي بعيدة عنه تحسب نفسها في نجوةٍ من الخطر .

راح يسحب منهـا حيويتها وطاقتهـا من بعيد ، ويعرّيها بفنّـه من شخصيتها ، كما سحبت حيويته وطاقته وعرّتـه من شخصيته بقوة السأم التي كانت تنبعث منها . وكان يعريها من شخصيتها تعرية مردوجة ، لانه جعل يبدد ملامحها ويوزعها على اشخاص عديدين من روايته ، فلم تبقَ شخصاً واضح المعالم ، بل لم يبقَ لها وجود .

وكان يخاطبها شامتاً متشفياً ، فيقول لها : « آه ! اردتِ ان تشربي روحي ، فتحملي الآن مغبة فعلتك ! »

وفي مساء اليوم التاسع ، تلقى هدية كتـيباً صدر منذ قليل ، لاحد الكتاب المعاصرين .

وكان كوستال يُعجب بهـذا الزميل ويقته ، ويسمّيه ، على سبيل السخر ، « السيد هو نفسه » ، لأن هـذا الكاتب ، الشديد الاعتداد بمواهبه ، كان كالرشاش يطلق عليك وابلاً من « انا » و « اني » .

لو عاش هـذا الكاتب منذ ثمانين سنة ، لكان كوستال اعجب بـه واحبه ، غير انه مقته لانه كان حياً ، وثقيل الظل .

وفتح كوستال الكتيّب وراح يقرأ :

ابليس

كان يسوع في المدينة ، ساعة اشتداد الهجير ، وكانت المدينة مقفرة ، فسمع صوت مزمار بدا مريعاً في ذلك النور المتوهّج . وسأل عن الصوت ، فاجابه حجر ملقى على الطريق : « هذا صوت إبليس يندب نفسه » .

وكان يسوع قد التقى بابليس منذ حين وقال له : « يا امير الملذات ، يقولون انك تبكي ، أفصحيح هذا ؟ »

فاجاب ابليس : « كوّن البشرُ في اذهانهم فكرةً غريبة عما يسمونه الدموع . فالشياطين يبكون ايضاً . وما البرهان الذي يمكن استخلاصه من ذلك ؟ فانا ايضاً ابكي احياناً » .

قال يسوع : « علامَ تبكي ؟ »

فاجاب ابليس : « ابكي على حقوق البشر ونكرانهم الجميل . لقد هديتهم الى الشر فما ازداد حبهم لي . وانا اعلم ان الناس اليوم لا يحبون السعادة » .

قال يسوع : « ألا تبكي إلا على هذا ؟ »

فاجاب ابليس : « ابكي لاني ، انا الشيطان ، مضطر الى الايمان بالله ، وهذا يؤلمني » .

قال يسوع : « انا ايضاً مضطر الى الايمان بك . لكن ، ألا تبكي إلا على هذا ؟ »

فاجاب ابليس : « اني ابكي ايضاً على نفسي » .

واستطرد ابليس قائلاً : « حلّقت فوق الحروب ، وحرّضت المقاتلين على البطش ، لأن احتقاري ايام لا حدود له . وتوغلت مداعباتي في لحوم بلغت من الطراوة والنضارة حداً جعلها تتمزق بين اصابعي . جثمت على الحيوانات الحارّة ، والتصقت بها ، ثم قتلتها مقترناً بها .

وعندما أنسحب الى كهوفي ، في جوف الصحراء المطـّرة ، لا تبقى لي علاقة بأحد من الاحياء ، ويقتصر نشاطي على ادوات عهري وفجوري . لست بحاجـة إلا الى هذه الادوات ، فهي وحدها تجتاز عتبة مقري ، وهي وحدها تعرف هذا المقر . اني لا اتردد ابداً عندما أضرب . لا احب الناس ولا يحبني الناس . ونحن نختلط ، في صمت ، اختلاط الاطياف والظلال . هذا كل ما اعمل ، ولست مسروراً بعملي » .

فانفجر كوستال قائلاً : « يا له من أبله ! لديه ادوات عهر وفجور ولا يجد فيها ما يسرّه . انه شيطان معتلّ الدماغ والاعصاب . فكل مـا نعلم عـن الله ، وكل مـا تنسبه اليـه جميع الديانات من الاقوال والاحاسيس والاعمال في دهر الداهرين والى ابد الآبدين انمـا يدلنا على ان الله أبله . وبما ان الشيطان نقيضه ، ففي وسعنا القول بان الشيطان ذكي . وهو يعطينا براهين عديدة عن ذكائه . اما اذا كان هو ايضاً أبله ، فبمن نستطيع ان نثق ؟ »

وتابع مطالعته ، فقرأ :

قال ابليس : « إن فيّ لأشياء لا يعرفها احد سواي . فغالباً ما اساعد ولداً حمّالاً على حمل وقره . واهمس في اذن فتاة ان مراودها يخدعها . واذا كان احد الرجال نائماً ومهدداً بانقضاض عدوه عليه ، فاني انبح ، فيستيقظ قبـل فوات الاوان . انام الى جانب عجوز هرم يرتعد مـن البرد ، فادفئـه تحت جناحيّ . يا للغرابة ! اني احب النـاس . واحب الهالكين ذوي الرؤوس المستديرة ، اذ يـدب بعضهم على البعض الآخر كالديدان ، بينما قلوبهم تخفق في صدورهم متسارعة النبض ... »

وتوقف كوستال عن القراءة ، وتسارع خفقان قلبه اذ لامسته كهرباء هذه الجملة ، واحس انـه متواطىء مع اولئك الهالكين ذوي الرؤوس المستديرة تواطؤه مع الاولاد والحيوانات .

وعاد الى الكتيّب ، فقرأ :

قال له يسوع : « انت ممتلىء بالسموات ، فانت ، اذاً ، المفتن الغاوي . لكن ، أأستطيع ان اصدقك ؟ »

فاجاب ابليس : « لماذا لا تصدقني ؟ »

قال له يسوع : « ألا تدري ان عقاب الشياطين يقوم على ان لا يرضى احد بان يصدقهم ؟ ظننتك تتكلم بدافع الكبرياء » .

قال ابليس : « ليس لي كبرياء » .

غير ان يسوع كان يقول في نفسه : « لنحجم عن ان نعيد اليه ما هو مستحق له لئلا يمتلىء بالكبرياء » .

ولما انسحب يسوع ، راح يبكي ، ثم عاد الى ابليس وقال له :- « بكيت لاني صدقتك . فيا لوسيفوروس ، انت الذي خُلقتَ كما يخلق العيد ، وانت الذي كان مشرق البهاء في السماء ، ارفع صلاة الى ابي ليعيدك الى مروج النعمة حيث كنت تتألق » .

ولكن إبليساً قال : « هذا غير ممكن » .

قال يسوع : « لماذا ؟ قلت انك تفعل الشر ، وان فعل الشر لا يسرك . ثم قلت انك تفعل الخير » .

قال ابليس : « وعندما اعمل الخير ايضاً لا اجد في عملي سروراً » .

وعندئذٍ تركه يسوع وابتعد عنه .

فخرجت الوحوش من الغابات ودنت من ابليس لتراه يتألم . ولما ازفت ساعة خروج الناس من منازلهم ، لان حرارة النهار خمدت ، تجمعت الحيوانات التي تصلّي لاجل الشياطين ، وهي شبيهة بالازهار التي لا سيقان لها ، وقالت لابليس : « اذهب في سبيلك لئلا يراك الناس فيرجموك » .

فمضى ابليس الى المدن حيث كان يعمل الخير والشر .

واطبق كوستال الكتاب ، ووضع اصابعه على جفونه فترة قصيرة ، ثم اكب على الكتابة .

كتب اثني عشر يومــاً ، بمعدل عشر ساعات في اليوم ، وكان يفيض بالبذاءة والسذاجة الخلّاقتين ، ويتسلّى بقدرتـه على الابداع . وكان مــا كتبه حسناً .

ثم كتب اربعـة ايام ، بمعدل اربع عشرة ساعة في اليوم ، ثم اخـذ قسطـاً من الراحـة ، وطـارد المرأة طوال ثلاثـة ايام ، فكانت له مغامرتان .

ثم كتب خمسة عشر يومــاً ، بمعدل اثنتي عشرة ساعـة في اليوم ، ثم اخـذ قسطاً من الراحـة ، وطـارد المرأة يومـين ، ولم تحـدث له مغامرة .

ثم كتب اربعة عشر يوماً ، بمعدل اثنتي عشرة ساعة او ثلاث عشرة في اليوم ، ثم اخذ قسطاً من الراحة ، وطارد المرأة ثلاثة ايام ، فلم تحدث له مغامرة .

ثم كتب ستة ايام ، بمعدل تسع ساعات او عشر في اليوم . وفي مساء اليوم السادس تنفس الصعداء كالثور ، ونظر الى مـا فعلت يـداه ، فاخذته سورة من الجنون وقال : « لقـد قمت بعمل عظيم ! » وكان قد افاض مادتـه الخاصة ، ومع ذلك بقيت فيه كاملة غير منقوصة ، ففي الشغل كما في المتعة ، كان يظل دائماً ممتلئاً بما أفرغ منه نفسه .

ثم كتب احد عشر يومــاً ، بمعدل اربع عشرة ساعـة في اليوم . وفي صبـاح اليوم الثـاني عشر الذي كان اليوم الحـادي والسبعين مــن ايام خلقه ، تعب لكثرة ما بذل من جهود ، فعاد الى باريس .

تم كتاب «شيطان الخير» ويليه كتاب «المجذومات».



منشورات عويدات ١٩٨٧/٨٥٥

Montherlant

Le démon du bien

Texte traduit en arabe
par
Georges MASROUA

MARIANNE / OUEIDAT
Beyrouth

Henry de Montherlant

Le démon du bien

